
رواية
خلل
أحمد الهندي

خَـــــلَل

بيانات رواية خَلَل:

- الرواية: خَلَل
- الكاتب: أحمد الهندي
- النوع: رواية
- تحرير وتدقيق النص وتصدير الغلاف: رياض الحَمّادي
- لوحة الغلاف بالذكاء الاصطناعي: رياض الحَمّادي
- تنفيذ الغلاف: أمنية محمد
- إخراج داخلي: سليل الفراعنة
- سنة الإصدار: ٢٠٢٦
- الناشر: مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية، سبتمبر ٢٠٢٦
- رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب، صنعاء: ٤٢١ لسنة ٢٠٢٦.

فازت هذه الرواية بجائزة السرد اليمني (حَزاوي)، الدورة الرابعة ٢٠٢٥، برعاية بنك اليمن والكويت. والرواية متخيل أدبي ولا تُعبر بالضرورة عن رأي كاتبها ولا رأي الجائزة وممولها.

حقوق هذه الطبعة محفوظة لمؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية وللمؤلف. يُسمح الاقتباس في حدود الدراسات والمقالات مع ضرورة الإحالة إلى اسم الكتاب والكاتب وناشره "مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية"، ما عدا ذلك من استعمالات يُرجع للناشر وللمؤلِف لأخذ إذن خطي.

YKB
بنك اليمن و الكويت يُلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني

صَلَل

رواية

أحمد الهندي

٢٠٢٦

YKB
بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني

إهداء

إلى زوجتي الحبيبة: أنتِ نبراس حياتي وقارئتي التي لا يماثلها أحد.

إلى والداي وأخواتي الأعزاء: أنتم مهد الأفكار وسِناد النفس.

وإلى كلّ الفقراء الكادحين الذين لا يلتفت إليهم أحد ويواصلون الحياة رغم تلاشي أحلامهم: هذه أصواتكم وهي تستعير قلمي.

❊ ❊ ❊

عُلِّقَتْ قُصَاصَةُ وَرَقٍ عَلَى سُرَادِقِ مَبْنَى المُؤسَّسَةِ الاقْتِصَادِيَّةِ، الخَّاصــة بالغُرفَةِ التجّاريّة، فِي لَيلَةٍ غَرَّاءَ شَــاتِية. كَانَ الخطُّ مألُوفًا إليهِ، اقتَرَبَ مِنهَا، واشرأبَّتْ عُنقُهُ صَوْبَها، حتَّى اِستَطَاعَ قِراءَةَ نَصٍّ سَــبَقَ لَهُ رُؤْيَتُهُ فِي ذَلِكَ المَكانِ المُوحِشِ المُظلم. لكنَّـهُ آثَرَ تِرْدَادَهُ هـذه المرة بصــوتٍ جَهيرٍ هـامِس: «البَـائِسَ الفَقِيْرَ! إنَّهُ شــخصــيَّةٌ هالِكَةٌ، كائنٌ مَعزُولٌ أُقصِــي من نُظُمٍ اِجْتِمَاعِيَّةٍ مُزيّفة. ظَنينٌ بجُرمٍ لن يَعرِفْهُ أبَدًا. إنَّهُ غارِقٌ فِي إثْمٍ لَمْ يَقتَرِفْهُ بمَحضِ إرَادَتِهِ!».

❊ ❊ ❊

اسمُهُ عبْدِالغَفور

ظَنَّ عَبْدالغَفُور بنفسِهِ شرًّا، حينما خرج إلى عمله في صبيحةٍ صيفيّةٍ حارقة وهو يردِّد: «يَغمُرني القلق في هذه الأيام، كما جرت عادتي. أتساءل: هل يمكن أنْ تتمَّ الخِطبة عَلَى خيرٍ يا رب؟» يَظْهَرُ أَنَّ حَالَهُ قَدْ سَاءتْ مُؤخَّرًا، فَقَد بَدَا عَليه، إِبَّانَ هَذا الصَّباحِ الجافّ، شُحوبُ ذُعرٍ وأمَارَاتُ اضْطِرابٍ عَميق. وَلَا تُخطِئُ العَين، الَّتِي يُفْتَرَضُ أنْ تَغُضَّ عَنْهُ الطَّرْف، لِتَواضُعِ هَيئَتِه ورِقَّةِ مَلبَسه، أَنَّهُ فِي حَالَةِ هَيَجانٍ ذِهْنيٍّ وَقَلَقٍ عُصَابِي.

كَتَبَ في مذكَّراته اليوميّة، قبل أيامٍ من خروجه من غرفته إِلَى العمل، وتعريض بشرته السوداء لغضب قرص الشمس الصيفي اللَّاسِعِ، شَيئًا عن اِنْزِعَاجِهِ وصُدَاعِهِ ومَرَضِهِ:

«أُعاني من صُداع مزمِن، يطالُني كلَّ يوم، يشتدُّ صباحًا وينشُط ليلًا، فيعكّر رغبتي في التركيز عَلَى عملي. عادةً ما يشتدّ بعد الواحدة ظهرًا، ويتأزَّمُ وضعي مع أنوارِ العصر المركَّزة اللَّافحة مع نزولي إِلَى مسجد "وَرْسَما". ليس صُداعي تقليديًّا؛ يبدأ بترنّح جسدي وهيجان أعصابي، فأفقد هدوئي، ثم تلفح رقبتي حرارة فائرة كأن غمدًا منقوعًا في صهارة قد حطَّ عليها. ينتنُّ فمي، وتنشقّ شفتاي بغضب، وتجحظ عيناي في وضعٍ ملتهبٍ يحدُّ من قدرة بصري بعض الشيء. وقبيل المغرب، مع ضُرُوعِ الشَّمس، يصيبني هذيانٌ واضطرابٌ في عقلي، ويلفّ دماغي صداع أليم يحول بيني وبين كلِّ تفكيرٍ

سـليم. أرى الجوَّ مُتقلِّبًا معكوسًـا، ولغط السـوق ينفذُ في أعماقي تاركًا إحساسًا يفقدني رباطة جأشي. وقبل الأذان بقليل يُخيَّل إليَّ أنَّ الجوَّ ينقَلِبُ أمامي، فكأنما أراني وسـط جحيم مستعر، داخل كوابيس جهنمية، ورؤوس العفاريت المُلتهبة تمرُقُ وتعبث من بين قدميَّ وفي أحضـاني، فتقفز عَلَى عالمي، آه! وأبوء بعد كل ذلك وحشًـا لا يَنْطِقُ وَلَا يُفكِّر... إنَّه يومٌ جديد، لكنني متوتّر الأعصـاب ومنزعجٌ من قلقي حيال شـأن خِطبتي. بعد أيامٍ، سأبدأ في تكوين عائلتي المستقبلية، كي أصيرَ إنسانًا مُحترمًا صالحًا. عليَّ المُضيُّ بتفاؤلٍ، حَتَّى ولو لم يُناسِبنِي ذلك!».

يظنَّ عَبدُالغفور أنَّه مُقدِمٌ عَلَى يوم سـيكتب له سـعادةً حقيقية للمرة الأولى في حياته، لكنَّه أرجأ فرحته حَتَّى يتحقَّق له رجاؤه الوحيد في هذه الحياة، ألا وهو سلامة الاسم من العار والشنار.

عَبدَالغفور رجلٌ في السابعة والعشرين من عمره، له قامة فوق المربوعة بقليل وبِنيةٌ ملائمة، عَبلة، مع لحيةٍ كثّة محدَّدة بموسـى وشـارب محلوق مخضـرّ. تتَّسـم عيناه السـوداوان بالوسـاعة والتكوّر، ويرتدي فوق بشـرته السـمراء الداكنة – والَّتِي تلتمع كقِدْرٍ مزيّتة– قميصًـا أبيضًـا سُـكريًّا بأزرار محكمة، مع إزار تقليدي محلي الصنع بلون غامق من درجة بنية.

هكذا كان يمشي في الشارع الأول المزدحم والمكتظ بالناس من باعة، وبسـاط، ومحلات متنوعة في منطقة (شَـرَج با سـالم) وسـط البلد في مدينة المكلا، قاصدًا مكتب دارته الحكومية حيث يعمل في دائرة صندوق النظافة

براتب تعاقدي وجيز، ولكن بعد أن يمُرَّ عَلَى عيادة طبيب الأسنان الخاصّة، وعيادةٍ أخرى جديدة. لكِنَّ الأعمال والأشغال تلاحقه، فلا يجد وقتًا لنفسه، اللهم ما عدا خلوته الوجيزة في غرفته الصغيرة؛ ممَّا يزيدهُ قلقًا.

عن أعراضه المرضية، كتبَ مُذكَرةً أُخرى في يوم قديم، يشير فيها إِلَى امتعاضه من طلب عائلته له بالذهاب إِلَى مختصٍّ نفساني جديد:

«زُرتُ طبيبًا آخر في هذه الصبيحة؛ حَتَّى لا تغضَبَ أمِّي، هي مِلحاحَةٌ، وأختاي كذلك تَحُثانني عَلَى استزارة طبيب جديد... المهم أنني استأذنت الغياب من مديري البارد الجَلِف، فأذِنَ لي بالغياب بشيءٍ من الاستيحاش، وهرعت إِلَى عيادة الطبيب (م...) لطلبه رؤيتي أوَّلًا، فقال لي إنني مصابٌ بمرض الشَّقِيقَة. ثُمَّ غادرته إِلَى طبيبٍ آخر جديد، عَلَى أمَلٍ متجدِّد، وقلتُ له كم تفاقمت حالَتِي الصحيَّة، وكم بدوت أمام الموظَّفين في المكاتب ضعيفًا مهزوزًا مضعضع القُوى! عَلَى الرغم من سلامة ظاهرِ بدني من أيّ عَيب أو عِلَّة! فأشادَ بصمودي، كأنَّه يرفَعُ معنوياتي، ثُمَّ طرد المجاملات، وقال إنني لا يعيبني عيب، اللهم إلا ما في عميق نفسي من يأسٍ ورفض وغضب من الواقع. كان أوَّلَ طبيبٍ يُصرِّحُ لي، أنَّني أُعاني في صميمي من فِكرٍ خبيثٍ مرضي، وأنَّ نفسي ليست سَعيدة».

كان يمشي وهو يحسّ بلسعات الشمس في بشرته، يتذوَّقُ بكراهةٍ مِلحًا عَلَى شفتيه الرطبتين، والهواء من حوله مشحونٌ بطاقة عالية كمحطة كهرباء ضخمة تدوّي عاليًا، ذلك ما عاون صداعه ضده وجعله ضحيةً لتعبٍ لم

يكن ليبدأ بهذه السرعة في يومٍ مهمّ جدًا. وحدَّثَ نفسه بحزمٍ:

- إنَّهُ يومٌ مهمّ جدًّا.

ومضى يُسارع المشيَ حَتَّى بلغ السوق في ساحة الشارع الأول وكلُّها باعة خضار ونسوة ذوات سمرة فريدة، وهُتَافُ العَمَالَةِ والمُستخْدَمِينَ الشَّمَالِيينَ يَعلُو جوَّ السَّاحة. وفي عِمَارَةٍ مُجاوِرة، تَأتِي عَن يَمِينِهِ إِلَى داخل الشارع، يمكن إيجاد لَافِتَةٍ قديمةٍ مغطاة بالتراب، معلقة في منتصف الجدار. كانت العيادة الَّتِي يقصدها عَبدالغفور، ولسببٍ ما لم يفهمه فورًا، مغلقة.

ما التالي في جدوله الآن؟ إنه لا يعلم متى يتوقف، ولشد ما يريد التوقّف. هرع بكامل قوته نحو ساحة بيته. بعد قطعه لزُقَاقِ (القاسمي) ونزوله في الشارع الثاني الغاصّ بباعة التمر والخضروات والمكسرات والحلويات، مَرَقَ بين الجموع بانسياب حَتَّى وصل إِلَى نهاية الشارع مع منحدر طيني هادئ في ركنه بناية من طابق واحد وشبَّاكان في كل جهة ومدخل يتوسط الدار عليه ستر للاتكاء. ذلك بيته، أو بيت أهله.

أخذ يقول لنفسه: «ليس لديَّ وقتًا أهدره في الأطباء! سأسرع نحو الدائرة عسى ألَّا أوبَّخ!»، وكأسرع ما يكون، امتطى خيلَهُ الميكانيكي وحصانَ القرن الواحد والعشرين، دراجته النارية. كان مقعدها مرقّع، وهيكلها صدئ متآكل، وتفتقر لمرايات عاكسة وصدام حامي. شغَّل المحرك يدويًّا، كانت للدراجة بطارية تشغّله بضغطة زر، لكنها سُرقت، ولم يدَّخر عَبدُالغفور مالًا يبتاع به أخرى... فتل المحرك برجله اليمنى مستخدمًا

كلَّ قوته، وراحت الدراجة تعمل في عناء كثير كأنها عجوز شـاخت عظامها وتهتكت مفاصلها، وصوتها مزعج كطلمبة ماء علق بُرغيُّها الأوسط، وانطلق بها مرتبكًا إِلَى مكتبه في دارة صندوق النظافة.

عمله بسيط، فهو كمحصّل حافلة متواضع، يستلم عهدة حسابات ما، يقبضها من عدة مستخدمين في سوق العمل، ومن ثم يودعها في خزنة المالية الخاصـة بالدارة، مثل الجابي، كما يتكفَّل بالأعمال الورقية والطباعة المكتبية، ويحضّ عَلَى تتبع أعمال المنظفين في الشوارع وترتيب جداولهم.

بعقربين مضطربين، أشارت ساعة يد عَبْدِالغفور إِلَى الثامنة وربع. لقد تأخَّر بالفعل، وعليه أن يحجز صـندوق زينة الخِطبة والحِلقة كي يمر عليه مسـاءً، زد على ذلك موعده المجدول مع طبيب نفسـاني جديد! إنه متوتر بالكامل ويشعر أنَّ رأسه ستنفجر. ظل يقول لنفسه بصوت خافت: «هل ستمضي الأمور بخير؟ هل هذا ممكن؟»، الأيام وحدها ستجيب عنه.

في دارته سلَّم عَلَى مشرف المكاتب، فقال له بصوت غير مبالٍ:

- المدير يرغب في رؤيتك.

أسرع من فوره إِلَى مكتب المدير، وهناك رأى وفدًا غريبًا عَلَى المدير، وبدا أنهم من خارج البلد.

- أهلًا بالزين! تفضَّل اقعد.

- حياك الله.

اقتعد عَبْدالغفور وقلبه يخفق كموج بحر متردد عَلَى الشـاطئ، يموج

ويغلّف بعضه بعضًا في حركة مضطربة تكاد تخنقه. أخبره المدير بأن هذا الوفد يعتزم تقديم خدمات جديدة للدارة، وربما ستقلل الأيادي العاملة فيها لما تتضمنه من سرعة وتوفير جهد وتكنولوجية مطوَّرة. وأضاف المدير بنبرة جافة وأصابعه تطرق مكتبه الخشبي المطلي بطلاء بني لماع:

- هل أتممت تدقيق الأوراق؟

تلعثم عبْدالغفور، وقال:

- كيف؟ ... آ، لا، كنت في طريقي...

نظر المدير في عيني عَبدالغفور مليًّا، كأنه يسأل نفسه عن مدى أهميته، وإذا به يلهج بحدّة:

- اسمع يا عبدَالغفور، الأعمال المكتبية تقوم عَلَى الالتزام والانضباط. هل تدرك ذلك؟

- نعم... نعم...

وبعد أن تلقّى عبدالغفُور توبيخًا محترمًا، أقفل راجعًا إِلَى الشرج كي يوصل الأوراق إِلَى مكتب (حكيمي) للتدقيق والمراجعة والخدمات الكتابية. هناك وجد نفسه والتقط أنفاسه بعض الشيء.

ما أسرع هذا الصباح عليه وما أثقله! كانت الناس تفرفر في مرابيعها من الحر، فهذا الصيف يشتهر بأربعينية درجة حرارته، ولا يغادر وكر قط أو مخدع شرطي إلا وجرَّه من كمّه بالعرق السائح عَلَى بشرة ساخنة. تحدَّثَ عبْدالغفور وهو يقود بهمس خفيف كأنه يداعب الماء بأصابعه: «تقودني هذه

الحرارة إِلَى طيش وخبل! أوَّاه من هذا الصباح... أف.. أحيانًا أريد لو أختفي من العالم فجأة كأن لم أوجد فيه قط»، وانفتل إِلَى منحدر مسجد الجامع الذي يزدحم الناس عليه عند باعة المكسرات والمساويك، لكنَّ هذا يحدث فقط في المساء، أما والشمس ساطعة كعين مفتّش حذق تستطلع كل شبر من مسرح الجريمة، فلا مكان هنا للكماليات.

واصل مضيَّه إِلَى مكتب حكيمي، حيث سيتذكر فيما بعد كم لهذا الحدث من أهمية في مساق حياته التالي والجديد تمامًا. إنَّ احتمالية تعرّضنا لمواقف تضع حيواتنا عَلَى المحك لفرصةٌ جدُّ مفصلية كيما نتطور ونخطو بقدم إِلَى أمام؛ ذلك هو عينه ما أحسَّ به عبْدالغفور بعد انتهاء يومه الحارق. إنَّ حقيقة امتلاكه لبيت وعائلة صغيرة ليس هو ربّها رغم كلِّ ما فعل، وإنما يوجد شقيقه الأكبر قيس، وهو يكبُر عبدالغَفُور بستِّ سنوات؛ تجعله غاضبًا. وقيس هذا رجلٌ عجيب، لكم سترى في سمته من شبهة سوء وظلمة، وثوبه الطليل لا يبارح جسده المتعرّق الفائح بروائح كتلك المنبعثة من غرف السهرات المغلقة. هذه الحقيقة تعكس مدى كبر المسئولية المترامية عَلَى عاتق عبْدالغفور وهو صغير ذكور العائلة، الَّتِي هي بالمناسبة يتيمةٌ منذ سنين وسنين...

تيتّم عَبدالغفور وهو في السادسة. وبلغ قيس فجأة وهو في الثانية عشرة، أو هذا ما كان يفترض أن يحصل. لا يدرك البشر كلَّ أمانيهم، وما تمناه عَبدالغفور بشدة هو متعته النفسية وراحة باله وخلوه من الهموم، وللحياة في هذا شئون، فإذا بها تلطمه وتحمّر له خَدَّهُ الأسيل، وتُسلّط عليه نوازل الزمان

غيرةً أيُّها يكتسحه بصروف الألم والبلى. لكنه تشبث بنفسه، وتحمَّل جراحه المتوارثة، وانكبَّ عَلَى العمل والانشغال بُغية أن يكون رجلًا صالحًا ذا سمعة طيبة في المجتمع، ساعيًا إِلَى إرضاء أعين الناس بكلِّ ما أوتي من جهد وطَول. تبقى مظنة السوء تلاحقه رغم كل الجهود المضنية الحثيثة الَّتِي وطأت هامته، فشقيقه محط شكوك ونمائم الناس، وبشرته السمراء الداكنة تحطّ من قدره بين أعيان المجتمع وتجعل من الريبة أول سهام الخواطر في أذهان الناس البسطاء والعاديين، وهم أكثر المجتمع، وأبلغ من قد يأمل عَبدالغفور بمعرفته معرفةً سطحية طيبة. يحاذر أنْ يكون من ربابنة السوء ويتَّقي مع كل حركاته مظنة الشر ونيَّة المكر في التعامل مع الخليقة، ولئن نظر الرائي إليه ممعنًا، فسيجد في مجمل حركاته قلقًا وخوفًا عميقين.

ليس في نفسه عيبًا؛ فلا فقره بالمحرج، ولا شكله بالمستقبح، لكنه يرى عكس ذلك، كما أنه ريَّاب ظَنون، وتقتله أعين المارَّة وهي تنزلق عَلَى ردائه وقميصه ونعليه، حَتَّى يكتم أنفاسه ويبلع ريقه في غير مرة. يسعى الآن إِلَى الخطبة وسلك مسلك العفاف الحلال، ورغم مشاق الطريق بالمطبَّات والعقبات الوعرة، إلا أنَّ عبدَالغفور قد اختار ما يطمئن له ويسكن لحدوثه بهدوء دون صخب ولا هرج، زواج خفيف بسيط، يستره ويستر أهله، هذا كل ما أراده.

لكِنَّ قيس يكنُّ في صدره مغالَةً لعبدالغَفُور، ولا يخفي بغضاءه عنه، اللهم إلا أن يتلاعب بالألفاظ ويختصر الجمل الكاوية المذيبة للأكباد. شكله مقبول في الوضع الطبيعي، لكن عندما يمضغ القات، ويشرب

السـيجار، ويرتدي ثيابًا رثّة رمادية، ويترك أول زرَّين من سـترته مفكوكين، فإنه يبعث عَلَى النفور والاشمئزاز ويساعد عَلَى الغيبة والظن السيء. جرت العادة بين الشـقيقين عَلَى عدم بدء محادثة حرجة عن الزواج أو العمل، كيلا يفور سـخط أيٍّ من الفريقين. واليوم هو يوم مهم لعبدالغفور، لا يريد دقيقة منه أن تضيع دون عمل وخصاصة. وهب أنه فكَّر مليًّا في جدولة دقائق يومه فضلا عن ساعاته، فإنه بلا شك سيحتاج إِلَى معونة ومساعدة شخص قريب إليه، لا يفصله عنه حاجز كُلفة ولا سور حَرَج. وفي النهاية، اُضطرَّ عبدُالغفور لطلب يد العون من شـقيقه قيس. فقال له في وقت مبكّر، بعد رفع جلباب الليل وبروز خيوط النهار الأولى، بعد أن ناداه دون اسم:

- أنت، إي! انهض.

كان قيس قد أغمض جفنيه قبل سـاعتين فقط ولا يريد سـماع صـوت إنسـي، فتجاهله بلا تفكير ومضـى في أحلامه يرتع ويمرح ويقفز ويلهو، غير عابئ بحياة شـقيقه المنضـبطة والمتزنة، مهملًا حقَّه وحقَّ عائلته الاجتماعي والصُّـوَري. ما باليد حيلة سـوى اسـتخدامها عَلَى جفائها وجفافها. ربَّت عبدُالغفور عَلَى كتف أخيه وهزهزها قائلًا بصوتٍ عظيم:

- قلت لك انهض، أحتاجك يا أخي!

رُفعت أستار عيني قيس، وقال مغاضبًا:

- ماذا تريد؟

- أنا آسـف يا أخي، اليوم سـيكون طويلًا جدًّا، تعرف بشـأن...

الخِطبة، وعليَّ أن أتفقَّد حجز صـــندوق المهر والحلقة، وأعمالي في الدارة لا تنتهي، فهل يمكنك أن تتكفَّل...

لم يمهله أن يكمل كلامه، فقاطعه زاجرًا غضبانًا:

- انقلع! لا دخل لي. فلتذهب بنفسك، أنا سأنام.

وهكذا باءت محاولة عَبدالغفور بالفشـــل، كما هو الحال مع كثيرٍ من محاولاته. الفشل والاستنقاص والدونية يلاحقونه مذ كان فتيًّا، وهذه اللحية وذلك الشارب لا يغيّران من حقيقة رذالة هذا الإنسان نسبةً إِلَى معيار مجتمعه.

تحت الشمس اللاذعة، هرولَ عَبدالغفور بمجامع طاقته صوب مكتب حكيمي في الشـارع الأول في عمارة النقابة العامة للمهن التعليمية والتربوية، ودلف إليها بخطوات سـريعة كلها الخوف والقلق، كأنَّها تدقُّ في جوف عبْدالغفور بضـراوة حافِرِيْ حصـان في سـاحة الوغى! كان الشـارع يصـدر ضـجيجًا مألوفًا، والباعة يتهادون عَلَى بعضـهم بكلمات معروفة، والشـمس تطلي زِفْت الشَّـوارع بتَرَدُّدَاتِ الذَّهَبِ المُلْتَهِب، وردهة الشـارع الأول المسطّحة ينتشر عَلَى أطرافها باعة الملابس والخضار وندماءها الشماليين والصـوماليين والمولَّدين يصـيتون بعقيرتهم عَلَى جناح السـوق قائلين أسعارهم وعروضـهم، وبعضـهم يتحاكون فيما بينهم وينقلون أخبار البعيد والقريب، ويتشـاكلون إلا فيما التبس منهم. ثم إنَّهم يكدُّون ولا يتقاعسـون، وأملهم في الرزق كبير. «ومن يقنط من رحمة ربه؟!»، سـأل عَبدالغفور، وجمع قبضـته، وابتسـم ابتسـامة صـغيرة ندَّت عن عزمٍ ومحاولة جديدة في

طريق به أحابيل الشيطان وفخاخِ النفس الهاوية.

كان هاتف عَبدالغفور يرنّ اللحظة. أنزل يده داخل حزام خصره والتقط جوَّاله ليرى. وماذا فيها؟ رسالة من شقيقته التوأم، الَّتِي تعتني به وتتبَّع خطواته، وهي إحدى اثنتين، واسمها سارة. فتاةٌ جميلة، زكية المنظر، سمراء كحيلة، ثغرها متورّد وجبينها واسع، وشعرها سبط مسترسل طويل، لها رائحة البخور البدوي، وصوتها كقرع الأجراس حازم ولطيف. كتبت له سارة رسالةً، فيها: «كيف تسير الأمور معك؟ أرجو من الله أن ييسِّر أمرك!»، فابتسم عَبدالغفور، وخاطب نفسه يقول ونبرته في خياله سريعة رزينة: «أحتاج ما حييت إِلَيها وعائلتي، ما دمنا نحن معًا؛ فسيُكتب لنا الخير حتمًا». وانبرى يردُّ عَلَى شقيقته برسالة قصيرة كتب فيها: «إني بخير، شكرًا لكِ»، وأتبعها بوجْهٍ تعبيريٍّ مبتسم.

في واقع الحال لم يكن عَبدالغفور بخير بتاتًا، وتُرجم ذلك في حركة دخوله إِلَى عمارة مكتب حكيمي، حيث اصطدم كتفه الأيمن بحافَّة الباب وعلق كمه بمزلاجه، وترك كل ذلك أثرًا مُرًّا وحرارةً لازمة في مكان الضربات، حيث احمرَّت وانتفخت، فكأنما سرت في أوداجه نيران وحمم. دخل وهو يشعر بالحمى تنغز جبينه وإبطيه، وذهنه مشوَّش، بالكاد يرى لتفاوت الإضاءة.

كانت فكرة واحدة هي الواضحة في سماء عَبدالغفور: «أعيدوني إِلَى البيت». حاجته إِلَى شقيقه دائمًا ما تظهر حينما يواجه نشاطًا اجتماعيًّا، اليُتم جعل عَبدالغفور يرى في شقيقه منزلة الأب البديل، ودفعته تصرفات شقيقه

الرعناء إِلَى احتقار تلك الأمكنة المقدّسة فيما مضى، وطفق يقابل عدوانية شقيقه بمثيلها في أحايين كثيرة. لكنَّ عَبدالغفور يقول: «أريد من حياتي أن تظلَّ هادئة تسير عَلَى رتابةٍ إِلَى الهدف البسيط المنشود، هذا كل شيء خاصٌّ في حياتي. عدا أنَّ راحتي تتمنَّع عليَّ، كأن بيننا خِصام قديم». هكذا هو؛ لا يمرح كالمُهر، ولا يموء كهرّة، إنه فقط يعدو كالخيل، ويتحمّل كالجمل.

برأس دائخ، دخل عبدالغَفور وقلبه ينكمش ويخفق بجنون، مع شعور صغير بضمور عضلاته كلها، وشعور باتجاه مخه إِلَى خلف رأسه كأن الثقل ها هناك تركَّز. واحدودبت الدنيا في ناظريه، وانثنى بكل عصبية وهلع مع مدِّه ذراعه إِلَى مقبض الباب. تسمَّر بضع ثوانٍ، كأنه يراجع قراراته، عَلَى بساطتها، ثم جمع قوته كلَّها في حركة واحدة، فأمسك بالمقبض وفتح الباب بحزمٍ مفاجئ وسرعةٍ مريبة، ليظهر من خلفه على مواربة، بخجلٍ طفيف، وقد غمر العرق المتفصِّد من مسامّه جسده كلَّه.

إنَّ عبدَالغفور الآن داخل مكتب حكيمي للتدقيق اللغوي والمراجعة، لتنفيذ طلب رئيس دارته الذي هدده ضمنيًا بالفَصْلِ وسرعة الاستبدال إذا هو لم يوفِّ التزاماته في موعدها المحدَّد، وهذا التهديد عينه هو ما أربكه وأنبت له شعرًا في أنفه. عَلَى أية حال، سيخبر عَبدالغفور نفسه لاحقًا كم كان لهذا اللقاء من تغييرٍ مفصليٍّ لمجرى حياته العجيب جدًّا.

❊ ❊ ❊

مكتب حكيمي

في شهادة ميلاده، سُمِّي باسمٍ سهل النطق يُلفَظ بحرفين. هذان الحرفان في نظره يشـيران دائمًا إِلَى محدودية حياته وقلة شـأنه في وقت واحد، لكنه يعترف بشيء واحد فقط: **"إنَّ المعاناة هي حقيقةُ وجودِ البشرية العظمى"**.

دخل عليه رجل داكن بدا كالفحم لونًا، وحيَّاه بصوت منخفض به شيم التهذيب والأدب. عرف عَبدالغفور من فوره أنَّ هذا الرجل الذي سـيقابله لتوِّه يعيش فترة ركود عـاطفيـة، ولم لا؟ وهو يختبئ وراء مكتبه الخشـبي المتآكلَةُ أطرافُهُ والأغبر لونُه كأنه جذع محترق، يحدِّق في شـاشـة حاسـوبه بضـجر بيِّن، ويصـكُّ وجهه بين شاردات ذهنه الهائمة والعائمة في لجج الهمِّ المظلمة. وغير هذا ليس بهامٍّ إِلَى حدٍّ كبير، وسـواه لا يعدو أن يكون ضـربًا من أحلام اليقظة وتعاسة الواقع والسخط عليه مع كامل اللامبالاة بما يؤول إليه العالم من حوله. كل ذلك كان ظَرَفيًّا في عين الواقع، وجاز لعبدالغفور أن يسـلِّم عَلَى رجل المكتب بلا أي أخذٍ لاعتبارات السـلامة النفسـية للرجلين، كما لو كان العمل أهمَّ من صـحة الإنسـان البالغ، وضـريبة البلوغ هي تحمُّل الألم في صمت.

كان رجلًا في نفس قامة عَبدالغفور، أصـفر البشـرة، ناعم الوجه لامع الخدَّين، جاحظ العينين بنحوٍ دائري، شعره متوسط الطول وممشَّطٌ بالدُّهن إِلَى القفا، عنقه طويلة ويداه مكتنزتان عليها أثر بِنية قويمة، يرتدي بزَّةً رسمية

ذات لون رمادي، مع قميص ثلجيٍّ ناصـع، وخفَّين أسـودين عليهما جلد حذاءٍ بنيٍّ داكن، أنفه أقعى ومبسـمه متورّد لكنَّهُ خفيف الشـحم، فكُّه ناتئ يعظُمُ حجمًا عن فكٍّ عَبدالغفور، واسـم هذا الرجل هو ياسـين عَبْدالحَكِيم. كان والده يكنَّى قديمًا باسـم حكيمي، واستنادًا لمحبة غريبةٍ في اِشتِدَادِها لم يعرف ياسـين مُنْتَهَاهَا، قرَّرَ تسـميةَ مكتبه بكنية أبيه الراحل، مما دفعه إِلَى عدِّ المكتب عائِلَتَهُ الوَحِيدَة. يكتري شَـقَّةً صَـغِيرَةً في منطقة الغارِ الأحمر المطلَّة على خور المكلا بِغُرْفَتَينِ وحَمَّامٍ ومَطْبَخٍ ضَـيِّق. يَقْضِـي جُلَّ وقته في مَكتَبِهِ فلا يخرُجُ إلَّا لِلصَّلَاةِ وتناول وجبات الطعام، لياقته منضبطة وجسده مُتَّسِقُ القَوَام، يَلعَبُ فِي الصَّـالَةِ الرِّياضِـيَّةِ ثَلَاثَةَ أَيْامٍ أُسـبوعيًّا، ويَحرِصُ دَائمًا عَلَى تَنَاوُلِ عَشَـاءِهِ قَبلَ المَنَامِ بِسَـاعَتَين. إنَّهُ لَا يُدخِّنُ، ولا يَمضَـغُ القَاتَ، ودائِرَةُ معارِفِه صَـغيرة جدًّا. وحياتُهُ النفسـية فَاتِرَةٌ تَفْتَقِدُ حِرَّة المَعنَى منذُ أنْ انفصـلَ عن زوجته...

حينما دخل عبدالغفور وأغلق الباب معلنًا ولوجه، رفع ياسـين عينيه، ثم أعادهما إِلَى الشاشة ليلعب دور المشغول العامِل، اكتفى بردِّ التحية أوَّلًا، ولم يسـأل عن حاجة زبونه. هذه ليسـت المرة الأولى لعبدالغفور في مكتب حكيمي، فهو زبونه المفضّـل وكلُّ العمل الورقي الخاصِّ بالدارة -عَلَى قلته- قد اهتمَّ به ياسـين وعاينه كثيرًا حَتَّى إنه حفظه وعرف معظم أسـانيده وما ينقصها وما يخلُّ بها...

شـعر ياسـين بامتعاضٍ كبير فور رؤيته لعبدالغفور، وقال في نفسـه شـيئًا

يدلُّ عَلَى استياءه: «يبدو لي أنَّه الوحيد القابل للإرسال إليَّ فقط، ظاهره يوحي بالتعب والتشوّش، وهذا العرق المنهلُّ من صدغيه يُنمي إِلَى عظيم تعبه وانقطاع أنفاسه. عملٌ مكتبيٌّ آخر أمامي عليَّ الاهتمام به، آه...»، مع خطوات عبدالغفور الأولى في مكتب حكيمي، رأى بوضوح المطابع الثلاث متراصَّات عَلَى شكل زاوية قائمة، وصوان زجاجي طويل يمتدُّ عَلَى عَرَضِ المكتب به أقلام وقرطاسية ونحو ذلك، ومن خلف ياسين تتراءى له رفوف كتبٍ من روايات وأبحاث وعلوم وفلسفة، وحينما اقترب لفت نظره كتابين لمؤلف واحد يقعان بجانب حاسوب ياسين، كان عنوانهما: "الحياة السيمائية"، و"الموت القريب"، لإيميل فارُوبيك. بدا له الثاني بارزًا جدًّا مع غلافٍ قرمزي داكن تعلوه سحب مظلمة ورسمة إنسان في كبد الغلاف برأسٍ مقطوعة وجسد مموَّهٍ ضبابي، كان فضوله متحفِّزًا للسؤال، بيدَ أنَّ العمل له كامل الأولوية، فانبجس الكلام معطوف بعضه ببعض من فيه عبدالغفور قائلًا:

- مرحبًا ياسين، كيف حالك؟ آسف لمقاطعة انشغالك بأعمال كثيرة. جئتك بتقرير من المدير بحد ذاته، يريده أن يُصوَّب ويُصحَّحَ سريعًا. لقد صرخ عليَّ أن أعود بمعيَّته دون تباطؤ، تخيل مقدار المعاناة الَّتِي... ولكن لا عليك، هذا هو التقرير.

أعطى ياسين التقريرَ وبدأ في صمت رهيب يقلِّبُهُ في هنيهات. كان تقريرًا موجزًا خطَّته يد عَجُولٍ وَغْد يحبُّ ترك العمل التحريريّ لغيره، لأنَّ ميزانيته

تسـمح له بهذه الرفاهيات. أدركَ ياسـين مرةً أن التمتُّع بالحياة سـببٌ للندم الدائم؛ لِأنَّه مؤقتٌ وسيفقِدُهُ يَومًا ما. إنَّ في مَنْطِقِهِ شَيءٌ مِن رَفْضٍ ودَفعٍ إزَاءَ مَتَاعِ الدنيا الَّذي فَقَد مُعظَمه. سـلَّط ياسـين ناظريه عَلَى زبونه المعتاد، وقال له:

- أمهلني نصف ساعة، ولكن قبل ذلك، أخبرني عن حالك، أتشعر بالسوء أو التوعُّك؟ إنَّ هيئتك حفَّزت سؤالي.

وأجابه عَبدالغفور بحرجٍ:

- كلا ليس هكذا! إنني عَلَى ما يُرام، إنَّما...

مدَّ ياسين يده وأشار لكليمه بالجلوس، كانت قد مضت خمس دقائق منذ دخول عَبدالغفور إِلَى مكتب حكيمي، ولكنه لم يجلس إلا حينما أُذن له بالجلوس، كما لو كانت حاجته إِلَى الاسترخاء مرهونة بتصريح الآخرين. ألا يبدو ذلك منفِّرًا ومغضبًا ومستفزًّا؟ في داخل ياسين، كان ممتعضًا من رَبْكَةِ زبونه، وقد ضاق به ذرعًا إذ هو يفهم تكتُّمَه وحرصه عَلَى إرضاء الناس من حوله دون الوقوع في مغالطات وملابسات. تمتّع ياسين بشخصية مرنة وقوية، ومع ذلك كان غير عابئ بالحياة، كما لو كانت شعلة نار عيشه قد انكفأت عَلَى نفسها وانتثرت دون بقاء أثر، وصحته الممتازة ليست دليلًا عَلَى حبِّه للحياة، بل إشارة إِلَى قدرته عَلَى التنازل عنها، وحيازة الأشياء يساوي القدرة عَلَى التخلِّي عنها في نظره، والطريق إِلَى عيشة رضية يبدأ من مِلكِكَ لِمقتضيات حياتك وتصريفها أنَّى شئت. إنَّما هذا غيرُ متحقِّقٍ حقًا.

وإذا به يسألُ عَبدالغفور بغتةً:

- قل لي، ما مدى أهمية الحياة الَّتِي تطاردها؟

كأنما لَجَم عَبدالغفور وعَجُم أن يبين بردٍّ معقول، ومضى بعد دقيقة تقلقل فيها يُجيب ياسين:

- كلُّ ما أريده هو حياة هادئة، طبيعية.

حَمْلَقَ ياسين فِي مَلَامِحه السوداءِ البَشرة، الَّتِي ما فَتَأتْ تَتَغيَّرُ مع كل لحظة بارتباك تام، حَتَّى واصل ليقول بنبرة خجلى:

- أنا رجلٌ بسيط بأحلام بسيطة، ويومًا ما، سأكون سعيدًا. هذا ما يُمكنني قوله.

انكبَّ ياسين بكوعيه عَلَى منضدة المكتب وحدَّق مليًا في عبْدالغفور، وسألَ بإلحاحٍ غريب وأمائر وجهه ترهقُها حِلكة:

- أنا لا أفهمك... ما هذا الدافِعُ القويُّ الَّذي يُحرِّضُكَ عَلَى التفاؤل؟ وأيُّ معْنًى رَاسِخ هوَ هَذَا الذي يجعلُكَ صامِدًا أمَامَ قسوةِ حَياتِك... لماذا تُصِرُّ عَلَى الطلب؟

تبسَّمَ عَبْدالغفور، وفكَّرَ بعُمقٍ، ليردَّ وهو ينظر لما بين يديه، بصوتٍ منخفض:

- عَائِلَتي... كلُّ إيماني مستمَدٌّ مِن عائلتي. إنَّها أثْمَن شَيء فِي حَياتِي. العَائِلَة وحَسب.

هَمَهم ياسين عَبْدالحَكِيم وطفِقَ يَطرُقُ الأرْضَ بجزمتيه المحفوفتان

بِبَابُوخٍ رَقِيق، ويَترَنَّحُ بِمِقْعَدِهِ إِلَى الوراء، ويدقُّ سّـبَّابَتِهِ عَلَى حوافِّ النَّافذة من خلفه يُمْعِنُ بَصَـرَهُ فِي سِـحْنَةِ عبدالغفور المُضْـطَرِبةِ، وسـريعًا مَا غَيَّرَ وَضْعِيَّته، فَانكَبَّ عَلَى صُـوَانِ المَكْتَبِ الزُّجَاجِيِّ مجدَّدًا، واتَّكَأَ عَلَيهِ بِمِرْفَقَيهِ وَجَعَلَ قَبْضَـتَيْهِ تُغَطِّيَانِ فمه، وَإِذَا بِهِ يَتَحدَّثُ بِلَكْنَةٍ خَاصَّـةٍ حُفِرَتْ فِي ذِهنِ عبدالغفور وعَلَقَتْ به بِعَلَّاقَةِ مَصيرِهِ فِي هَذِه الدُّنْيَا:

- لَا يُمكِنُكَ أَنْ تَكُونَ بَسِيطًا فِي هَذَا البَلَدِ، سَيَتمُّ اِفْتِرَاسُكَ بِسُـهُولَة، بَلْ وَسَـتَلْطُمُكَ دَواهِي الأَيَّامِ بِرِجَالِها ونِسـائِهَا دُونَ أَنْ تُعِيدَ لَكَ خَصْـلَةً مُتَّزِنَةً فِي لَحْظَةٍ مَا... لَا تَأمَل خَيرًا دَائِمًا كَيْ لَا تَسـقُطَ فِي مُسْـتَنْقَعِ الخَيبَةِ والنَّدَمِ، لِتَعِيْ ذَلك، إِنِّي أحذِّرك. ولكن يَجُوزُ لِيَ القَولُ بِـأَنِّي حَلُمْـتُ ذَاتَ يَومٍ بِنَفسِ حُلُمِـكَ، وَرَغِبـتُ فِي تَكوِينِ عَائِلَةٍ طَيِّبَةٍ سَمِحَة، كَمَا هُوَ حَالُ الرَّجُلِ المُحترَمِ فِي هَذَا المُجتَمع. لَقدْ حَاولْتُ بِنَاء صَرحٍ ممرَّدٍ بِالأَخلَاقِ والسَّمَاحَةِ والصَّبرِ وعَادَاتِ التَّغَاضِـي، إِلَّا أَنَّ الخُطُوبَ والقَوارِعَ لَا تَهتمُّ بِمَدَى صَـلَاح نَوايَاكَ مِن فَسَـادِهَا. ولَكِنْ إِلَيكَ عَن هَذَا، فَهي ثَرْثَرَةٌ لا تَعْنِيك، المُهِمُّ، رَكِّزْ مَعِي: عَليكَ تَخطِّي عَتَبَةِ الخيبة أو عَتَبَةِ أَلَمِكَ حِينَمَا يَحِلّ، ثُمَّ فَلْتَضـرِب الحَديدَ وَهُوَ سـاخن وَلَا تَجْعَلْهُ يَبرُدُ لِأَنَّ سَـطوَةَ النَّدَمِ ستطالُ باطِنَ عَقْلِكَ وتُوديْ بِكَ حَيًّا... إِنَّ جَوَابَ سُؤَالِيَ الصَّحِيحَ عَن مَدَى أَهمِّيَّةِ حَيَاتِكَ الَّتِي تَسْـعَى إِلَيْهَا يَعتَمِدُ عَلَى مِقدَارِ عَزْمِكَ لِإِنْشَـائِهَا، وَهَـذَا يُوضِّـحُ عَظِيمَ قَلَقِك وتعاسـة مزاجك. يَا

عَبْدَالغَفُور! فَلْتَسعَ فَقَطْ لِرَاحَةِ نَفْسك ولِمَا تَبْغِيه حَقًّا، لا مَا يَبْتَغِيهِ النَّاسُ! وَصَدِّقْنِي، "كلُّ شخصِيَّةٍ لهَا حُلُمٌ كبيرٌ لا يُمكِنُها تَحْقِيقُهُ، بِسَببِ حَائِلٍ بَاطِش، أوْ عَارضٍ يصُدُّ عَنْهَا التَّوفيق، ستَفْقِدُ جَوهرَها، وستخسر الصِّراع مع رغباتها الحَبيسَة فِي نَفْسِها، تلك التي عليك المضيُّ خلفها؛ ففيها حقيقتك!"... والْآنَ أخْبِرنِي بِصِدْقٍ، هَلْ فَهَمْتَ عنِّي؟

- آ... تقريبًا فهمتك. ولكنْ قُلْ لي، ما المُهِمُّ في أحلام الناس إن لم تتحقّق؟

تنحنح ياسين، من ثَمَّ شرب كوب مَاءٍ مع غمزة عينٍ قبل أنْ يقول وفي صوته الجِدُّ والرَّصَانَة:

- نواياهُم، رغباتهُم في بُلُوغِ السُّموِّ والعَظَمَة، توقُهُم إلَى المجدِ والانتصار والظَّفر بالشأو التليد الأزلي، واعلَمْ أنَّ الأحلام حقٌّ ليس مسموحًا إلَّا للبشر.

وَسَكتَ الرَّجُلَانِ. وَضَمَّهُمَا صَمْتُ إيجَابٍ وتَوافُق. ثُمَّ اِستهلَّ ياسين مُرَاجَعَةَ التَّقرِيرَ وتَنْقِيحَهُ، إِثْرَ ذَلِكَ بِدَقَائِقَ سَألَ عَبدالغفور عن أَحَدِ الكِتَابَيْنِ الَّذِي أَثَار اِنْتِبَاهَهُ ولم يفهم عنوانه، فقال بصوتٍ مُتلعثمٍ يقفزُ بعضُهُ على بعضٍ ويتداخلُ في شكليَّته:

- هذا.. لم أسمع به قطّ.. أعني هذا الكتاب..
- تقصد إيميل، إنه كاتب شهير.

- آها! أنا من هُواةِ القراءة، لكنّي انقطعتُ مُؤخّرًا لظروف... أخبرني ما معنى عنوان الكتاب؟

أَخَذَ ياسين يتنشَّقُ الهوا ملءَ رئتيه، ليُجيب:

- "السيميائي" تعني الدلالات للمعاني في ضوء رموز الحياة وشفراتها ومعانيها المعقودة ببعضها، وتعني أيضًا العلم الربَّاني التصوُّفي الذي لا يطَّلع عليه إلا قليل. فعنوان هذا الكتاب ينمُّ عن اختصاصه بمعاني الحياة الدقيقة بدراسة مكوناتها البشرية داخل النواة الاجتماعية الكبيرة، فكأنما نتحدث عن مجتمع كبير من خلال أفراده الصغار مستعرضين آلامهم وعقباتهم ومحدودية آمالهم كسياق لفهم طبيعة حياة هؤلاء البشر في هذه الرقعة الجغرافية... أما "الموت القريب" فأظنُّه واضحًا؛ إنه يُعنَى بيأس الفردِ من إمكانية الإصلاح في الحياة ويعزو كلَّ مظاهر الفشلِ إِلَى موتٍ يسري في جسد الحياة الأسرية والاجتماعية برمَّتها. إنهما مُؤلَّفَان بديعان، هل تريد قراءتهما؟

عُجبَ عَبدالغفور بكلِّ هاته التفاصيل، وساهمت معرفة ياسين وإحاطته في تنامي ارتباك عبْدالغفور واستصعاب الردَّ بما يواءم ثقافة كليمه ومدى معارفه، ولم يستطع فهم ما سمعه كله، وحوصر أن يقول ما لديه، وأُعدم فهمًا بما ألقي عَلَى مسمعيه، حَتَّى حالفه الحظ، وجاء عَلَى لسانه الكلام الآتي:

- أحســن لي أنْ أتفتّح عقليًا في تعريف الموضــوع قبل التعرُّض له وهو ممتزج بالواقع.

تفاجأ ياسين لهذا الكلام، وقال بنبرة عالية:

- آها! هذا حقـــك. ولكن خذ مني، خيرُ من يفتِّح ذهنك عن معاني الحياة هو هذا المجتمع، لغنائه بنماذج بائســة عدَّة لن تملَّ من التعرُّض لمآســيهم ما دمت مهتمًّا بالآلام الإنســانية؛ إلَّا إن كان لديك ما يكفي منها.

شعر عَبدالغفور بحرارة عالية وبدا له أنَّ رأسه تتعرَّض لأشعة الشمس رغم أنه في داخل البناية، وكل الانقباضــات الَّتِي أحسَّــها ســاهمت في دفعه ليقول مجيبًا عن ياسين:

- المهم في المجتمع أن تكون مواطنًا صـــالحًا يحترم العادات والتقاليد، ويؤمن بالأعراف الجماعية، ويطبّق قوانين بلده جيدًا.
- كلا يا عبدالغفور!

غضب ياسين عَبْدالحَكِيم فجأة وفارت سورته.

- إنَّما الحياة لإرضــاء المجتمع أشــبه بكونك حيوانًا في قفصٍ يريد التسرية عن قلوب مشاهديه كي يعطفوا عليه ويرموا له بكسرات الخبز وفتات الطعام! هل تود العيش في حظيرة مثلًا؟ هل ستتخلَّى عن بشريّتك في سبيل أنْ تكونَ داجنًا يرضي مُلَّاكه؟
- وماذا تقترح إذن، إن كنَّا في وضــع حتمي وعَلَى المحك مع

أساسيات المدنية الرأسمالية وحوكمة المجتمع؟

- كلامك جميل، وأنيق. سـأقترح عليك فقط أن تكون شـجاعًا، شـجاعًا بالقدر الكافي على جعل وجودك فريدًا. لكن ما تفتقر إليه يا عَبدالغفور هو القدرة عَلَى الإنتاج الفردي، وإحياء شـخصـيتك الحقيقية الَّتِي تخفيها خوفًا من أذى المجتمع وسـهامه الطائشـة. لكن خذ مني، الحياة مجرد حلقة معاناة، لا تظفر فيها بشـيءٍ حقيقي، وكل ما فيها يزول ويضمحل.

وجد عَبدالغفور في كلمات ياسـين نوعًا من الحزن والأسـى. إنه لا يعرف ما عاشـه هذا الرجل، كما هو الحال مع الآخر بالنسـبة له. ويعلم عَبدالغفور أنَّ المعرفة هي أسـاس التعاطف البشـري فيما بين الناس، ومع التكتُّم والجهل وتفاقم المشـاعر النرجسـية في لبنات المجتمع ومكنوناته، صـار التعاطف كخدعةٍ صـغيرة، أو حيلةٌ للتملُّص من مناقشـة عميقة موجعة للرأس. فكَّر عبدالغفور في دخيلة نفسـه: «**تجاهلهم واسـتغناؤهم عن الناس فردي، وفضـولهم وتتبُّعهم لعَوْرات بعضـهم جَمْعِي، هذا ليس جيدًا، أشـعر بقرف في فمي يسـري...**»، كان ياسـين يجهل وضـع عبدالغفور المادي، لذا بدا وكأنه غير معنيٍّ به ولا يودُّ السـؤال عنه، ومع كل كلمة يتفوَّه بها، يبدو عليه الحنق والاغتياظ أكثر، كما لو كان يستفزُّ نفسـه بكلامه هو، حَتَّى صـار محتقن الوجه من سورة غضب مفاجئة، زمَّت عَلَى إثرها قبضتيه وكزَّ أسنانه ونقز من مكانه وعينيه تقدحان شـررًا في وجه عبدالغفور، ثم قال بصـوت

بحَّت حباله ويبست حنجرته:

- ثمة خطأ ما في هذا المجتمع لا ندري ما هو، أنا تعبت منهم! هم يلاحقونني دائمًا، كشياطين مهووسة بي، يشيرون عليَّ بأني المخطئ في كل أمر، المذنب في كل مصيبة، المُدان في كل جريمة، أنا ثم أنا وأنا ولا غيري! كنت فقيرًا، كنت معدمًا، لم أستطع إنقاذ أحد، ولو عزيز، ولا زلت... أنا فقدت معاني الاتصال بالبشر، ضقت ذرعًا منهم، اتركوني وشأني! الخَلَاص وكفى...

نهض عَبدالغفور ومدَّ كفيه ليضعهما عَلَى كتفيّ ياسين ومن ثم يشدُّ عليهما ويرمقه بنظرات مرتجفة وكله عَلَى بعضه مرعوب مفجوع، ليقول في غمرة مشاعر لم يفهمها، ولم يحط بأولها من آخرها:

- لقد فقدنا ثقتنا بالحياة، أنا أيضًا... فقدت ثقتي بالناس. لكن هوِّن عليكَ، يا صديقي.

لم يفقه عَبدالغفور عِلَّة تلفظه بكلمة "صديقي" تلك لرجلٍ لم تجمعه جلسة شراب أو لعبٍ واحدة، لكن يبدو عليه التأثّر البليغ، والاندماج مع مشاعر ياسين، لدرجة التماهي مع تلك الحالة العاطفية الحسَّاسة.

قال مضيفًا بعد لحظة تنهُّد:

- يمكننا فقط أن ندعو بأن نظلَّ أناسًا محترمين.

مدَّ ياسين يده للمصافحة، ولكنَّ ملامحه كانت منقبضةً يعلوها غيظ ساحق. صافحه عَبدالغفور غير فاهمٍ ولا مدركٍ لكُنهِ تينك التعابير والنظرات

الساهمة الصارمة، ومع مضيٍّ الثواني، بلع عَبدالغفور ريقه وانقطع حبل شكِّه حينما طفق ياسين عَبْدالحَكِيم بالقول وفي نبرته غِلظة:

- أنا لن أدعو بذلك.
- ولكن لماذا؟

خبط قبضتيه عَلَى صوان المكتبة وقال لاهجًا:

- لأنني لست جزءًا من هذه التركيبة. سأظلّ أرفضها!
- طيب، طيب، فهمت! اهدأ لحظةً فقط!

وتأفَّف ياسين وهو يدور حول نفسه حَتَّى خرج من مكتبه وذرع الرواق جيئةً وذهابًا بأعصاب منفلتة. ثم دُقَّ كمسمارٍ فثبت عَلَى المدخل وراح يقول بنبرة مكلومة:

- أُنظر، أُنظُر نحوي، ماذا ترى؟ إنَّه لا شيءَ بارقٌ، إنَّما ما من حياةٍ تتجلَّى عَلَى هيئتي، يا صاحبي عبْدالغفُور. إنَّ ابنتي عانت من المرض الخبيث، وتبرَّحت منه في أشدِّ مقاومة وكِفاح... لكنِّي لم أقدر عَلَى مساعدتها لتعيش بدلي، قليلًا بعد... تركتني، أو لا.. أنا من تركتُهَا ترحَل لعجزي الحقير... ومعها انهار كل شيء! وماذا بَقي؟ سأخبرك أنَّ ما بقي... هو انتظاري في فراغٍ روحي ومهلكة دنياي.

ونكَّس رأسه كَاسِفًا يتذكَّرُ خَيباتٍ نَزَعَتْ مِنْهُ الكَثِيرَ من المَعَاني البهيَّة الحيَّة، وسرعان ما تذكَّر أمر التقرير فرجع إِلَى مكتبه وفتح حاسوبه الذي

أغلقه في حركة سابقة عفوية، وانبرى يدقِّق ويحرِّر التقرير في خفة حركة وسرعة وتيرة وسلاسة عبارة دون أن يصادف عائقًا أو توقُّفًا كتابيًّا. وانتهى منه إثر انقضاء خمس دقائق، وقال كمن يطرد زبونًا: «هاكَ تقريرُكم، انتهيت منه». تسلَّم عبدالغفُور التقرير وانفتل راجعًا من حيث أتى، لكنه توقف عند عتبة الباب وعاينَ ما حوله، ثم التفت إِلَى ياسين فألِفه يحدِّق فيه مسترسلًا في أفكاره، وإذا به يقول له، قاطعًا عليه استغراقه في خياله:

- أنا أفهمك يا ياسين، أنا أيضًا لم أشأ أن أكون جزءًا من هذا المجتمع، أنا مثلك، لكنِّي مجبورٌ جبريٌّ، لا حيلة بيدي لدفع هذا الجموح القَدَرِي عنِّي... لكنْ اعلم وافهم أنَّ الناس لا يجب أن يعرفوا أشياءً لا تفيدهم، طالما إنَّك تسعى في مصالحهم وشئونهم؛ فسيحبُّونك، ويرسموا لك رمزًا ذا قيمة ومكانة. كما أنهم يحبونك إذا شاركتهم كل شيء، وفعلت معهم كل شيء، كنشاط جماعي تشعر به أنك عضو في مجموعة متصلة، لا يريدونك وحدك، وما دمت معهم، فستنال رضاهم. نعم... إنَّ هذا حَقٌّ!

وانصرف في حركة فورية تلقائية، دونَ انتظارِ ردٍّ من ياسين الذي بدوره فكَّرَ مَليًّا في هذهِ الكلمات.

في مستقبلٍ آخر بعيد، انبثقت أفكار عَبْدالغفور عن لقائه العجيب هذا، وأخذ يُؤول كلَّ كلمة وعبارة تأويلًا دقيقًا رغم استحالة تطبيق ذلك عمليًّا. فكتب في مذكَّراته كلامًا عن هذا الرجل المميز في نظره، والمُلْهِمِ أيضًا:

«أحبُّ اختصـــار اســـمه، عندما أكتب إليه خطابًا، لكنه ليس مرحًا ليســتقبل ذلك برحابة صــدر. هو رجلٌ شــديد وصــعب المِراس، يحتفظ بقناعاته الشـخصـية ويتَّخذُ من ركنه صـرحًا لرشـق أعدائه ومخالفيه بسـهام صـوته اللاذع وفنّيات خُطَبه، كما أنَّه يمتثل لأحكامه الخاصـة ويعارض نظم المجتمع بلهجة حادَّة، ومع ذلك فإنَّ بها يأسًـا وقنوطًا كبيرين. كما علمت لاحقًا أنَّهُ بلا عائلة، وحيدٌ أجرد. وظننتُ للوهلة الأولى أنَّ ذلك أراحهُ من هموم وضـغوط شـتَّى قد لا يطيقها هو، بَيدَ إنَّني نكصـت عَلَى عقبيَّ ورحتُ أحلِّلُ نبرة ذلك الرجل عَلَى ضـوء مشـاعره المجتمعية. هل يمكن أن يكون عصاميًّا وفصاميًّا في آن؟ أعرف أن العصامي لا يركن إِلَى آراء العامَّة، وأدرك أنَّ الفصـامي يحب أن ينشقَّ بآرائه عن المجتمع، لكن فوق الأمر برمَّته شيءٌ أجهله: هل من الممكن أنْ يكون قد عاش يومًا أســودًا لا يعرفه غيره؟ هل قاسى من الزمان صروفًا عاتية؟ ولعلَّ سؤالي الأهم عن ياسين عَبْدالحَكِيم هو: هل كانت له عائلة أحبته يومًا؟ ذلك ما لا أعلمه، ولا أظنني واصلًا إليه. لكنَّه رجل مثيرٌ للاهتمام، وينأى عن الناس بتصــور طبيعي خاصّ للحياة وأسـاسـياتها المطروحة. أتمنى له عيشـة طبيعية، وأتمنى له أن يتذوق شـعور الانتشاء الحر والسرمدي الذي تذوقته بفضله! الآن يمكنني فعل كل شيء، كرجل حقيقي خالٍ من الندم».

❊ ❊ ❊

الرجل الذي تنازل عن فرديَّته

غادر عَبدالغفُور مكتب حكيمي بتقريره المنقَّح وهرع بالدرَّاجة النارية إِلَى مكتب الإدارة ليسلّمه إِلَى معالي المدير. وهذا حدثٌ طبعيٌّ جدًّا، إنَّما قد نجد فيه موانع غريبة وسلوكيات شاذّة قلَّما نراها في سيرورة أفاعيل الموظَّف الصغير والمستخدَم: لقد نسي عبدالغفُور أمرًا هامًّا كان صباحه سيقوم عليه لولا تدخُّل وظيفته المزعجة، وهو شأن خِطبته. ويتعين عليه الآن أن يطلب إذنًا ثانيًا بالخروج من مكتبه كيما يقوم بحجز صندوق الخطوبة بما فيه من مجسَّمات للعِقد والخاتم. ولم يتذكر هذا الأمر، الغايةَ في الأهمية، إلا وهو جالسٌ في مكتبه أمام وريقات جديدة ألقيت بين يديه.

قال لنفسه بهمس شاحب: «لقد انتهى أمري، هذا واضح. كيف لي الآن أن أطلب إذنًا جديدًا بالخروج، بعد أن طلبته هاتفيًّا من قبل، لا، لا! لقد تمَّ تهديدي بالفَصْلِ ضمنيًّا، ومن الخطورة بمكان أن أُحارِشَ انفعال المدير وقدرته عَلَى الإيقاع بالموظّفين. يا ربّ ألهمني ماذا أفعل في حالي هاته، أوه! لا مفرَّ لي من الاتصال به مجددًا، عليَّ طلب مساعدته من جديد، ولكن هل في هذا جدوى؟ بربِّك، واضحٌ أنَّه سيرفض وينكِّل بي ويشمت بي أيضًا! آه ما هذه الحَسوة المرَّة!».

ثمَّة شعور غريب تغشَّى كيان عبدالغفُور فجأة، لقد شعر بالوحدة شعورًا دقيقًا أليمًا، ودفع نفسه للإتيان بكلامٍ يصرف عنه براثن هذا الشعور: «لا

يمكن أن أكون وحيدًا، أنا مواطنٌ صالِح، والصالحون لا يبقون وحيدين أبدًا. إنهم مع بعض، وحدة واحدة. ما هذه إلا مشاعر غريبة هي من تراودني». سيعرف عبدالغفُور مستقبلًا أنَّه مبتلًى بمشاعر لحظية تتقلَّب مع رفرفة جناح فراشة، كما سيخبر نفسه بعدم إتباعها مطلقًا، وإلا صار شخصًا لا يُعتدُّ به البتة.

إن شعورًا بالنقص والحاجة إِلَى ملء الفراغ هي من تدفع الناس إِلَى كنز الذهب وصنع الأصدقاء وزيارة الأماكن البعيدة والشاهقة وصعود يفاع الدنيا لردم هوَّة الشخصية غيرِ المتَّزنة الَّتِي خُلقنا بها، وهذا الشعور بالنقص هو من يحرِّك البشر إِلَى مختلف النشاطات، ومتى ما احتدَّ مفعوله في الإنسان زادت حاجته لرفع الغطاء عن بئر الكتمان وتعبئتها بما يريح الأذهان. كذلك قال المفكّر النفساني "أدلر"، الذي يرى نزوعنا إِلَى القوة والسيطرة والتفوّق نتائجًا متمخِّضة عن شعورنا بالنقص. وقد يُرى في بعض الحالات أن الانزلاق إِلَى الفساد يصير تبعًا لفشلنا في تخطّي هذا النقص أو ملئه أو التغلُّبِ عليه. وفي حالة عبدالغفُور فإنَّ لديه نواقص عديدة، وثغور ضعف مديدة طالته مذ كان يافعًا في السادسة.

كان فقدانه لوالده ضربةً قاسية تستجلب الموجدة والرثاء. وكان أي فتى سيبكي والده بلا أيِّ رادع، عدا أنَّ تلك رفاهية المترفين، أما الفقراء فهذا بؤس يضاف إِلَى مآسيهم الكثيرة الَّتِي طالتهم من قريب وكتبت عليهم من قبل زمان بدء الخليقة. والحال أنَّ عبدالغفُور كرِهَ أباه، ورفض تحمُّل

المسـئولية عنه، وبدأ ينظر إِلَى شـقيقه طالبًا العطف، فتنوَّلَ العنف. وأمُّه مقعدة ضـريرة العينين، لا تقوى عَلَى شـيء وهي كَلٌّ عليهم. وتنامى شـعور النقص عند عبدالغفُور إِلَى درجة كبيرة، حَتَّى صـار يشـعر بأنه وحيدٌ كقريةٍ مهجورة. ولولا مشاعر أخته الصغيرة الطيبة من حين إِلَى آخر، لما كان بهذا الاتِّزان الظاهري الذي يعلم الله وحده ما هي أثمانه. وفي غمرة هذه المشاعر السيئة، قال عبدالغفُور في ومضـة فكرة خطرت وبرقت له هكذا: «سـأهاتِفُ عِزُّو! إنه وبلا شـك سـيتكفَّل بالمهمَّة، أو يكفُلُها أحدًا ثقات، إيه والله!»، انسابت يده في عصبة خِصره كالسهم المتهادي في جو السماء، ونال هاتفه منه ما نالته كبد الفارس من سهام عدوّه المتخفي. نقر بسرعة عليه، ثمّ رجّه لمَّا تباطأ وتوقّف عن العمل، ووكزه بقبضته عندما رآه ينطفئ ويعيد التشغيل من نفسه. حَتَّى اهتدى إِلَى بُغيته في كثير من العناء، وهاتَفَ المدعوَّ بـ "عِزُّو" وهو رجلٌ قريبٌ من الجيران الأعزاء، وكان حطيئةً أسـمرًا داكنًا كالرُّطب الحَجَري، يديرُ ورشـة صيانة طلمبات ماء ولفّ مكائن في حيّهم في الشـارع الثاني. أجاب عِزّو من الرنَّة الثالثة بصوتٍ عالٍ:

- مراحب بالعزيز!

تقافز صوت عَبدالغفور كأنه حصاة عَلَى غدير:

- هل عندك وقت لخدمة تقضيها لي يا عزو؟

- آه، ماذا؟ لا أسمعك جيدًا.. (خرمة)؟

بلع عبْدالغفور ريقه مرتين، وناظر حواليه لئلا يكون أحدٌ في الجوار، كي لا يعلم بشـأنه من لا حاجة له بأن يعلم، وظلَّ يجرُّ الكلام من جوفه

كالثور:

- خدمة، خدمة صغيرة.. اسمع.
- تفضل! قل ما عندك.
- أنا الآن في الشغل، لكن عليَّ المرور بمحل التحف والهدايا القريب منا لحجز صندوق الخِطبة، فهلَّا فعلت ذلك لأجلي؟ باسمي طبعًا، وسآتي إليه لمدِّه بالبيانات.

وهنا رفع عزو عقيرته حَتَّى سطت عَلَى طبلة أذن عبدالغفُور:

- غُفْري سيتزوَّج! أوه، آه! مبارك يا غُفري أخيرًا سنفرح بك!

ترك هذا الصراخ عَبدالغفُور في حالة صعقة وذعر، هل سمعه أحد؟ هل بجانبه شخصٌ سمَّاع للكلم؟ ثمّ قال أخيرًا بصوت نملة:

- لا تخبر أيَّ أحدٍ رجاءً...

لكنَّ عزُّو استمر في إعلاء صوته:

- غفري خائف من العين؟ عيب عليك يا رجل! الناس طيبة والنفوس زينة! ما بك هكذا؟!
- طيب أرجوك، لا عليك... أخفض صوتك فقط.

كان عزّو يفهم عبدالغَفور ويستظهر ما بسريرته، لكنه تجاهل كلَّ ذلك، لغاية في نفسه:

- يا بني أنا هادئ تمامًا، أنت الذي كلّك قلق!

سكت عبدالغفُور وحار جوابًا، حَتَّى لهج يقول:

- طيب...

كره نفسه لذلك الرد، تقبَّل كلام غيره ومشى عليه وهو رافضٌ له، وهذا جعله حانقًا. ولأجل الدفاع عن نفسه، برَّر موقفه بأن قال لنفسه: «هذا عمل اضطراري، لا حيلة لي في ردِّ هاته الإشكاليات، عليَّ قبول الوضع، لا يجب أن أغضب، لا حاجة تذيع الغضب.. نعم..»، وانكفأ عَلَى نفسه. وجاء المدير ليخبره أمرًا هامًّا، ابتسم له في بادئ الأمر، ثم غمز وتغامز، وضحك في شيءٍ من السُّخرية بمشاعر عبدالغَفُور القلقة التالفة، وضحك ضحكة بذيئة سافلة بهدف تلطيف الجو عبثًا... حَتَّى قال وصوته يتردَّد ببحَّة عميقة:

- سوف يتمُّ طردك.

تجمَّد عبدالغَفور. كان يشارف عَلَى نوبة عصبية تامَّة. لكنَّه اكتفى فقط بأنْ تجمَّد، مثلما في الأفلام الكرتونية.

عاد المدير بنبرة أكثر رُعبًا يُحسُّ منها برِعدةٍ:

- من تخالُ نفسك حَتَّى لا تطرد؟

عصفت عاصفة القلق والغضب في رأس عبدالغفُور، وشعر بأن حياته تمضي أمام عينيه في شريط تعيس حقير. ليردَّ ببرودة وشرود ولا وعي:

- لا أحد...

وقف المدير وصكَّ الطاولة بكفِّه هاتفًا:

– أنت ماذا؟ وملامحه تتقطَّبُ حقدًا وشزرًا.

فأجاب عبْدالغفور بنفس النبرة الميِّتة:

- أنا لا أحد.

- كلَّا، قلها بتلك الكلمة، تلك أفصح، تعرف...

بلع عبدالغَفُور ريقه، ونكَّس نظره، وقال:

- نكرة.

صـمت المدير لخمس ثوانٍ يراقب وجه عبدِالغفور دون أن يرمش، وعليه علائم السخط والفوران، وأمامه رجل تائه اللب يوشك أن يفقد وعيه من هول الموقف المحقِّر لذاته. عندها، انفجر ضاحكًا، كأنَّ شيئًا لم يكن.

- يا لبلاهتك! ها ها!

أسـقط بين يـدي عبـدالغَفور، ولم يفهم مـا يجري من حولـه، طـاش صـوابه، وظنَّ أنه بلا قيمة تمامًا كقُمَّة الناس في صـناديق الزُّبالة. رغبةٌ واحدةٌ تجوهرت ونصـعت في عميق نفسـه، وهي: «أريد الذهاب»، لكن إِلَى أين سـيذهب وكلُّ الطرق تحمل الألم نفسـه، والأحكام الشـائنة نفسـها؟ هو لا يعلم عن ذلك بعد. وإذن، يكمل المدير مزحته فيقول:

- مناكدتك تعطيني شـعورًا مسـليًّا، أنت حقًّا مضـحك، نكرة؟ هل تصدق أنك نكرة حقًّا؟ ربما أنت محق، ربما أنت نكرة وحسب! ها ها!

لم يزل عبدالغَفور تحت تأثير الصـدمة. ظلَّ واجمًا، كطفلٍ يقرّعه والده.

ثمّ قال المدير وهو يستدير ليخرج من مكتبه، بعد أن رمى بضعة أوراق ظهرت في يده فجأة:

- إليك هذه، فواتير تخص ثانوية الحدَّاد، لقد وزَّعت لهم استمارات بيانية، أريد منك أن تجمعها في مطلع الأسـبوع القادم، هذا شـأن هام لا مزاح فيه. وخذ حِذرك، ولا تتقاعس، أتعي كلامي؟

- أها.. أجل، فهمت.

على الشـريط السـاحلي، أخذت الشـمس موضـعها في كبد السـماء، ورقرقت أعين البحر الدامعة، وسـكبت عليها ماء الذهب البرَّاق، وجعلت من أسنمة الموج النطَّاطة أُسُدًا تثب بعضها فوق بعضٍ عَلَى جناح وأعشاش السـاحل الرملي، حيث النوارس تنعق بسـعادة وتتبختر في الجو بأجنحتها المسـترخية عَلَى جوِّ السـماء، تتأرجح مع الهواء، وتسـتلذُّ بمشـهد البحر اللازوردي وهي تشـدو في أعالي الفضـاء ناسـيةً قوانين الزمان، بل غير عابئة به. ومعها انتهى عمل عبدالغَفُور الذي لم يستطع إتمامه متأثِّرًا بمزحة المدير المُهينة. وخرج لا يلوي عَلَى شـيء، بلبٍّ مشـدوه وصـراخ مكبوت في طيّ الحرمان. وتخاطرَ مع نفسـه المرهقة: **«أنا جِدُّ حرّان.. يا ربِّ ما بي؟! أشـعر بأطرافي ترتعد وبقلبي يرتجف، وكلِّي ينقبض بشدة. أسناني متوترة مشدودة، سأدوخ!»**

لقد فقد السـيطرة عَلَى مشـاعره السـيئة وأخذت تجتاح كلَّ شـبر في جسـده. آهاته رافقته حَتَّى الشـارع، ودوخة جعلته يهذي هي من لحقت به فور تعرَّضه لأقلّ شعاع شمسي. كان صباحًا يُـتـلِف أعصاب عَبدالغَفُور، الرجل الذي اضطرَّته بيئته إِلَى تنازله عن فرديَّته.

❊ ❊ ❊

مكيدة ليل

مدينة المكلا، عروس البحر العربي، هي مدينة ساحليَّة في جنوب حضرموت. محفوفة بسلسلة من الجبال عالية المَنَاف، ولسان بحري تعمره المباني البيضاء التليدة. وتغتني بمكانين رئيسين هما سوق الشرج في وسط البلد، وسوق النساء في المكلا القديمة. يتكوَّن سوق الشرج من خمسة شوارع أساسية، وعديد من الأزقَّة والممرات الجانبية الَّتِي تصِلُ الطرقات فيما بينها. والشارع الأول هو الأعلَى صخبًا والأرقى أبنيةً والأوفر طرقًا بالنعال والأحذية. في بؤرته ساحة مترامية الأطراف يحفّها باعة الملابس بعرباتهم وطاولاتهم الخشبية، وبائعات الخضار والفواكه السمراوات يتخذن حذاء الساحة مرتعًا لهن. يكثر في هذا الشارع تجَّار الملابس الراقية وأصحاب المطاعم والأكلات الدارجة، مع فئة قليلة من الإسكافيين ينزوون عَلَى قارعة الطريق في هدأة عجيبة وبشرتهم السوداء تلتمع مع نجوم السماء.

عصرَ كلِّ جُمُعة، تغشى المكلا موجةُ خَرَسٍ مع شمسٍ دافئة تعطي البشرة نضارةً، وتضفي على النفس طابعَ وجومٍ وسَكنًا ورزانة. المخلوقات من بشر وعجماوات في بدء العصريَّة تَغُطُّ في لا وعيٍّ منها، والناس إمَّا يقيلون أو يرتعون في منازلهم يسمعون الإذاعة ويقلِّبون قنوات التلفاز، بينما تكون الشوارع والحوانيت خاوية، كأن لم يغنوا فيها.

بعد الصلاة تبدأ الحركة بالدبيب وتتسارع مع تقدُّمِ قرص الشمس في انحدارهِ إلى المغيب. تتماهى ألوان السماء حينها بين غسقٍ أرجواني داكن في شرقها، وحمرة دامية كعُصارة الخوخِ في غربها. وعَبْدالغفور فاتر لا يكاد يقوى على طرح فكرة؛ ذهنهُ كشريحة إسمنت مُصطبَّة، وداخله خائرٌ متكسِّرُ العزم، يرى خيالَ الحياةِ الواهمة وهو يرقُصُ هازِئًا أمامه، ليغادر دُنيا ستتبدد عاجلًا ام آجلًا، تاركًا إيَّاها لبهيم الليل حيث ضوضاء لا نهاية لها في أسواق المكلا تحت قناديلها وسُرُجها، أو مع عتمة انطفاء الكهرباء المتكرّر كلّ صيف...

البِلاد في الجمعة تجلس وتناجي نفسها وتنظُرُ بعض النظر إلى حالها وتبحث عمَّن يعزِّيها وشأنُهَا مقهورٌ مكدود، فهي لا تقعُدُ إلا يومَ الجمعة، وكأنها مأمورة في باقي الأيام بحملِ الهمِّ والتعب. ها هي المكلا تجلس متنهِّدةً، لا تفعل أمرًا، كلها وجوم تحت كنف السماء الحالكة عدا من مخاريق تتلألأُ بضوء شاحب، بل هو باهت كعَينَي مريضٍ، جاورت إلى ذلك هِلالًا يدنو من الثلث الأول معلَّقٍ في ملكوت الفضاء كزورقٍ من فضّة، موشًّى بغبار الغمام التي تغطيه غَيرةً وتملُّكًا. وأما هو فلا يأبه بشيءٍ قد نُقِلَ إليه من هَمّ الدنيا الكامدة الكليمة وهي تُريهِ ذاتها الخائرة في جمعةٍ معتادة. والمكلا قد عيل صبرها وتأزَّمت حالة أهلها حتّى بدوا كسالى منهكي القوى لا يودُّون القيام بشيءٍ سوى الجلوس والسمر مع الإخوان، وشرب أكواز الشاي الملبَّن والأحمر، والتأمُّلُ الصامت لهذه الحياة الأشبه بقفص رتيب، وهم مع همومهم المالية والحياتية مكتظين... كلُّ شيء يبدو في حاجة إلى

عزاءٍ وتسـرية. فإن لم يحدث فسـوف تموت تلك القلوب الحرَّى لأولئك المرهقين؛ وتفتر أحاسيسهم؛ ويصير أملهم الوحيد ضبابًا وسرابًا...

خشـية أن تذهب الألباب وتغور الأحلام، تجد الإخوان والصـحب يحضـرون المجالس والمقاهي والسـهرات وألعاب الإنترنت والمباريات، والأخيرة صـارت سـلوى السـواد الأعظم وهيروين معشـر المكلا الشـاب. دون ذلك، لا شيء سوى الرياضة ومضغ القات يُجمُّ قلوبهم ويُعلي عقيرتهم ويطلق حماسـتهم المسـتفحلة مع تلويحهم بعمائمهم بشـيءٍ من العاطفة والحاجة إلى نقاش ومراء ومواجهة يسـتطاع بها تفريغ الحمم المشـتعلة للشباب وعموم الرجال في ذلك الصرح الرياضي... والزواج فقد بريقه، ولم يعدْ أمرًا وجدانيًّا بل شـهوانيًّا يُحقِّقُ راحة البدن دون الروح والقلب اللذان يظلان في نزاع وشـجار. والمرأة هي الأخرى اهتمَّت بأشـياء تافهة وأحسَّـت بضـرورة اسـتقلالها وفرض نفسـها في مجتمع تحسـبه ذكوري ظالم، وعسكرت مع الهاتف والمسلسلات، ومنهن من يكددن ويتعبن ويعشن في مشـغلة لا خلاص منها بين مطبخ وغرف تنظيف وأعمال في منظمات ومؤسـسـات تستنزف نفوسـهن وأنوثتهن... والحالُ مُفكَّكٌ مُهْمَلٌ لَا يُعنى بالروح والجمال الأصيل الغائص بتثاقل في جوف المرء الحضرمي، ساخرًا ولا أكثر من مكنونات غيره من الأنام، وناقمًا على عيشـته وأوليائه في دولته. وعجلة الفناء في دوران سـريع والشـمس تجنح للمغيب قد سـئمت الأرض ومظهرها الزائف المزخرف...

في نهاية الشـارع الثاني، عند موطئ المنحدر عَلَى تلك الهضـبة الغريبة المنحنية كعجوز عليها جُونيَّةٍ، وبعد عدد من المباني الشـاهقة والمحلات الباذخة والباعة المتنوعين بين تمر وخبز وحلويات ولحم مجفَّفٍ، ينتهي الشـارع عند مُنعَطَفٍ يصـبُّ في الشـارع الرئيسـي الأول الشـعبي، ولكن إن سـرت قُدُمًا ولم تتبع المنعطف، فسـتجد عند الموطئ بيتًا قديمًا أغبرًا، له نوافذ طينية مخرَّمة من المرمر، مع درجات سـلّمٍ تصـلُكَ إِلَى المدخل، محاطة بجدار تسـند عليه كوعك للرقيِّ عليه والوصـول إِلَى بابٍ محمرٍّ كالدماء.

يقطن عبـدالغفُور في هـذا المنزل؛ مَنزلٌ طِيني مكبوسٌ لَـهُ طَـابِقٌ مُفْرَد ومدخلين ومكيفي هواء يتدليان من جانبه الجنوبي عَلَى زقاق صـغير ضـيِّق، يربطه بالشـارع الثالث الهادئ المقفِر تقريبًا والخالي من الراجلين إلا قليلًا، أو المتسـامرين لِمامًا. وينتهي المنحدر بعد مرورك بمشـرب أبي عُمر، وكلُّ زائريه شائبون متقاعدون، وبُوفيَّة سندويتشات صغيرة؛ يقذفُكَ المنحدر من بعد كلِّ ذلك عَلَى سـوق العَلَفِ والقَضْـبِ والتَّنَانِير. وهذا سـوقٌ ذو رائحة نفَّاذة خانقة، حتى لَإِنَّكَ تشـعُرُ وسَـطَهُ بضـغط جوّي هائل. اعتاد عَبْدالغفور المرور في هذه الطرقات، حتى ابتلَّت نفسـه منها وتشـرَّبتها عَلَى مضـض. وهناك هدوء شـديد غَشـيَ المكان، والبيت يحتلُّ مكانًا في منتصـف وسـط البلد بعد عمائر التجار والبرجوازيين وقبل أحياء الكود والشـوارع النائية المستغرقة في الفقر.

يرتاد عَبْدالغفور مسجدين شهيرين؛ مسجد الجامع عند بؤرة السوق بجانب الساحة الكبيرة التي تطلُّ عليها محلات كبيرة عديدة مثيلَ محلِّ بِن سِلْم لزيوت المعصرة؛ ومسجد ورْسما القابع في ضاحية المنطقة الجنوبية وهو ضخمٌ للغاية ويشرف عَلَى ثلاثة شوارع، إحداها شارع البنوك المحاذي للخَوْر. عندما يجنُّ الليل ويمدُّ أكمامه ليبتلع الشمس تحتها، يتوجَّهُ عبدالغَفُور إِلَى عمله الثاني، في محل الشيخ إدريس لحياكة وتطريز الأثواب، ويبقى هناك حَتَّى الحادية عشرة مساءً. لكنَّ الوقت الآن يشير إِلَى عصرية صحوة، يلتقف فيها فم السوق البشر حَتَّى آخره، فيكتظون في ثناياه، ويتصايحون، ويشتد اللغط في سوق الساحة مع جنوح الشمس إِلَى قُفَّة المغيب.

كُوِّرت السَّماءُ وطُويَ شعاعُها عندَ نُقطةٍ واحدةٍ في زاويةِ الغربِ وراءَ سياجِ الجبالِ الشاهقات، بقيت منزوِيَةً هُناك مع أَوَجِ اِنكِمَاشِهَا مُتَشبِّثَةً بِبقايا نُورِ الشمس خَائِفَةً مِن قُدومِ جنودِ اللَّيلِ، لَيبدُو في تِلك الساعةِ أنَّ سقيفتنا السماوية تُركِت لِوَحشيَّة الغَسَقِ وَمَا وَسَقَ، بعد تخلِّيْ الشَّمْسِ النيِّرة عنها وتسليمها إياها للظلام الحالك، وصفحة الماء الطحلة المقيتة تتموَّجُ بدوائر خلَّفها سَنبُوقٌ لِأَحَدِ الصيَّادين، ولعلَّها تعكسُ آمال وطموح هذا الشعب في هذا القُطرِ العربي.

إنَّ همَّا ساحقًا هو ما يطارد هؤلاء البشر في هذه البقعة من الأرض، ولا تزال فئة كبيرة من المجتمع تفتقد إِلَى اطمئنانها وسلاها المغصوبين منذ

القدم. والحقُّ في نظر أي امرئٍ يتمعَّن في شـاكلة هذا المجتمع الإنسـاني أنَّ همَّ الأخلاق وهمَّ الـدِّينِ وَهْمِيينَنِ غَيرَ مُتَحقِّقَينِ عَلَى أرضِ الوَاقِعِ، وفي المُقَابل، تجِدُ همَّ القَاتْ وهمَّ العُمْلَاتِ الأجنَبيَّةِ وهمَّ الوَظَائِفِ والأعَمَالِ مَاثِلًا بقوَّةٍ وطغيان عَلَى نفوسـهم ولهجات ألسـنتهم. لقد كَتَبَ إِيمِيْل فَارُوبِيك مرَّةً أنَّ المجتمعات الَّتِي تهتف بالأخلاق الدينية مرارًا وصوتها يبحُّ وينبح بذلك لَهي أشـدُّها فقرًا وأقلُّها تخلُّقًا بها، وقال أيضًـا وهو يشـير إِلَى تفاهة المظاهر: **"الرجل المحترم لا يجرمنَّه الخوف من الرأي المعارض والبذيء في حقِّه على اللبس النمطي والكلام المحكي عَلَى الدوام، إنه لا يحتاج إِلَى أن يقول للناس كم هو محترمٌ ورجولي."** لكنَّ عبدالغفُور وحَتَّى ياسـين عَبْدالحَكِيم يشـيدان بهذه الروح الجَمَعِيَّة الَّتِي تُبقي العُرف فعَّالًا وسائرًا على متن الحياة. إنَّ هذه الإشادة تتمخَّض عن تسليم يائس بحياتهما الفردية، وإنَّ عدم تحقيق الفرد لآمال المجتمع المحافظ يترتَّب عليه يأسٌ عميق وذبولٌ روحي يمحق كلّ الأخلاق الَّتِي يصرُخُ بها المشايخ والدعاة.

يَفْهَمُ عبدالغفُور حَاجَتَهُ إِلَى الزواج، وانشـغاله بالعمل فقط، يفهم أنَّ هذا يبقي حياته طبيعية وهادئة، ويدرك كم يترجَّع صـدى هذه الأفعال داخل صـدره بقناعةٍ ورضًـا. هو يكتب مذكراته يوميًّا، ويرى فيها ملاذًا لعواطفه الغضـبى الآسـية، هذا إذا ما حلَّ به خطبٌ يسـتفزُّ دواخله ويوقد هيجانه الغاصِب لكلِّ ذرة خير طيبة...

بعد رجوعه قرابة الواحدة ظهرًا إِلَى بيته الصـغير، كان قد عبرَ الشـارع

الأول من أوله حَتَّى نهايته، ودخل إِلَى شارع المعاصر والخياطين الموازي للشارع الأول عن خلفه جِهةَ الخَور حيثُ القطط المتشرِّدة تموءُ بالمارِّين وتلعَقُ أذنابها بهدوء. دخل ليشتري (سمن البنادري) المعصور الفوَّاح من محل أيمن، المجاور لدكَّان التطريز الذي يعمل فيه بدوام جزئي ليلي، من ثمَّ يعود أدراجه تحت تأثير مزحة المدير الَّتِي تخنقه حَتَّى اللحظة. قاد درَّاجته في حالة من الخَدَر والشرود والضياع الفكري وفوقه تتسلَّط الشمس بعنفوان تُحمّر الرؤوس من شدة تركُّزها وحرارتها، غاب التفكير عن مقدور عبدالغفُور، فإذا به يسلك طريقًا مرسومًا عَلَى نحوٍ آليٍّ محفوظ، كأنْ تقصُدَ أرجلنا ما اعتادت قصده من سبيلٍ يُفضي بنا إِلَى المنزل المريح الآمن، حَتَّى إذا نوينا سلكَ سَبيلٍ آخر، فإنَّ السرحان وتشتُّتَ الانتباه يتركان للعقل آليةَ توجيهِ الأوامر عبر ذكريات مثبَّتةٍ ماضية تلقائية، فيتوجَّهُ جسمنا بُناءً عليها إِلَى الوجهة المطلوبة والمرغوبة. كذلك حدث لعبدالغفور، وألِفَ من دماغه صداعًا فوق صداعه، حَتَّى شارف عَلَى الدوار والسقوط من عَلَى درَّاجته، كان متعبًا حَتَّى النخاع، كأنما سيقبِلُ مستقبلًا عَلَى أحداثٍ تدخله في أتون نوبة عصابية سيئة ومدمِّرة.

لا يملك ترفَ نسخِ مفتاحٍ لباب داره، الذي يتملَّكُهُ شقيقه قيس بعنجهية وفرض لا نقاش فيه. فتراه يطرق الباب، المصنوع من الحديد والمطليّ بملاط دامي خشبي، ومَقبضٍ ناتئ متدلٍ من النحاس يُستخدم للقرع. لا أجراس كهربائية في هذا المنزل، وبعد لحظات عدَّها عبدالغَفور

طويلةً جدًّا، كأنما كل ثانية تمضـي وهو خارج منزله تبخِّرَهُ مثل رذاذٍ رطبٍ يسـيح عَلَى زجاج نوافذ بيوت حي الشـهيد خالد في لسـان المكلا القديمة البحري؛ فتحت شـقيقته الباب واسـتقبلته، وهي الصـغرى الخجولة، بشـيءٍ من الحرج لِمَا رأت عَلَى وجهه من أمائر التعب والحمَّى. لم يدخل الردهة بعد إلا وتذكَّر أمر صـندوق الخِطبة، نسـي المرور بالمحلّ، كما هفا عن معاودة مكالمة عِزُّو في صدد هذا الشأن. تمتم بصوت مسموع:

- حفلة خُطوبتي، سوف...

تقدَّمت منه شقيقته الثانية، بعد أن وضعت الغطاء عَلَى قدر الطبخ، فهي منشغلةٌ بالغداء وطبخ الأرز. قالت تحدِّثه:

- عبدالغفُور، تبدو شاحبًا ومُفزَعًا!
- نسيت أمر صندوق الخُطوبة...
- آها نسيتها... عادي يا خوي لا بأس.

قالت سـارَّة ذلك، ولكنَّ صـوتًا مجلجلًا صـدرَ عن الغرفة المجاورة للممر، كانت أمُّه فَوزِيَّة قد تناهى إِلَى سـمعها الحادِّ كلامه عن نسـيانه، فصرخت:

- تنسى أهمَّ الأشياء دائمًا، ماذا أنت، بعوضة حمقاء؟
- حصل خير، أنا آسف...

عُقد لسـان عبْدالغفور عن التبرير، كان يريد أن يبكي، لكنَّه أبى الاستمرار في حالة الهوان المخزية أمام نساء بيته. فقال مضيفًا:

- سأتدبَّر الأمر عصرًا، استأمنت عزّو عليه، سوف...

في الحال، شرفت الأم عَلَى ممر المدخل برأسها، وهي لا ترى شيئًا، وصاتت صارخةً كالمخبولة:

- قلتَ عزُّو، ذاك المجنون العاري؟ أأنت أبله؟ قَد حاولنا استخدامه في عمله فإذا به يعطِّل ما هو معطّل في الأصل، والآن تستأمنه عَلَى أمرٍ بهذه الأهمية، هل أنت أبله بحق؟

أمسك عبدالغفُور جبينه المحترق وقال وهو يقفل غرفته، هاربًا من كلِّ شيء:

- ليست مشكلة، أنا لا أطلب منكم شيئًا.. أنا لست هُنا..

ودلف غرفته ونزع لبوسه في غمضة عين ورماه عَلَى السرير بغضب يشتعل في جوفه، ثم رمى نفسه فيه بعصبية. كانت الدار متواضعة جدًّا، ممراتها ضيّقة، وملاطها باهت مصفرّ، ومطبخها كحمام مفرد، وغرفة عبدالغفُور اتَّسمت بالبساطة، فلا مرآة فيها، وهناك مكيف هواء قديم شَبَكُهُ وإطارُهُ بُنيٌّ غَامِق وهوَّته متكسّرة الطبقات، توجّه الهواء البارد، ولكنه ليس باردًا تمامًا، إنما شبه ذلك. حجم دولابه صغير، ارتفاعه متر ونصف، وأطرافه تتآكل من قِبل الأرضة، وهناك منضدة السرير (كومودينو) منتفخة من جانبيها بسبب كوب ماءٍ تطاير عليها بسبب عبدالغفُور في يومٍ ما. ولكن كم مرةً سيغضب حَتَّى يعبِّر عن غضبه؟ إنه يكبِتُ عواطفه، ولا يأمَلُ أن يُفهَم مرَّةً. يريد أن يتزوَّج ليصبح مواطنًا عاديًا صالحًا، وهمُّ عائلته أن تبقى

سـمعته، مهما حدث، طيِّبة. منذ وفاة والدِهِ وأمُّهُ تشـتدُّ عصـبيتها وتضـييقها عليه، وقد عِيلَ صبرها من شقيقه الذي يئست من الاعتداد به، لكنَّه عَلَى أقلِّ تقدير لم يُلحق سـمعة شـائنة بعائلته، وهذا ما يهمُّها. كان والده مواطنًا بسيطًا، إلا أنَّه زعلانٌ منه غضبانٌ لتعسُّر حياتهم الكريمة. كتب عنه يقول:

«تركتني، وخلَّفتنا في فقر مدقع، لو ترانا من السماء، فستبصر مدى سوء حالنا، ولكن الحمد لله، لا زلنا مستورين. قيس لم ينضـج، بل لا يريد ذلك، كنت أظنه سـينضـج لكنه سـرعان ما انتكس.. حمّلتني مسـئولية كبيرة من خلفك، ولم أنل أيَّ حبٍّ أو رعاية لطيفة. أخبرني يا والدي، ماذا سـأفعل تاليًا؟ إني ضائع، ولا أراني راشدًا. الصديق خان، والمؤتمن باع، والصاحب بالجنب جار، والناس في ديارهم جوعى يشـكون من المُرّ والقار. ماذا سـنفعل في هذه الحياة الَّتِي تلفظنا بعيدًا عن حقائقها ومتاعها؟ لقد تعبت يا والدي، لماذا تركتني؟ لماذا ارتحت أنت، وألقيت بي في هذه المتاهة والضـيعة والسـمعة المعيبة؟ ارجع! تعال وتجرَّع آلامنا معنا! ارجع أيها الخائن! أنت تركتنا... أليس كذلك؟ آه من الناس! لقد آذوني يا والدي، آذوني كثيرًا، نزعوا مني كرَّامتي، وضحكوا عَلَى أطماري، وداسوا طموحاتي، وتلاعبوا بمشاعري يا والدي... حقًّا لقد تعبت، أرجو الراحة، أرجو اللحاق بك عَلَى الأقل، إن لم تكن عودتك ممكنة.»

ثمة الكثير من المشـاعر السـيئة تحيط بهذا الإنسـان المرهق، لكنَّه يكتُمُهَا، ويحاول المضـيَّ بإنكارها عَلَى الدوام، مما جعله عُرضـةً للمرض

النفسي، وتعاضد ألمه النفسي مع ألمه العضوي، فشعر بالصداع قويًّا حادًّا بين جنبات رأسه الكبيرة. لم يمهله الجو الحار كثيرًا حتى نزع كل قطعة ملابس عليه، وبقيَ فقط بسروال داخلي، وكان يتحرك باضطراب عَلَى سريره، مما أصدرَ مع اهتزازه أزيزًا صاخبًا. حاول مقاومة الحمى والصداع، حَتَّى غلبهما، وأقال قيلة الظهيرة.

نهض قيس من سباته عند الثانية ظهرًا، وخرج بعد نصف ساعة إِلَى سوق القات، وقبل ذلك سيمرُّ عَلَى صحبة له ليذهبوا معًا للغذاء ثم للتلهّي بمضغ القات. لقد ترك عملًا في الأسبوع الماضي، وهذه هي المرة السابعة الَّتِي يترك فيها عملًا يلتحق به، ولا يستمرّ فيه أكثر من شهرين. لم يستنكف عن أذيّة شقيقتيه بكلامٍ نابٍ فظ ريث خروجه، وعندما شاهد شقيقه نائمًا، اشتد غضبه ورماه بوسادة ثقيلة وقال صارخًا: قُمْ!

ثم عرّج على صحبته في الدُّكَّة، حيث مكان اجتماعهم، وتداولهم القيل والقال، وهكذا.

مستغرقًا في تعاطي القات مع خلّانه، دَارَ الحِوَارُ كَمَا تَدورُ عَجَلةُ العربيَّة، وإذا بفتى رثّ الهيئة حالُهُ حالُ نفسِهِ يمرُّ بهم، فأكلوا في لحمه ولم يبقُوا شيئًا. وَمَع تَلظِّي حرارة المناخ وانكِفَاء السَّماء الصَّافية المُزْرقَّة كبلَّوْرةٍ على جلبابها المَاسِيّ، اشتدَّ مفعُولُ القاتِ وخدَّرهم، وشعروا جَميعًا بِأَرْيَحِيَّةٍ وَقُوَّةٍ وَسُلطَان. كَانُوا خَمْسَةً بِمَنْ فِيهِم قيس. وإِذْ ذَاكَ قَالَ أَحَدُهُم وَشِدقُهُ مَحشوٌّ يُوشِكُ أنْ يتقطَّعَ بالنبتة الخضراء:

- اسمعوني، كُليب أبو حبيش سيبرم صفقة جديدة.

فقَالَ آخَرانِ بِلَهجةٍ بَاردة جافية:

- أخبار حلوة.
- قل ما عندك من جديد.

فأجاب الحاكِي بنبرة واطئة جادَّة:

- هِسْت! لا يسمعكُم جِنِّيّ! الأمرُ مُتوقِّفٌ عَلَى الشُّرطة، لقد ازدادوا حرصًا في تفتيشهم لأوكار العِصَابة، وكلَّ يَومٍ يَزدَادون قربًا من المكان، لكنَّ كُليب أبا حُبيشٍ يُراوِغُهُم بِمَهَارةٍ، وينفَذُ بِجِلْدِهِ بِأُعْجُوبة! هو الآن يريد إبرام الصفقة، لكنَّ العيون في كل مكان، يفكِّر في تشتيت الانتباه، إنما كيف؟ قال لي وسيط عن هذا، وأعطاني كيسًا، انظروا.

التقطَ الرجل مِن عِصبته كيسًا شفَّافًا فيه بودرة بيضاء، تسمى هذه المادة بالشبو، وهي من أنواع المخدرات، تُشبه مخدِّرات شَمَّة الحوت.

تعجَّب الصحب وبدأوا يتغامزون.

وإذ بقيس يقول بنبرة متحفِّزة:

- أفعل أي شيء للحصول على الشبو!
- صدقت، إنه كالإكسير.

وقال آخر وهو يفوق هَازلًا:

- هيء آه، الحياة حلوة معه.

عاد فاتح الحوار ليقول وكلّه الحزم والجد، وقد بدا عليه التوتر، ولمع وجهه عرقًا:

- إنَّ أبا حبيش منفتحٌ كاليائس لأيِّ اقتراحات.

فكَّر قيس بجدية وجاهد عَلَى إيجاد حلٍّ، حَتَّى قال:

- أفهم إذًا أنَّه سيكافئ صاحب المقترح مكافأة كبيرة.

- بلا شك، وسيجعله ربما، من المموّلين.

- أوه! عظيم، شيخ والله أبو حبيش.

هذا الرجل المكنَّى بأبي حبيش هو زعيم عصابة كبيرة، تدير مراكز ونقاط بيع لمواد محظورة، وفي جعبته مفاسدٌ لجيل بأكمله، كأنَّ مجامع الحقد قد استوطنت صدر إنسان واحد، ومن ورائه داعمونَ يتربَّصون بالشباب الدوائرَ. لكنَّ وحدة مكافحة المخدرات تعمل بجدٍّ لانتشال هؤلاء، وجعلهم مثالًا لسموِّ العدل وفشل الطغيان. الفريقان في وضع استعداد واستنفار، وكليب أبو حبيش يحاول جاهدًا إتمام صفقة كبيرة، هي صفقة العمر، مع قبائل وعائلات كثيرة تنتشر في منطقة الكَوَد وجول الشفاء وشوارع الشرج، وتمتدُّ إِلَى أسواق فرعية في الخُمر والطويلة في منطقة فوَّه. أخذ قيس كلام صاحبه بجدّية، وراح يفتّش في رأسه عن حيلة يتقرَّب بها من أبي حبيش. وقف عَلَى حين بغتة من الحاضرين، وقال لهم وهو ينفتل ذاهبًا إِلَى مكانٍ ما:

- وجدت حل، وجدت حل!

وذهب بعيدًا، بدرَّاجة شقيقه الَّتِي لا تخصُّه، لكنه يأخذها منه أنَّى شاء، ولا يقدر عَبْدالغفور عَلَى منعه. وبانتفاخ وجنته بالقات، مضى قيس بقميصه العنَّابي، وإزاره المخضَّب بالحمرة، وعمامته تعتجر رأسه كالعصابة، إِلَى نقطة بيعٍ معروفة لبيع شبو أبي حبيش.

فكَّر قيس في المسألة، ورتَّب كلامه قبل المقابلة. وهو يقود إِلى منطقة الكود، قال لنفسه: «هذه فرصتي، سأكسب الرهان، وأظفر بالمكانة والميزات!»، وعندما وصل إِلى عقبة منحدر مرتفع عليها دار طويلة بها أربعة أدوار، سأل رجلًا يقف عند عتبة الباب المفتوح:

- يا طيب، أنا زبون قديم، أريد التحدُّث مع أبي حبيش في مسألة هامّة، لديَّ اقتراحٌ سيبعد أعين الشرطة عنكم.

ملأ الرجل عينه من مظهر قيس، وقلَّبه في ذاكرته حَتَّى وصل إِلَى إجابة حدَّث بها نفسه: «آه إنه صاحب كلمة "لاحقًا" الشهير، كان يدين للزعيم بمئة وعشرين ألفًا، ولم يسددها إلا بعد شقِّ الأنفس، وهو الآن يريد مقابلته.. أفٍّ من أمثاله، عسى أنْ لَا يورِّطَنَا!»، ومن ثم بدأ يصالِبُ ذراعيه ويوثقهما، وانتظر راميًا بصره في الأفق، حَتَّى قال بصوت خفيض كأنه أزيز حشرة:

- سأخبر الوكيل باقتراحك، ليوصله إِلَى أبي حبيش، أخبرني به عَلَى عجلة.

وانساب خطاب وجيز كالجدول الرقراق من ثغر قيس المليء

بالسُّوس، وعندما انتهى، كان يبتسم بمكرٍ، وملامحه باردة لا يحسُّ لما قاله بجرم أو تجاوز للحدود. تفجَّع الرجل منه، ونظر مليًّا إليه وهو يخطر بالًا: «هل هذا الرجل جاد؟ لا يعقل!»، وتأفَّفَ وتنهَّدَ مرارًا وتكرارًا، حَتَّى نطق أخيرًا تحت سطوة نظرات قيس الملحاحة، بأن قال بلهجة باردة وحاسمة جازمة:

- يبدو أن اقتراحك يستدعي مقابلتك به. سأكتب إليه ليقابلك وراء مسجد ورسما، عند التاسعة، كن هناك قبلها.

صافحه بحرارة وهو يهتف:

- واصِل، أشكرك عَلَى هذا، لن أخيِّب ظنكم!

- آه، طيب، سنرى.

وانقلب قيس عَلَى عقبيه راجعًا إِلَى صحبه وهو يحمِّسُ نفسه لمقابلة الرجل المدعو بأبي حبيش، كي يشرح له خطَّته الخطيرة.

لم تحن الساعة الثامنة إلا وقيس في الموقع المطلوب ينتظر بتهيُّب مقابلة زعيم العصابة ليعقد معه أواصر التعارف ووشائج العمل العميقة. لهاته العلاقات عمق غريب، فهي عَلَى سطحية قشرتها وضحالة محاورها ترى بين أطرافها معاملة حريصة يحفظون بها عهد بعضهم ولا يجرؤون عَلَى فضح أحدهم خوفًا من الدوائر والمعضلات. ومع حلول التاسعة هدأ الشارع وخلا من الراجلين، وغادرت العَجُوزُ الكُدْيَةُ السَّمراءُ الَّتِي تجلس عادةً هناك، وصار خاليًا يستضيء بقنديل معلَّق في ركن مسجد ورسما

يضفي لونًا شفقيًّا باهتًا لكنه دافئ ولطيف. وهناك ظهر الزعيم، وكان رجلًا شابًّا، لا تخطئ حضوره المُلْفِت عين. لديه أبهة وجلال فطري انطويا في سمته وبِنيته، مع ابتسامة تشعُّ ثقةً وبأسًا يافعين. كان شعره أجعدًا كثًّا، له سالفين غليظين يلتفان فوق صدغيه، وذقن منعَّمة عريضة، ومُحيًّا مستطيلي باشّ ناصع السمرة فاتحُهَا، كما يحوز عَلَى عينين عريضتين يستتران بجفنين كالمعطف سُمكًا فتبدو عيناه من ذلك نعستين. لباسه تقليدي، لكنَّه يفضِّل البناطيل على (المَعَاوِزِ والفُوَط) الدارِجة في اليمن، ويرتدي سُترةَ برد رغم أنَّ الجو قائظ، وصوته رخيم سلس وضَّاح، لا يشوبه بلغم ولا بحَّة. اقترب من قيس وحيَّاه تحيةً عادية مختصرة، وقال له بنبرة هبَّت فوقه كعاصفة ثلجية:

- تكلَّم بما عندك بسرعة.

وحكى قيس فكرته، حَتَّى جعل الزعيم ترفّ له جفنيه السميكين. وقال مذهولًا مما سمع:

- مستحيل، لا يمكن لرجلٍ مثلك أن يكون موجودًا...

- بلى، أنا موجود، تأكَّد من ذلك يا كليب.

إحساسه بالقوّة تضاعف لمَّا حضر الزعيم بين يديه، وكليب يعرف معنى مناداته باسمه المجرَّد: إنَّه واثقٌ جدًّا.

وافترقا سريعًا، على مواعدةٍ عبر الهاتف مع منتصف الليل ليشرح له تفاصيل الخطة، وكان قيس يتحرَّى الوقت بتمعُّن والقلق يدبُّ في جسده...

وغُلِّف الليل بستر مدلجة غارقة في العدم، وانتثرت النجوم فكانت ليلةً ساجية حالكة، طويلة، اتفق فيها الطرفان على كل شيء.

قبلها بقليل، مع عشاء الليلة، كان عبْدالغفور يذرع شارع المعاصر عائدًا إِلى عمله بعد الصلاة، هناك في مسجد الجامع حيث لا أحد، تقريبًا، يعرف اسمه وهُويته. تلقَّى جدُّه معاملة فظة في القديم الغابر، فكان مهاجرًا من بعيد، وقوبل بالإقصاء والتهميش سريعًا، حَتَّى في عدن حيث حلَّ فيها مؤقتًا للعمل كبحَّار فوق عمله كخيَّاط، فقد لقي من العنت والتضييق والريبة ما لقيه. وكان جدُّه يشعر بالإقصاء والإنكار وفقدان الهُويَّة. هو الآن يستذكر تلك الكلمات الَّتِي كان يرددها له جدُّه بكل يأس: «**عَلَى الفقير ألَّا يجرؤ أن يَحْلُم يا عبْدالغفور**».

كان في السوق شبابٌ هَرِيتٌ ونساءٌ بالمَجَاسِد يمشين، وخَطَلٌ كثير مع ضوضاء تحجُبُ عن الأذهان كل تصوُّرٍ هامٍّ عن الحياة، والكل يتدافع ويتجاذب في الشارع باستعجالٍ في كلِّ الجهات، ولا أحد يسترخي. الأنفس تسعى حَثيثًا وراء هموم الدنيا، وعبدالغفُور مجبور على القناعة، فلا يمدُّ بصره عَلَى شيء يستحيل عَلَى يده أن تطاله. كان قد خطرت في باله فكرة أنَّ الزواج لشيءٌ يصعُبُ عَلَى نفسه الشروع به فضلا عن إتمامه، ولقد همَّ يومًا بأن يعدَّه أبعد منالٍ في هذه البسيطة، غيرَ أنَّ الظروف واتته، وسنحت له الفرصة بشكل عجيب، بعد سنوات يائسة متكررة، ورغب الآن في عمره هذا بأن يختار شريكة حياته.

سـلَّمَ عَلَى ربِّ عمله في محل الخياطة بشـارع الخياطين والمعاصـر، الهادئ جدًا والمنفصل عن السوق وضجيجه كشاطئ المدينة. استرسلا في حديث صغير عادي، ثم سكتا وأطرقا أرضًا، وتارةً يسرحان في الفضاء. ربُّ العمل يدعى إدريس، وهو حيَّاكٌ ماهرٌ يقصـده رجال رفيعي المرتبة ومهمّين ومشـايخ وأصـحاب شـأو عالٍ. يمشـي بتماوت وتخشّـع. وإدريس يشـتهر بتطريزه أثواب المناسـبات والأعياد ومعاطف البرد وسـترات الأعراس الرسمية شهرةً صارخة.

أخذ عَبْدُالغفور يشـرد ذهنه ويتذكَّرُ تسـليمه لثوبين ومعطف لرجل ميسـور غني معروف بتجارته في أعلى تلَّةِ حيِّ بلقيس، بعد عُبُورِهِ شـارع البنوك وكلُّهُ صخبُ زَمَّارات الحافلات تصيتُ كحناجر النسوان في العرس، ومروره بجسـر المُشَـاة المُعلَّق حيثُ عربتين يحفُّهما الصَّـدأ يُباعُ من على سـطحهما المكشـوفين ثمارُ جوز الهند الطازجة، إلى رؤيته في المقهى المجاور له امرأةً تبيع التُّمْبُل (وهي ورقة خضراء يحضّرها الباعة، تشبه ورقة القات، محشوة بالسكر والنارجيل والفوفل، لها آثار سيئة وتسبب سرطان اللثة، اشـتهرت في عدن وانتقلت مع مر السـنين إلى المكلا) وتحكي كلامًا غريبًا يُسـلّي الرّجال، وامرأةً أُخرى تبدو مجنونة، بلا عباءة، شـمطاء، تلبسُ رداء نومٍ وتشربُ المعسَّل (الرُّشبة) كما تعلو عينيها نظَّارة شمسية رغم أنَّهُ المساء. والحياة من حوله مجنونة أيضًا، مُتدفقة هائجة كفتاةٍ في ملهى. تذكّر ما لقيه في بيت التاجر من خيلاء وعِزَّة وعلوّ لم يألفهم قط، ويتذكَّر كيف

قابله بنفور، ولسانه مُتجهّم يستنكره، وكم كانت لتعابير وجهه من تأثيرٍ عليه حين غضَّ الطَّرْفَ عَنهُ وحرَّكَ مقلتيه يمينًا وشِمالًا في الهواء، وكان أطول منه بمقدار خمسة إنشات... كلُّ ذلك برق في ذهن عبدالغفور لمَّا دَخَلَ زَبونٌ جَمِيلُ الطَّلَّةِ جَسيمُ البِنيَةِ باسق القوام، فيقبل عليه إدريس واقفًا بابتسامة هرِم حفَّ وجهَهُ الشيب ووخَطَ شعره البياض، لتجري محادثة عمل تلقائية محفوظة:

- لو سمحت يا عمَّ، أبغى أفصّل ثوب قطري وآخر عماني، مع جاكيت من قماش ناعم لامع بلون كحليّ.

فيردُّ إدريس بحَبورٍ وغبطَةٍ:

- أبشر! من هاتين العينين يا طيِّب الطيِّبين!

وها ذا عبدالغفُور يهرع ليأخذ مقاس الرجل الطيّب، لا لشيءٍ سوى أنَّه زبونٌ شغوف منهومٌ بهذا المحل فكأنما التقف إدريس صيدًا كبيرًا في هذه الأمسية.

كان عبْدُالغفور متضايق يذهب عقله ويغيب عن الحضور، فلم يأخذ ويعطي مع إدريس وصيده الكبير، وراح بلبٍّ شارد يقيس ويدوِّن في كرَّاس ضخمٍ أزرق مُغلَّفٍ بالجِلد في حركة آلية مبرمجة. كان قد وقع له لقاءٌ طاش لهُ عقله وأخذ بتلابيب نفسه في المسجد قُبَيلَ صلاة العِشاء مع رجلٍ معاقٍ مُقْعَدٍ ومُسنٍّ خَرِفٍ يُلقَّبُ باسم (بُلار النِّمس) هامَّته محدودبة، مشلولٌ مِن مِرفَقِهِ الأيسر، يبدو طوله أقصر مما كان عليه، يرتدي أسمالًا صافية بيضاءً

كالفلّين، بأكمام طويلة فضفاضة، ولقد صادفه عبدالغفور مرةً في مقهى الباطنية أمام كَبْسِ العَمودي المطلّ على البحر، حيث كان يسعى إلى طاولة بعكّازيه ليشرب كوب شاي، لكنه تعثر وسقط، وراح فتية مراهقون في الجوار يلعبون ألعاب الطاولة والبلياردو ينظرون له بابتسامات لامبالية ويتناهى منهم ضحكات ساخرة، ففزَّ عبدالغفور نحوه واهبًا يد المساعدة، فأخذ بيمينه فاتكأ عليه بُلار وشكره، ثم ارتاح أكثر لمَّا قرَّر هذا الرجل الغريب مؤاكلته والشرب بمعيَّته وسط روائح الملح القادمة مع النسيم، فتعارفا وتصادقا وصار كل واحدٍ منهما يرى صاحبه إبَّان العشاء في مسجد الجامع... لكنَّ هذا كلام حديث العهد، فلم يمضِ عَلَى صداقتهما سوى شهر، وفي هذا المساء المُربِك، حكى بُلار المقعد قصة أثارت قلق عبدالغفور. فقصَّ عليه بصوتٍ خشنٍ يحشرج:

- أنصت لي يا عَبدالغَفور، أنت صديقٌ حقيقي في زمن مشبوه مريب، لذا سأخبرك حقيقتي، وحقيقة إعاقتي المجنونة. كانت لي رتبة عسكرية قديمة، كنت رائدًا في فرقة (س...) المقدامة، الَّتِي شاركت في الحرب الأهلية عام ١٩٨٦، ولكننا غوفلنا وغولطنا في توقيت حاسم أودى بحياة مئات الجنود. قصفوا المعسكر وخربوه، وكنت أحاول أن أكون بطلًا. أتعلم ذلك؟ شعرت بمسئولية وطنية كبيرة، كأني بي في ذلك اليوم، أحشد بندقيتي، وألبس صدريتي الحامية ودرعي، وأعتمر خوذتي الحديدية الثقيلة،

وأجري بأعصاب مشدودة في سبق الريادة صارخًا في جنود كتيبتي: "اصطفوا! واستعدوا!" صرخات متتابعة حماسية... لكنهم قصفونا بوابلٍ من الرشقات الصاروخية، ولم نعرف أنستدير أم نواجه؟ أنختبئ أم نبقى عزَّلًا؟ وصرت محتارًا جامدًا عَلَى حين غَرَّة، لا أقدر عَلَى شيءٍ، فطالني القصف، حاولت الفرار، وأنا رائد، حاولت ذلك لكن عبثًا حاولت يا بلار الجبان! هكذا قالت لي دواهي الدنيا، انفجرت قنبلة بقربي، وبترت ساقي، ودخلت شظية في الأخرى، فقطعوا قدمي، وصرت عاجزًا، بعد أن رغبت في أن أكون بطلًا... يا للسخرية! أتعلم يا عبْدالغفور ما معنى أن تكون بطلًا؟ أنصت لي، على البطل أن يستطيع دائمًا قول كلمةٍ شخصية حاسمة، عليه أن يفقد كلَّ إحساسٍ بالخوف، ويتجرَّد من وساوسه، ويُقدِم ليكون الفيصل في ساحة الميدان، كانت معركةً أو نزال، أو حَتَّى مسئولية مكتبية صغيرة، إن أردنا أن نكون أبطال حياتنا الخاصة فعلينا... يجب علينا أنْ نتَّخِذَ قرارات صارمة، وأن نملك حزمًا واضحًا حيال العواقب والعُقَد، عليك بذل جهدك يا عبدالغَفور لتكون بطل قصة حياتك! لقد فقدت الأمل في حدوث ذلك لي، لأني هُزمت، واندثرت طموحاتي، فقبل أن أصبح بطلًا، صرت عاهةً وعبئًا. تذكَّرْ يا عبدالغَفُور كلَّ كلمةٍ قلتها لك، وقاتِل لأجلها، بل كافح كفاح المجاهدين لتكون رجلًا يحقِّق بطولة

حياته الشـخصـية... لا تعرف معنى ذلك بعد، أفهمك! ولكنك ستدركه في اللحظات الحاسمة الَّتِي تضع حياتك بين حاصرتين، وبيدك القلم لكتابة العنوان، وأنت على المحكِّ، لا تعرف متى يبدأ ذلك وأين ينتهي، لكنك تستعدُّ له وتنصب له خطَّةً تعينك على ألا تشقى... قد تكون بطولتك زواجًا، عملًا، واجبًا تؤدِّيه، أو إنقاذًا لحياة مهدرة كحياتي، أعطني المعنى أهديك الحياة! هناك أشخاص يشترطون علينا ذلك كي يواصلوا معيشتهم دون تفكير في تعليق أرواحنا... لكننا نعاني بصمت، ونفوسنا تغلي، وكما قال إيميل فارُوبيك مرةً: "البطولة فتنة لكل البشر، وقلة هم من بلغوها. وإنَّما وحشية الطبع الإنساني في جوف الإنسان الواحد، تكون ممكنةً فقط إذا اعترف هذا الفذُّ بأنْ لا جدوى من حياته، ينكر عليه صفاته، غير عابئ بنفسه، يموت وحده، ويعيش كظلِّ شجرة. إنّ النوع الطبعي الدائم، وهو الذي يصل إلى البطولة الفردية، في عراك دائمٍ مع الحياة، يناضل كثوريٍّ في أتون الحرب، يعربد في حركة دائبة، ويسابق ويطاول لأجلِّ كلِّ شيء، هذا الوحش الإنساني يحيا حياةً حقيقية كاملة بلا ريب." لكنني لم أستطع أن أكون وحشًا... أتحب القراءة يا عَبْدالغفور؟

أجابه بسروح وتيهان ضارب في جذوره:

- آه.. نعم..

- أنصحك بكتب إيميل، إنَّه مشهور، وله كتابات تصفُ حياتنا وصفًا مخيفًا، كأنه بيننا!

- آها. سـأحاول مطالعة مؤلَّفاته.. يبدو اقتباسـه مثيرًا... البطولة فتنة...

وصـدح المؤذِّنُ بصـوته الجَهُوريِّ لِيُقِيمَ الصَّـلاة، فافترَقَا على فُتورٍ عَجِيبٍ أصَـابَ بُلَار، لعلَّه مِن فَرْطِ تكلُّمه قد تَعِب، ودُوَارٍ شـديد مسَّ رأس عبدالغَفور المصدَّع سلفًا. كَانَ الزَّبوُنُ فِي دكَّانِ الخِيَاطةِ سَعيدًا جدًّا، حَيثُ أعلن بنغمٍ في نبرته:

- أُبشِّـركم، نهاية الأسـبُوع المُقبل سـأعْقِد قِرانِي وأزفّ عَرُوسِـي إلى بيتي!

بَارَكَ لَهُ إدْرِيس، أمَّا عَبْدُالغَفُور فظلَّ صَامتًا كسُترة.

- أحسنت بإتمامك نصف دينك، بارك لك الله!

- صدقت، إنَّمَا الحلال طَيِّبٌ ولذيذٌ ومُريح!

- نعم! فعلًا!

وطفقا يضـحكان كالسـاذجين، ثم إذا بالزبون يلاحظ غيبوبة عبدالغَفور الحيَّة، وانفصاله عن عالمهما، فسأله:

- هل أنت بخير يا طيِّب؟

رفع رأسه إليه، كان أطول منه قامةً، أبيضًا كالأرز، وجميلًا كهرَّة. وبنبرة جوفاء، باهتة، مظلمة، ردَّ عليه:

- أنا بخير.

وبدأ يخيط، وصنع له جوًّا لنفسه، أخذ فيه يتنهَّدُ ويئن. وتصرَّمت الدقائق والزبون لم يتزحزح من أمامه؛ لأنَّه طلب تعديل بزّة رسمية تبدو مِلكًا لشقيقه الأكبر أو شيئًا كهذا. وجرَّ الوقت أذياله بتثاقل وعبْدالغفور يعمل بالآلة ويطرز، حَتَّى باغته الزبون بكلام غريب:

- شكلك كأنك في سجن! بالله عليك، مَا بك؟

خيَّم الصمتُ ثقيلًا، كحرجٍ في عزاء.

"لقد فقدنا ثقتنا بالناس، إنهم كائنات وحشية. ولكننا رغم ذلك لا زلنا نعيش معهم". كذلك قال عبدُالغفور وهو منكبٌّ عَلَى درزِ البزَّة، فعاد الزبون يسأل كما لو إنَّه يتهكَّم: "وهل ثقتك بهم كانت موجودةً أصلًا؟"، فكأنَّما كَانَ عبدالغفُور ينتظر ذلك السؤال، ليرشقه بنظرة نارية، وتزمهرَّ عيناه، ويهتزّ جفناه، ثمَّ بعد كلِّ هذا يشيح بنظره، ليركِّز تاليًا صوب آلة الحياكة، ويجيبه: "وما شأنك؟"، وبعد لحظات قِلال، يستأنف هواجسه هذه حينما قال يحدّث نفسه:

«إنَّ من الناس مَنْ هوَ مُسخَّرٌ فقط لكي يَقلِبَ أحوال أناسٍ آخرين رأسًا عَلَى عقب، ويُكشِّفُ لهم معاني للحياة كانوا في غنًى عن معرفتها، ولو أنَّهم جهلوها أو تجاوزوا التفكير بها لأفلحوا وصاروا مواطنين صالحين محترمين بحق. إنَّ أشخاصًا عديدي العدد والطاقات والذكاء قد أُهيل عليهم بالطين الوسخ رغمًا عن إرادتهم، غصبًا لأنفسهم! وبعد أن كانوا

يُشِعُّون نورًا وصلاحًا، التقوا ببشرٍ، أو شبه بشر، غير أمينين، متوحِّشين، يدَّعون الدعة والاستقامة، وما هُم إلا كإخوان الشياطين!»

أخذ عَبْدالغفور يلتقط أنفاسه ويشد قبضتيه عَلَى البزَّة والانفعال عليه طاغٍ باد. زفر زفرةً أماطت همًّا ثقيلًا يشبه وضعَ بقرةٍ تجرُّ عربة عَلِقت في جرفٍ من الوحل، حَتَّى إذا ما بلغت ذروة قوتها، ومنتهى مقاومتها، صعدته، وارتاحت في القمة... نعم، شعر عَبدالغفور خلال لحظات صمته أنَّه في قمَّةٍ ما.

استزاده الزبون مُظهرًا اهتمامه بكلامه، مع ضحكةٍ أفلتها أحسَّ منها عَبدالغفور بالإهانة، فقال في نفسه معلِّقًا: «يريد أن يقول: عبد ويفكّر! عبدٌ ويتكلَّم بعاطفة! أف... كلُّكم تقولون هذا عَلَى تعابيركم، لكنكم لا تجرؤون عَلَى البوح به... جرذان!» كانت عدوانية غريبة تعلو أمائر عَبدالغفور، وأكمل بوحه الأول قائلًا: «ليس لأنهم يبذرون المال والمتاع، بل حتى الحيوات اليافعة! تلك الحيوات البريئة العاكسة لأشخاص أنقياء؛ لقد غيَّروهم وفق أهواءهم الشاذة، حَتّى صاروا رجالًا اسودَّت الدنيا في أعينهم، وتلوثت قلوبهم، وترذَّلوا... أين برأيك ذهب أولياء الأمور؟ وأين الأمانة المجتمعية؟ أين كل تلك القِيم الصارخة في النصوص والخُطَب؟ لا أراها... لا أرى شيئًا حقيقيًّا واحدًا!» ضرب عبْدالغفور منضدة العمل بقوة، فرمقه إدريس بعنف وجحوظ، كأنَّ بلسان حاله يقول: «يا عبد لا تُفزِع زبائني!» أما الزبون فقد التفَّ ناحية الباب وناظر في الشارع، فرأى محل أبخرة فوَّاح

بإضـــاءة ليلية دافئة، والروائح تفوح بطيبها في الأرجاء، فاســتمالته الروائح للذهاب، ووعد بأن يعود.

بعد عودته إلى منزله، وفي منتصف الليل، كَتَبَ عَبدالغفور، وقلبه واقفٌ على صدره يوحي إليه، مكملًا كلامه:

«إنَّ المرءَ لَيلقى من الابتلاءات والمصـائب ما يلقاه في سـبيل أن يصـير مواطنًا صـــالحًا محترمًا، لأجل أن يُتحدَّى ويُمتحن ثباته عَلَى قيمه ومبادئه السـمحة العفوية، البقاء شـهمًا نبيلًا إنما هو تَحَدٍّ يَفشَـلُ فيه كثيرون. الدنيا لم تكن قطُّ قاسـية، هذا ما عرفته، وإنما الناس، هم من يتصـدُّون لمن يرغب في الحياة، بحكم التنافس عليها. يقفون بالمرصـــاد بوقاحة وتغطرس؛ ليســت الحياة هي القاســية، بل مَن يُشـــاركنا في تســييرها، وتكوينها. ولكن كيف ستكون الحياة دونَ بشر؟».

وخَلَدَ إلى سريره ونام بعد صِراع مَع أرقه، وانتهت تلك الليلة أخيرًا.

❊ ❊ ❊

الكراهية والحسد

قبل نهاية الليلة بقليل، في وقت السَّحَر، كان القات قد تعتعَ قيس وجعله مَسطولًا، فبدأ بالهذيان مع اثنين من ندماء لياليه، وجعل من كلامه دِفَّة لنواياه، فقال ما قال في حقِّ شقيقه عبدالغَفُور. تململ في مكانه وتنحنح صوته قبل أن يقول بنبرة بطيئة متداخلة:

- أتعلمون؟ أخي يخطط للزواج!

سخر ثاني الاثنين من هذا التصريح فقال:

- المسكين ذاك؟ غير معقول!

فأكمل قيس متحمِّسًا:

- صدقت، كيف له أن يفكِّرَ بالزواج قبلي؟ وأنا رجل العائلة!

عزّر أحدهما قيس بقوله وكلُّ صوته تأتأة:

- هـا.. هو لن.. آ.. أعني سيكون فظًّا.. لكن أنت محقّ، لازم يحترمك.. لكن هل تنوي يا قيس... الزواج؟

قُطّب وجْهُ قيس وأبدَى امتعَاضًا ورمق سائله بنظرةٍ جبَّارة أفزعته. ثُمَّ ها هوَ يسْتَأنِف قائلًا:

- أكيد. وربَّما يتسنَّى لي قريبًا.

- أوه. كلام! هذا تصريح نشوة قات معتاد!

قلَّب قيس ناظريه في كليميه، ثمَّ ردَّ بانفعال غريب:

- صمتًا يا قبيحين! هذا شأني...

ثم تمتم وهو يقبض على يده:

- لن يهنأ ابن العجوز العمياء وأنا حَيّ!

ثم أخذ قنينة عصيرٍ برتقالي مثلَّج وارتشف رشفات متلاحقة منه، وزفر كأنما خاض سباقًا قبل أن يقول ما قاله. وقبل الفجر الكاذب، ولج قيس البيت وأهله نائمون. اقتحم غرفة شقيقه، وفتَّش في الأدراج بانفعالٍ وربكة والعرق يندلق من كل ناحية في جسده، وضوء الغرفة الأحمر السهَّار يزيد من وقع تهيُّجِهِ واحتدادِ انفعالاته. وضع كيسًا في الدُّرج السفلي، وأخذ من العلوي بطاقة عبْدالغفور الشخصية، ثم أغلق مزلاج باب الغرفة على عجلٍ، ليرى بعدئذٍ ما بالمطبخ من قُوت، فالتقم ما تطاله يداه، وانطوى في لحافه بعد ذلك ليغطَّ نائمًا شاخرًا.

داهمت عبْدالغفور أحلامٌ كثيرة، كان يشعر بنفسه يتنقَّلُ من حلم إِلَى آخر في وامضٍ عابر، بلا حواجز ولا فواصل. تلوَّى وتعرَّق كما لو ذاق البرحاء والحمى، ورأى نفسه تجول عند مدرسة سُميَّة، يترنَّح مكدودًا مرهقًا في جُولةَ بن عَزُّون ذات عمودِ الإنارة الكبير كأنَّه قنديل بحجمِ نيزك يتسلَّط عَلَى الساحة بأبهةٍ جليلة، ينظر إلى ذراعيه، فيجدهما مخضَّبتان بحُمرَةٍ أرعبته، فصرخ داخل حُلُمِه، وإذا به يرفعُ غُرَّته، ويوجَّهها للناس، فيَلْقَونهُ بوجوهٍ وَحشيَّةٍ تنمُّ عن تنديدٍ وتهيُّبٍ بشأنه الذي لا يفهم ما هو بالضبط. ويعدو عبدالغفور عدْوَ الخيل في مضمارها محاولًا الهرب، لكنَّهُ

مُجرَّدُ إنسَانٍ ضَعِيفٍ، لا يملِكُ وثبة الجوَادِ الواثقة، أو نبرةَ صَهيلِهِ العالية؛ فكان عَدْوه حقيرًا هزيلًا، نحو لهاة السوق الَّتِي تراءت له عاليةً وهو أسفلها، تريد التهامَهُ كأفعى عِملاقة، فيصرُخُ عاليًا حَتَّى يقفز من فراشه مرعوبًا غارقًا في سيلان عرقه، وقلبه يدقُّ ويرتجّ كمولِّد الكهرباء. مسح بيده جبينه، ونزل إلى وجنته، فأحسَّ بدموعٍ تنهال، ولم يستطعْ حفظ نفسه، ومع خوفه بأنْ يسمعه أهلُ بيته فيُؤنّبونه، أخذ البطَّانية وطمَّر بها وجهه، وصرخ من كلِّ قلبه: «لا! لا! ابتعدوا!» وهو يرتجِفُ كالفضيحة.

قضى بقيَّة ليلته بين السِّنة واليقظة، ولمَّا طلع الفجْر، أدار عبْدالغفور عينيه ليبصِرَ الساعة الجِداريَّة. تثاءب في مكانه، وأجسَّ في عينيه حِرقةً والتهابًا، فكان منه أن تجاهل ذلك كلّه، وحضَّر نفسه للصلاة عَلَى عجل، ثم خرج إِلَى الجامع مهرولًا. كان يتفاءل بصباحه حينما يتمطَّى عائدًا بأنْ يقول: "مع كل إشراقة شمس، يمكن للحياة أن تكون أفضل".

ليس عبدُالغفور بالرجل المتشائم ولا ممّن يتطيّرون، إلا بالقدر اللصيق بطبع الإنسان من استشعارٍ مبهمٍ للشرّ ومخاوفه. كان قد قرأ ذات مرة في مسرحية كلاسيكية لشكسبير، على لسان إحدى شخصياتها: «**إنِّي لَمُحِسٌّ كَيدًا خَفيًّا**»، فخال أن له إحساسًا شبيهًا بإحساس تلك الشخصية المتخيلة، من غير أن يدرك مسوّغات هذا التحسّس أو أسبابه.

في ذلك الصباح، تهادى إليه ذاك الشعور مباغتًا، ليعاجله بما قلب مجرى حياته. ظنّ للوهلة الأولى أن زهرة أيامه مقبلة على التفتّح، وأن

العبير وشيك، غير أنّ الشكوك كانت تلازمه على الدوام.

بَرُعَتْ الشمس في طويٍّ أسمال الليل الكالحة، وملأت السَّمَاءَ بضيٍّ يَتَرَقْرَقُ على صفحَةِ مياهِ بَحرِ العَرَبِ المَفْرُوشَةِ كبِسَاطِ أمامَ كَبْسِ المكلا المتراكم بالصخور. وانجرف غَبَشُ الفجر وضبابه البارد مع استرسال أشعتها في أُتونِ المدينة، فتدفَّأت المعمورة، وتنفَّسَ صباحٌ صيفيٌّ صحوٌّ ترتفع فيه درجات الحرارة حَتَّى الخمسة والأربعين إبَّان صعود الشمس إِلَى كبد السماء. حزّ في نفوس الخليقة تركُ الشمسِ المطلَّة بكلِّ طاقاتها وحيدةً، فانسربوا من أكمامهم وأوكارهم، وجابوا الحارات، فكان صباحًا يُنعشُ كُلَّ ما احتكَّ به أو انْدَمَجَ معه.

انشغل عبدالغَفور بإعدَادِ فَطُورِه، وخبَّ عقربُ الساعةِ حَتَّى وصل إلى الثامنة إلا رُبْعٍ، لِيُقَرِّرَ الخروج لِعمله. عندها، برقت المفاجأة من بعيد؛ إذ سمع صراخًا فجائيًّا اقشعرَّ لَه، وحدّث نفسَه: «أهَذَا صَوتُ أُمِّي؟ لِماذا هي تصْرُخُ؟! لماذا كلُّ هذا صُبْحًا؟ يا ربي مَا الخَطْبُ هَذِهِ المَرَّةَ!» وغذّ الخُطى متوجِّهًا نحو مصدرِ الصوتِ، فإذا هِيَ غُرْفَة قيس، وأمُّه الضريرة فيها، فأوجسَ شرًّا بلمحِ البصر، وطفق يرمش في حالة رِبكَة، وحاول سماع حوارهما، فتنصَّتَ من وراءِ البابِ المُتآكل ذي الطلاءِ المتقشِّرِ، ولمّا وارَبَهُ بعض المُوَارَبةِ أزَّتِ مفاصلُه الحَدِيْدِيَّة، فَجَمُدَ عبدالغفُور وكزَّ أسنانه وشدَّ عضلاتِ ساقيه. خيَّم الصمت لحظات، ثُمَّ إذا بالأمِّ فَوزِيَّة تقولُ والحَنَقُ يغشى صوتها الخشن الشاحب:

- ساكت؟ الإشاعات تطال بيتي، وأنت لا تهتم بشيء غير نومك وقاتك، متى ستصبح رَجلًا، تكلم! لا شيءَ تنفعنا به، أين مسئولياتك؟ قم يا حسافة التربية! يقولون عنَّا ما لا يصح، "ابنكم عاطل، بلا شغل، ابنكم دائما مطُرود من شغله، ابنكم متبطّل، ابنكم مجرد عبء عليكم وعلى المجتمع... صرت ما شاء الله مثلًا للأطفال: "انتبهوا تكونوا مثل ابن الجيران قيس!" متى ستشبع من حرق مسامعي بهذه الكلمات؟ موت الجسم ولا موت الكرامة والسمعة! قُم! اذهب واعمل لك شيئًا، كن مثل أخيك!

هنا، بدا أن باب البيتِ اصطكَّ بزمجرةِ قيس:

- كفى! كفى يا عجوز يا عمياء! تبًّا لكِ وله! أنتِ من قَرّرتِ تزويجه بدلًا منِّي، هذا ما جازيتني به على أتعابي منذ وفاة زوجك الحقير! لتكن له الحياة ولي الخيال والزيف وتفاهات وعادات الصبيان! فلتسمعي إذن بكلّ وضوحٍ، أنا سأظفر بما أريده، وما إن أفعل ذلك، سترين كم سأكون سعيدًا وقويًّا وناجحًا... فَهمْتِ!

كان عبْدالغفور يستند بظهره واقفًا على الجدار، ومع سماعه لإجابةِ شقيقه الحادَّة، تهاوى على الأرض، فأصدر ضجيجًا شبهَ مسموعٍ. وخَرَس البيت، كما كان صامتًا في بدئه مع جدِّهم المُهاجر، حين وفد على اليمن الجنوبي فارغَ اليدين، رأسُ مالِهِ حِرفتُه، فعَاشَ غريبًا منبوذًا في وَحدَةٍ خرساء في جنبات هذا البيت نفسه. كسرت فَوْزِيَّة ذلك الصمت المرعب بلطمة

وجَّهتها بإحساسها الجيِّد للمكان والمسافة لابنها، وأعقبت ذلك بثقة وصوت باردٍ جافّ:

- تَأْدَّب يا سُوِد المَدْعَس! ولا تذكر أباك على لسانك، وإلا رأيت مني وجهًا أقبح من وجهك! أنت من اختار أن يكون شيطانًا حقودًا متربِّصًا. أعرف طينتكَ جيِّدًا، أنتَ أشبهُ بقابيل. لا يهمُّني كم صرخت أو أسأت القول عنّي، فأنا أمُّك، وهذه حقيقة لا يمكنك إنكارها. أين بِرُّك؟ لن تفلح عَلَى وجه الدنيا وأنتَ عاقٌّ. لو تركت ضغائنك، وتحلّيت بمناقب أخيك، لكنت سبَّاقًا إِلَى الزواج!

اِسْتَرَقَ عبدالغفُور نظرةً إِلَى الغُرفة، هي ضيِّقةٌ جدًّا لدرجة عدم وجود نقاط عمياء للرائي من بابها، ولا يوجد فيها طاولات. فقط دولاب مفرد طوله مترين ولونه أزرق سماوي، وسجَّادة عتيقة حمراء محددة باللونين الذهبي والزيتوني. وأمُّ العائلة فَوزِيَّة تلفُّ نِقابَها حول رأسها وتسدِلُهُ عَلَى نَحرِهَا، ورَوْبٌ برتقاليٌّ دَاكِنٌ مُزَرْكَشٌ- كَأَنَّهُ سحابة زهاءَ وقت الغُروب تعكسُ بَقَايَا النهار في هيَّئةِ أَلسِنَةٍ ملتهبة- يغطّي جسدها الذي لم يفقد لونه البُرُونْزِيَ رُغْمَ تعطُّفه بالتَّجَاعِيد وتغضُّنه بالشَّحْم. شفتاها مُتورِّدتان مُنتَفِخَانِ، وفمها كبير كمطلع قِطار، ولديها حَاجِبَانِ هِفَّانِ خفيفان، وكانت تَتنفّس غضبها. ولو أقبلَ عبدالغفور عليها الآن لصكَّت وجهه بكفٍّ دون أيِّ سبب.

انفضَّ الكلام بأنْ نهض قيس يريدُ الحمَّام، واختبأ عبدالغفُور في غُرفة

مُجَاورة، وحَولَقَت فوزية وهي تحرك يَدَيْهَا.

في الشـــارع، وعبدالغَفور عند ورشـــة المهندس عِزُّو، تخابرا يكملان موضـــوع الأمس. كان عِزو قد حجز صـــندوق الدِّبْلَة باتصـــال، ومرَّ بها عبدُالغفور ليُعْطِيَ المُزيِّن اسم مخطوبته، وانتهى الأمر. أما الآن، فعبْدالغفُور يريد استشـارة عزّو- العاري الصـدر، والطُرطُور السَّـفيه بِلِسَـانِهِ البذيء- في شـأنِ شـقيقه ومشـكلاته مع والدتهما. قد يؤخره هذا الأمر عن عمله، إلَّا أنَّ هذا آخر همٍّ بَرَزَ لعبدالغفور في هذا اليوم. قال له:

- أخي قيس، لا يمرُّ يومٌ دونَ شِجاره مع أمي.
- إيه أسمع صراخهما كثيرًا، هذه مشكلة!
- نعم، ولا أعرف ما أفعل، إنَّه يكرهني.
- يكرهك! لماذا؟
- لأنِّي سأتزوَّجُ قبله.
- آها، بَطُلَ العَجب. لكن أعرني ســمعك يا غُفري، من جدَّ وَجَد، ويقول المثل: "لِعب فلوس ولا جلوس!"، وهو تقاعس وأهمل، هو ضيَّعَ نفسه!
- لكنِّي لا أريده أن يكرهني.
- إذن أنت تُحبُّه رغم كُلِّ ما يفعله.

تردّد عَبْدالغفور في الإجابة، وسـيذكر في مسـتقبل قريب أنَّ جوابه الذي كان يفتقر إِلَى الدقة والوضوح قد وضعَ حدًّا لمحاورةٍ نفسيّةٍ جيِّدة.

- لا أراه مَحلًّا للكُره.
- فهمتك، وتستغرب كراهيته لك؟
- لا، أظن كرهه لي طبيعي ومنطقي.
- ماذا؟ هذا غريب! كيف؟
- لقد تولَّى زِمامَ البيت ونحن صغار، أتذكَّرُ قبل سِنين أنَّه تركَ الثانوية، ولجأ للعمل في منجرة، ومرة في حدادة، ساعدني لِأكمل دراستي بأنْ حمل عبء المسئولية، لكنَّ ذلك لم يدم طويلًا؛ فقد نأى عنها بعد سنتين وانفجر غاضبا. وراح يتذبذب من عمل لآخر، وتعلَّم القات والسيجار، وسايرَ خِلَّان السوء، وتشاجر مئات المرات مع أمِّي. إنَّهُ يكرهني لشبهي بوالدي، يكرهنا كلينا، إنَّه يظنّ أنَّ والدنا قد تركنا لنكابد العيش القاسي، كأنه اختار موته بنفسه، ورفض الحلول مكانه. ماذا أفعل يا عم عزيز؟

لم يعرف عبدالغفُور لماذا ناداه باسمه دون اختصار، ربما أحسَّ بعاطفةٍ غريبة احتاج معها أن يشعر بأنه فتى صغير، وأنَّه يكلِّم رجلًا بالغًا حصيفًا لا غرًّا متهوّرًا له تجارب فاشلة. أجابه العم عزيز بما لم يتوقعه عبد الغفور في البدء، ثم لم يلبث أن وجد نفسه يوافقه عليه. بدا له أن عزيزًا يتحدث من موقع رجل خبير جرّب الناس والحياة. قال له:

- لا شيء كامل في الدُّنيا، كل شيء بِهِ عَيْبٌ ونقص، وكلّ الناس تحَاولُ بعناد محو النقص. أنْتَ حَزين يا عبْدالغفور، لكنَّك لا

تَعْرِف سـبب حُزنك، أو غضـبك، أو اسـتيائك. وهذا يجعل مشاعرك مُرتابة، مضطربة، وغير واضحة. أنت تحتاجُ إلى الحنان أكثر من قيس. لعلَّه مُتَحجِّرَ القلب، ناكر للجميل، ملبوس... أما أنتَ فتحتاجُ لِأنْ تحيا حياةً كاملة، ولا شيءَ كامل. أنتَ تبحث عن كمال ليس موجودًا! ذاك مجرد سـراب! امض إلى عملك، ولا تشـغل بالك بأخيك. سـيهدأ، ويومًا ما سـتراه أبًا صـالحًا محترمًا. المهم هو أنت. لازم تَصْمُد يا غُفْرِي!

هزَّ عبدُالغفور رأسـه موافقًا مع كلِّ قَوْلٍ وُجّه إليه. لَمْ يَسـتَوعِبْ مغزى ما قاله عَزِيزٍ تَمَامًا في تلك اللحظة، لكنَّ ما رَسَخَ في قلبه هو أنّه سيعيشُ عِيشة سهلة هانئة إذا ما واصل بهذه الرَّزانة والتجلُّد والصمود. أقفل بعيدًا عن عِزَّو حتّى وصـل دائرته الحكوميَّة السـاعة الثامنة ونصـف. كانت المكاتب قد فُتحتْ للتَّو، وعلى مكتبه ارتجف عبدالغفُور من أعلى شـعرات رأسـه حتّى أخْمُصِ قدَمَيْهِ حينما رأى على طاولته الصـغيرة طلبًا بالحضـور إلى مَخْفَرِ الشـرطة المحلِّيَّة في حيّ بلقيس بالمكلا، وذلِكَ مَا دَفَعَهُ ليقُولَ: **«ومتى ارْتكَبْتُ شرًّا؟»**

❊ ❊ ❊

التفتيش

كانَ صوتُ المذياع يصدح في صالة الطابق، وكان صوت المذيع يصل إلى جميع المكاتب:

"كنتيجةٍ للْفَقْرِ، وإقْصَـاءِ الطَّبقات الدُّنيَا في المُجتمَعِ الحضـرمي، يَسْـتَحْوذُ أفرَادُ الطَّبقَاتِ المميّزة عَلَى المراتب العالية والنفوذ وفُرَصِ الحَياة الكَرِيْمَة. سَـعَتِ الطَّبقيَّةُ لِجَعلِ هَذهِ التَّراتُبِيَّةِ حتميَّةَ الوُجُودِ لَا تقْبَلُ الجدال فضلًا عن إعادةِ النَّظَرِ. التَّقْسِيمُ تعدَّى مرْحَلَةَ التصنِيْفَاتِ إِلَى تِخْصِيصِ مِهَنٍ بعَيْنِهَا لطبقةٍ دُونَ غيرِهَا، وصَـارتِ المِهَنُ المتواضِـعَةُ الصَـغِيرَةُ تُحَقَّرُ هي وأصحابُهَا. واحْتِقارُ المِهن والحِرَفِ والمُستَخدَمينَ الصَّغارِ يَسْتتبِعُ تَفْضِيلَ البَطَالَةِ عَلَى العَمَلِ فيها وسَلْكِ مَسلَكِهَا. وهَذِهِ إشْكَالِيَّةُ مجتمعية كُبرى. لَقَد عُزِّزَ مفْهُومُ الطَّبقِيَّةِ في بِدئهِ بالقُوَّةِ البَاطِشَـةِ والْأفعَال القمْعِيَّةِ لِأهدافٍ مَدروسَـةٍ يُخطَّطُ لها نهارًا وتُدبَّرُ في لَيلٍ؛ كَوُجودِ الاسْـتِعْمَارِ الغَاصِـبِ طِيلةَ قَرْنٍ وستَّةٍ وثَلَاثِينَ سَنَةً في أراضي اليمن الجَنُوبِي، الَّذي رَضِخَ المُستعمَرِينَ لِتصـنِيفاتهِ وتقسِـيماتِهِ الفِئوِيَّة. لكنَّ الحَضـارةَ والهُوِيَّة مُلتَصِـقَينِ مُحالٌ أنْ يَنْفَصِـلا، لِهَذا نَجِدُ اليَمَنَ على دَربِ التَّاريخ قد اِحتَرَمتْ وقدَّسـتِ الوظَائِفَ والعَمَالةَ واعْتَبَرتْهُم مَصْدَرَ إغناء وسعادة المجتمع، إنَّما ما سَلَفَ قد اِنطَوى في غَياهِبِ الماضـي مع وجود المدنية الرأسـمالية في الحاضـر، وصـارتِ الإشـكاليَّةُ اليومَ في كونِ الشَّـعْبِ اليمني يَنظُرُ إِلَى الأمرِ الجَلَلِ هَذَا عَلَى أنَّهُ

مُسلَّمةٌ لَا شِيَةَ فِيهَ، وتَجاهَلُوا حالَ العَاطِلِين ولَاموهُمُ عَلَى أفكَارِهِمُ مِنْ غَيرِ فَهْمِهِم لِجذر المُعْضِلة، وأمسَى الشَّعْبُ اليمني يُصَنِّفُ عَنَاصِرَهُ بِنفسِهِ، مِنْ دُونِ بَدَّةٍ لِاستِعْمَار، وهُوَ نفسُهُ مَنْ يَحتقِرُهَا ويَزْدَرِيهَا ويَحُطُّ مِن قَدْرِها. ومِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، تَدَاعَتِ الخُطُوبُ والمِحَنُ عَلَى رُؤُوسِ الناسِ، وجَذَبَتْهُمُ إِلَى مَجرُورِ الخَطِيئَةِ وأَوْحَالِ الشَّرِّ، كَمَا فَعَلت بِكثيرٍ مِن الشَّباب".

بلغ الصوتُ مسامع عبدالغفُور، ولكنَّه الآن يُوشِكُ أنْ يَدخل فِي طَورِ نَوبَةٍ عَصَبيَّةٍ سَتقلِبُ له يومَهُ مع أوَّل قراءةٍ لورقة الاستدعاء. قال في سريرة نفسه: «ما معنى هذا؟ ومن بلّغَ عنّي؟ لا أفهم شيئًا! يا ستّار! هل قرأها المُدير؟ هل تُرَاه استسلم لفضُوله وسمح لنفسه بفتح الظَّرف والاطِّلاعِ على الرسالة؟ لو فعل لمسَّني مِنهُ شرٌّ عَظيم! آه! ماذا عليَّ أنْ أفعل الآنَ؟»

كَانت عاصفةٌ مُدوِّخةٌ للعقل مُذْهِبَةٌ للرشد هي من هيَّجت دواخل عبْدالغفور ورَمَتْهُ في فوضى عارمة. أخذ يفتَحُ حَقيْبَتَهُ ويُغلِقُهَا، ثُمَّ تذكَّرُ أنَّهُ لمْ يَفطُرْ جيِّدًا، فوَخَزتهُ مَعِدَتُه، وتقلَّصت أمعاؤُهُ، وتفصَّدَ العرَقُ من أرجاءِ جسدِهِ الأسمر في نعومةٍ حَتَّى بَلّل ياقةَ قَميصِهِ الزَّيتيَّ وكميه المطويَّين على السَّاعدِين. وحدث ما أربك عبْدالغفور: جاءَهُ مُوظَّفٌ زميلٌ متعهِّدًا أمرًا من قِبَلِ المُدير، فسلَّم عليه أوّلًا، ولم يَفتْهُ التعليق على بقع العرق في غير ما لباقةٍ وذوق:

- الحرّ يلعب بك اليوم!
- آها... نعم...

أحسَّ بجفافٍ ومرارة في حلقه مع قيظ الجوِّ المصـياف، فبلع ريقه، ثمَّ نهض ليذهب، لكنَّه شَعَر بدوخَةٍ حقيقيّةٍ كادت أنْ تُوقِعَهُ أرضًا. اختلَّ توازُنُه قليْلًا، وتقدَّمَ منه الزميل في قلقٍ بعينينِ مذهولتين:

- خير يا عبدالغفُور! ما بك؟ تفضل واسترح على الكرسي.

وجلس على مِقعَدهِ شِبهِ الوَثِير، وتنهَّد عميقًا. ورقةُ الاستدعَاءِ مبسُوطَةٌ فوقَ المكتَب، وعينا الزميل التقطتْهَا. ساورُهُ فضولٌ، وأحسَّ بذلك عبْدالغفور، فصاحَ مَبهُوتًا:

- ماء! إليَّ بماءٍ بالله عليك!

- آه! طيّب! طيِّب!

فزَّ من مكانه ومشى إِلَى البرَّادة، وأثْنَاءَ ذلك، حشر عبدالغفُور الورقة في حِزامِ إزارهِ البُنيّ الغامق. مسح لحية ذقنه المُجعّدة والكثَّة بكفِّه، بينما خفق قلبه مفزوعًا من أمرٍ كاد أن يفضحه. عاد الزميلُ بكأس ماءٍ كبير معدنيٍّ فشربه عبدالغَفور دُفْعَةً واحدة. تكلّم الزميل بكلام مرتبك، ولكنَّ عبدَالغفُور أخبره بأنه سليم، وظلّ يحاول معه، حتى انصرف.

كان البلاغ المستدعي لعبدالغفور قد أوضح التالي: "على المسمى بالذكر الحضور إلى مركز الشرطة المحلية بالمكلا عصر السبت، الثالث من أغسطس، ومقابلة نيابة العميد شاكر محمود، شاكرين لك تعاونك".

تأفّف عبدالغفور وهو يعاينُ درَّاجته الناريَّة بطرفه، ثم اقترب منها في حذر، وطفق يكوّر خزَّانها بعمامته، ويمسحُهَا، ويربّتُ عليها، من ثمَّ تفكّر في السَّماء الوضَّاءةِ، ويتأمَّلُ القبَّةَ السماويَّةَ فيتذكَّرُ الحياة الآخِرَة، ويتخيَّلُ

العيش فيها، ويدفعُ نفسهُ دَفعًا إلى التبسُّم وهو يحسُّ إحساسًا عميقًا بالقلقِ والذُّعر. وعلى فُجاءة، أخذ يُحدِّث- تحتَ حرارةِ قُرصِ شمسِ الظهيرةِ؛ إذْ هو أكمَلَ ورديَّته- درَّاجتَه (البُوتِيَان) الحمراء، فيُنَاجِيها كأنّها آدمي: «لماذا يَحدُثُ كلُّ هَذا مَعي؟ أخبريني يا درّاجتي، هل يصِحُّ أنْ أصيح غاضًبا من مجريات حياتي؟ أم أصطبر وأتجلّد حتى تمرَّ العاصفةُ وينجلي الغمام وتتمّ خطبتي؟ ولكن هل ستتمّ حقًّا؟ درَّاجتي... أنتِ صاحبتي في هذا الطَّريق، أنتِ تستحقين اسمًا أكثر منّي! احكيْ عنّي للطُرقات وللمواشي وللعمائر الشاهقة، إلى أين المصير اليوم؟ سنرى معًا، نحنُ معًا... أجل!»

وانْطَوتْ سُويعَاتٌ، كان عَبْدُالغَفُور فيها ذاهِلَ النفس، لم يُخبِر أهلَهُ عن شيء. ظلَّ واجمًا في غُرفته، يرى بين يديه انفلات أعصابه، ويشعُرُ باقترابِ هَويِّهِ في هذه الأزمة، حتى لم يحتمل؛ فانتزع من فرشه المطويِّ وسادةً وقبضَ عليها وضغطها، وعضَّها مثل كلب، ثمّ صاتَ بها كالمسعور. جمد يرتجف هكذا عشر ثوانٍ، كان شاحبًا متعبًا يودُّ النومَ ونسيانَ حياتِهِ كلَّها. وهَبْ أنَّه نسيها، فهل سيتغيَّرُ حالُهُ؟ **«لا، حياتي لن تتحسّن بفقداني لذاكرتي، بل هي ستشتدُّ عُودًا وتحتدّ في سبيل مباغتتي وإيلامي، لِأظلَّ بلا خبرة، بلا قلب، غير فالحٍ في ردِّ بأسها عنّي»**. لكنَّهُ غيرُ آبهٍ بكلّ هذا الآن. وللتوّ، غاب عبْدالغفور في نومٍ محموم، ولم يصحَ إلَّا والعشاءُ يؤذِّن.

أثناء نومه، مرَّ على غرفته قيس، ووضعَ أكياسًا جديدة في أدراج دُولابه، ثُمَّ فرَّ كالهارب على أطراف الأصابع.

حين استفاق، سمع خبطًا على باب المنزل، وسُمعت جلَبَةٌ عند أطرافه وعلى عتبته. هرعت أُختَاه إليه لتوقِظانه. كان قرعُ الباب الصاخب يروِّعهما، فتحُسَّان به كمطرقة قلوبُهُما سِندانُها.. هبَّت سارَّة تصيح:

- عَبْدالغفور! قُمْ بسرعة! رجالٌ على الباب!

مع تلك الجملة تحديدًا، دبَّت رِعْدَةٌ في ثنايا عبدالغفُور انتشلتْهُ من كراه، فقام مرعوبًا لا يميّز يَمينَهُ من شماله، وقلبُهُ ينطُّ مسارعًا كقطٍّ تحتَ وابلٍ من مطرٍ، وجسدُهُ يسيحُ كالزّبدةِ في النار. أيتمالَكُ نفسَهُ والليلُ قد أغطشَ، والصلوات فاتته، وعملُهُ المسائي فوَّتهُ، وطلبُ الشرطةِ له تناساهُ، أيتمالَكُ نفسه بعد كلِّ هذا؟ في تلك اللحظات، لم يعدْ عبْدالغفور موجودًا. فزَّ راجِلًا إِلَى المدخل، وفتح الباب مُرتعدًا، وأوَّل ما لمحه في ذلك المَوطِئِ المُنْحَدر، حيث إضاءات الشارع الثاني البيضاءُ تُرسِلُ إليه لونًا ضبابيًا كضياءِ البدرِ، رغم كونها غُرَّة شهرٍ قمريٍّ، لمحَ هناك بزَّةً عَسكَريَّةً، لرَجُلين، يتوسَّطُهُما آخر، أبيضُ مديدُ القامة، مُرتاحُ البِنية، لديهِ غدائر تتدلَّى عَلَى صدغيه، وعينان عريضتين يُديرهما بحكم العادة، وفَمٌ عنَّابيٌّ، ومنكبين عظيمين، أما حضوره فكان طاغيًا اقشعرَّ له بدنُ عبْدالغفور كامِلًا. فقالَ يُخاطبُهُ بنبرةٍ رَنَّانة:

- السلامُ عليكُم، يبدوُ حُضورنا هنا مفهومًا، لقد استلمت خطابنا في مكتبك، وإذا بك تتغاضى عنه وتسفهه. وأظنُّكَ مستعدٌّ لِتحمّل مسؤولية فِعلَتك.

- لقد نسيت، ونمت... المعذرة، نسيت...

صرَّ الرجلُ عينيه نحو عبْدالغفور، وزمَّ شفتيه كأنما يستغرق في شيءٍ باطنيّ، وعلى ذلك قال:

- اسمي لَبيد، مفتِّش قسم مكافحةَ المخدِّرات. أرسلني نيابة العميد، كما عرَّف بنفسه في الاستدعاء، حتّى آتيك ليلًا، إذ لم تحضُر بنفسك. مسائلُنا ذات حساسِيَّةٍ عالية لو تعلم. دعني أدخُلُ الآن، قَيِّض حَريم داركم بِسرعة.
- لحظة... أيُّ إذنٍ يسمح لك بالطَمْرِ على دِيار الناس؟ ماذا! مكافحة المخدرات! ما لي وهذا؟
- الكلام الكثير لن يفيد، والشرحُ الملغَّز لن يُفهمك. اتركنا نعمَل بارك الله فيك قبل أن ندخل عُنوةً!

ارتاع عَبدالغفور وغمرهُ شُعورٌ بالإعياء والحمَّى، وانفتل إلى أختيه، وعزلَهُما في غرفة والدته، ومن دون أن يُشعر المفتّش بإتمامِهِ طلبَه، دهست أحذيةُ الجُنديينِ ولَبيد أرضيَّة دار عبدالغفُور واستباحت لنفسها الدخول إلى كلّ غُرفةٍ وقلبها على رأسها. سألوهُ عن غُرفته، فأشارَ إليها، فسارع جنديٌّ مع لَبيد، بينما الآخر يُراقِبُ حَرَكاتِ عبدالغفُور، الذي نطَّت من حُلقُومِهِ كلماتٌ متردِّدة:

- يا.. حضرة المفتِّش.. لَبيد..

لم يكن عَبِيًّا من قبل قط، وبشقِّ نفسِهِ، أكمَل بصوت مرتجف:

- هَل أنا مُتَّهم؟

كان لبيد ينحني عَلَى أدراج دُولابه، وكذلك أجابه:

- أحسنت التخمين، نعم، ببساطة.
- وما هي.. تهمتي؟
- الأخلاق الحميدة.
- ما الذي تقوله؟
- اسمع، لا تضيّع وقتي، لستَ إلّا مورّد.
- مورّد؟ لا أفهم كلمة مما تقول!
- حسنًا، لنلعب لعبتك. وسأقول بشكل مباشر، أنتَ متَّهمٌ بأنَّكَ عضوٌّ في عِصابة إجرامية، تتاجر بالشبو والحشيش، وتصنع الخمر الرديء في منطقة الكَوَد طرف الشرج (حيٌّ فقير معظمه مهاجرين إفريقيين بيوتهم متهالكة) وفي منطقة الطويلة (شبيهة بوضع الكود مع قربها أكثر للجبال وقلة السكان من حولها فهي نائية) في قطاع فوّه غرب المدينة، هل لديك اعتراض؟ ولكن انتبه لأقوالك، فكلها قد ترجع عليك بالسلب وتستخدم ضدّك. نعرف أنَّك العنصر الحيوي في الخطّة الجديدة، الإمساك بك له الكثير من الفوائد. ولكن أصدقني القول... آه! ها هي هُنا!

في نهاية الدُّرج، انتزع لبيد كيسين، ومن خلف الدولاب، تناهى لِمَسْمَعِ عبدالغَفور صوتُ زجاجاتٍ تقرقِع. التفتوا نحوه جميعهم، وتقدّم منه لَبيد

وابتسامة انتشاء ساخرة تعلو فمه، لكنَّه قال بصوت مخنوق يائس:

- لست من الحياة في شيء، فكيف تتهمني بفعل شيء هو من ذات الحياة، بل وطلبٌ صريح لها؟! إنني شخص لا يعتد بنفسه أي اعتداد يا حضرة المفتش، لكنَّك تتجرَّأ بمعَاليك على اقتحام بيتي الصغير، العادي، المنطوي على فقر، بوقاحة وهمجية لم أعهد لها مثيلا، أتريد فضحي؟ تلبِّسني بفضيحة؟ قل لي لماذا؟ إنك مخطئ يا عزيزي لَبيد... ودعني أقول أنَّ اتِّهامك لي هكذا ينمُّ عن ضعفِ عقلك وسوء تقديرك لمواطن المشكلات... كنتُ قبل مجيئكم أحلم، وأتأمَّلُ الحياة، كأنها في متناولي، عدا أنني أدركت، بإبراق ضوء الصباح، أنَّ هذه الحياة ليست لي...

مِن ثمَّةَ رأى عبدالغفُور أنْ يُثبّت طَرْفَهُ عَلَى صورةٍ متحرِّكةٍ بدلَ هاتِه الَّتِي يراها جامدةً تحزُّ نفسه وتنتهك حُرمته، فهرول إلى الباب والجندي عليه كظلِّه، وقبل أن يمسكه قال عَبدالغفور: «أريدُ شمّ هواء!»، فسمح الجنديُّ والمفتِّشُ بعد إيماءة بينهما له بذلك. وبعد نيِّفٍ من الدقائق، لحق المفتّش بالمتّهم عَلَى مدخل الدار، وملأ عينيه منه، ثُمَّ طفق يستجوبه بنبرةٍ لطيفة وادعة، تُخفي الكثير:

- ولماذا ترى نفسك مَقصيًّا من الحياة؟

شعر عبْدالغفُور بتبلّد لحظي، وقال:

- ها... لا أعلم... يقال أنَّ الفقراء مجبولون بعواطف لحظيَّة.

- ولكنك لست فقيرًا.
- ها... صحيح.
- حدِّثني عن عواطفك، أنا مُهتمٌّ.

شعر عبدالغفُور بالغضب، وقال وهو يرد على استفزاز لبيد:

- إلامَ تغمز يا لَبيد؟ انظر، انظر إِلَى الشارع المُقفر، انظر لمَشرِبِ أبي عُمَرٍ تحت الموطئ، انظر للشيابة وهم يتبادلون الكلام ويتهادون القصص، انظر ثم انظر بل أنعم نظرك لو تفضَّلت في الشارع، وقارن ناسه، قارنهم بالحياة في جوهرها، في معناها الحار، المشتعل، الكاوي للأحلام. إنَّ للحياة معانٍ حارَّة مشتعلة عديدة يا لَبيد ربما لم تَتَنبَّهْ لها، وفاتتك... لكنني أُحذِّرُك، نعم حذارِ... إنَّها لو تكشَّفت لك، ولو صُدفَةً، مع تهيُّؤِ نفسك لك كشخصٍ حيٍّ موجودٍ في الحياة، أنَّ لك صَبغَة مِن صبغَاتِهَا، فإنَّك ستكسب خِصالًا لعينة من قبيل الطمع والحِقد ورفض الخسارة... سيغلبُكَ الطمع فتصبح مِتلَافًا وحشيًّا تمشي بأربع أقدام... ستحقدُ عَلَى كلِّ من نال شيئًا لم تنلْهُ من الحياة، ستتغيَّبُ عن عُرس زواج صديقك لأنك أعزب، وستسوِّفُ حاجة جارك لأنَّه مُعدَم، ولن تنام الليل لأنَّ فُلانًا أخذ وظيفةً أعَلَى منك مرتبةً، ولن تهنأ في الصلاة فبالُكَ مشغولٌ بالحياة والتنافس المستعر عليها... أنا لو قُورِنت، ولو على سبيل العبث والمزاح، مع شخصيَّةٍ حيَّةٍ كذئب

ماكر، كتلك الشـخصـية الَّتِي تعُدُّ كلَّ يومٍ محاولةً جديدةً للتلذُّذ بخدعٍ أنيقةٍ وللتنعُّم برفاهيات الحياة، فإنَّي سـأكونُ أصـغر مقدارًا من قملةٍ، سـوداء قبيحة. ألَا إنِّي قد عانيت، ولكن من يكترث؟ شـقيقي يكرهني، وأهلي لا يهنأ لهم بال يلقون عليّ بشـروط... آهٍ منكم! آهٍ كَمْ عَذَبْتُموني! ألا يُتاحُ للمرءِ المريض الأشـبه بجرادة غبراء، تنتحي عن العالم كله، أن يعود إلى منزله بسـلام؟ فيكمل عداد عزلته، وحياته الأزلية، الطويلة كأفق يسيح بلون الدم في نهاية البحر، وهو شـبه مرتاح، صـابر، يجهَدُ أن يصـمد... ثمَّ تأتون لاتِّهامه بالعبث بالحياة؟! والله ما هذا إلَّا قلةُ أدب، بل هي خِسَّـةُ ونذالة منكم! لا يُهِمّ... كبِّلوني إنْ شئتم، فلقد حرمتموني سلفًا من إكمال قيلولة المساء.

لقد لفظ كلَّ ذلك بنبرةٍ متهالكة باكية، دونَ أنْ ينظر نظرةً واحدة إِلَى المفتِّش لَبيد، ذارعًا الشارع الثاني وأسواقه بخياله وبصره المسترسل. اكتفى بذلك مرتعًا، وتراءت له أحلامه السـرمدية، وأمنيات الليل الناعس، حين يشـخَرُ في أذنيه، ويؤلِّبُ عليه السُّـهاد، ليبقى في السـرير كسـمكة حية على الشاطئ. تذكَّر كلَّ شيءٍ أمِلَ في الحصول عليه، تذكّر والده... وبكى. سالت مؤقه، وانهلَّت محاجره، وتهاوت أدمُعُه السـخينة على وجنتيه السـمراوين فالتمع وجهه بضوء الشارع المُزْرَقِّ البارد. ارتاع وجدان لبيد لذلك المشهد، ولم يفهم شـيئًا. كان قبل إجهاش عبدالغفورِ بلحظات يقول في نفسـه: "يا

لحقارته وجُرأته! عبدٌ ذكي أخطر من عبدٍ قوي! هذا المخلوق غريبٌ، يفترض بالسُّود ألَّا يكونوا عاطفيين متباكين، هذا له طباعٌ شاذَّة ونزقة، كأنَّهُ صبي، ليس راشدًا! لعلَّ الحبسُ سيكون مدمِّرًا له... لن يصمد هناك رغم سواده... سأقوده وأنهي هذا الهزل".

أمَّا الآن، فلقد تراجع عَبْدالغَفُور وارتطم بالجدار، وانزلق ظهره عليه ليجثم على الأرض، وهو يبكي بحرقة، كصبيٍّ لم تشترِ له أمه لعبته المفضّلة. كان منظرًا أثار بعض الشفقة للعساكر، لكنَّهُ لم يثنهم عن تكبيله، وإرساله إلى المخفر، بعد أنْ أروُهُ الشَّوَاهِدَ والأدلَّة. رفع رأسه ببطء وهو مرعوب. أروه قنينة خمر، وأكياس الشبو والحشيش، وسجلَّات عملاء مشفَّرة، ومواقع مكتوبة لتسليم البضاعة وقبض المال... رغم أنَّه رأى كلَّ شيء، فإنَّه ظلَّ غيرَ مصدِّقٍ لشيءٍ. رفض في داخله الواقع الذي يراه. ظل يتنهَّد كرضيع، وكان الصمت والفزع يخيِّمان على دار آل عبدالغفور.

قبل أن يجرُّوه معهم، تذكَّر عائلته، فصرخَ يُنادي:

- لا! أمي! أمي! لا! أنقذيني!

وأخذ يدوّي بصراخه، حَتَّى فِي عربيّة دوْريّة الشرطة، ظَلَّ يرتج لفرط بكائه ويضرب كلّ شيءٍ حوله دون أن يوقفه أحد. تحسَّر على كلّ لحظةٍ في حياته، وكيف أَنَّه بدَّدها في أشياء مزيفة لا تعني شخصيَّته.

بعد يومين، وجد عَبْدالغَفُور نفسهُ تصيحُ وترفضُ اعتياد سجن المُنوَّرَة الذي يقبع في جبال منطقة الديس شمال المدينة حيث الحرارة أشدّ ما تكون.

ألقوه في المحبس بعد تحقيقٍ وجيزٍ. لم يخضع لمحاكمة رسمية بعد، كَانَت الأدلَّة حاسمةً على نحوٍ مُذهلٍ، فتمَّ تعليقه، ولم يَرِبْ من ذلك سوى المفتّش لبيد.

غائبًا في اللاوعي، كان يحرّك كأسًا فارغة، يربض في ركن الزنزانة، يحسُّ بأنّ عظامه ومفاصله مكلبشة بالفولاذ، وصدره خامدٌ صامت، ويشعر بشيءٍ في نفسه يتشوَّه. لم يَذُقْ جُفنهُ ساعة نوم، فأمسى غارقًا في غمٍّ تنْهَدُّ له كلُّ آمال نفسه. كلُّ شيءٍ فيه الآن ساكنٌ مُنطفئ.

أقبل عليه مساء الليلة الخامسة في السجن، ورأى عبر إطلالته تَضرّجَ أُفُقُ القُبَّةِ الزرقاءِ بحمرةٍ دموية، وازدانت المُزْنُ الشعثاء المحاطة برقاقة الضّوءِ اليُوسفيَّة بدرجات ذوبان شعاع الشمس الكابي الضّارب في الاحمرار، وساعةُ الزّمان تبدو من شدّة بطئها زاحفةً كسُلحُفاةٍ مُعاقة، وجبينُ السّماءِ الماسيّ يُغلَّفُ بسُترة الليل المدلهمّ، وحنايا الشّفق تذوب بين أصابع السماء الحائرة، والزمان يسبحُ ويجعلُ لكلّ شيءٍ سيرورةً حتميةً لا ينكصُ عنها، فتختفي خيوط النور الدافئة، وتنسرُبُ بين الأطواد والمباني هاربة من واقع الحياة، ليرخي الليل سرباله وينبسط على صفحات البسيطة كيما يُنافح صدور الناس وينقر عليها لترسيخ ألمٍ أو شرٍّ أو فُراقٍ أو بكاءٍ قديم، وعبدالغَفُور جالسٌ بين ثلاث جُدُرٍ وبابٍ من قضبان صدئة، يرمي رأسه على ساقيه المضمومتين نحو صدره.

استغرق منه تصديق هذا التحوّل الصّادم مُدّة، فإذ به بعد تعاقُبِ ليلٍ

بنهار، يلفى نفسَهُ متحوّلًا من داره وأشغاله وهمّ خِطبته، إلى سجنٍ يحبسه ويقيّدُ حرّيته بتهمةٍ شنيعة. وكان ينتظرُ قُدُومَ أهله ومساندتهم له ولو بكلمةٍ تقليديّةٍ، وقد كتب رسائلًا لشقيقه، لكن ما من خبرٍ وصلَهُ منهم... ومع حلول هذا المساء التعيس، زاره قيس، بعد قراءته لخطاباته، القائلة ببراءته وعدم فهمه لما يجري وظنّه بأنّ الشرطة تريد الإيقاع به. كتب عبدالغَفُور مُذكَّرات في كُرَّاسٍ أعطاهُ إيّاه حارس المحبس، فتعزَّى بكلماته، وأمل أن يفهم ما يجري في تلك الليلة.

سُحِبَ مزلاج بوّابة عنبر السجن، وصدَت خُطوات الحرّاس مع قيس في الممرّ الضيِّق المضاءِ بِنُوَّاسَةٍ كهربائيَّةٍ على جِدَارِ المدخل وأخرى قديمة باهتة تتدلّى من السقف، وكان مِلاط الجدران إسمنتيًّا مظلمًا، وبلاط القاع متَّسخٌ مثل مِبولة. حُوصِرت نفسُ عبْدالغفور الرقيق في مثل هذا المكان المنفّر المُخيف، كلَّما مدَّ بصره فيه؛ اكتنفته وحدة ووحشة مرعبة.

كان قيس يرتدي ثياب شقيقه لسببٍ ما، ويجنَحُ عن يمينه وعن شماله حارسين وقفا معه مقابل زنزانة شقيقه الذي لا تصفُه كلمة أبلغ من البائس. مع النظرة الأولى، نطَّ عبدالغفُور من ركنه مندفعًا بقوّةٍ حتى دقّ جبينه في القضبان، التي أمسكها بقبضتيه بعصبية واضحة، وقال:

- أخي! ما كلُّ هذا؟ ما هذا العذاب الذي أعيشه؟

وبصوتٍ قارس، أجابه قيس:

- ما تراه هو نتيجة شرّك.

كـان عبْـدُالغفُور يلتمع بعرقـه، لكنَّ ملامحـه بهتـت توًّا، حتّى همس بصوتٍ مرقَّق، كأنَّ كلَّ ما حوله مجرَّدُ مُزحةٍ أو كابوس:

- أنت بالتأكيد لا تصدّقُهم، كل تلك الأمور، أنت حقًّا لا تُصدّق أنّي سأفعلها! أخبرني متى سأخرج فقط؟
- ألم يُعلِموكَ بالحُكم؟
- حُكم؟ ما هذا الكلام، عن ماذا تتحدث؟
- اسـمعني ولن أُعيد، الأمر انتهى. لقد خذلت عائلتك، وألحقت بها العار، مفروض أنْ تغطِّي وجهك من الخزي!
- أنا متأكدٌ أنّي لم أفعل شيئًا!
- وكلُّ تلك الأدلَّة؟
- وما أدراني عنها! أكيد لبَّسوني إياها! يريدون أن يوقعوا بي! لا أعلم لماذا، إنه سوء فهم بلا شك. صَدّقني أنت على الأقل!

قطَّبَ قيس وجهه، وبسر ناظرًا باشمئزازٍ إلى أخيه، وتقيّأ كلماتٍ سِمانٍ أذهلت عَبْدالغفور:

- نحن بُرَاءُ منك، لقد تبرَّأنا منك.

صـدم، وليت شـعري أيّ صـاعقة نزلت بالمسـكين في عين اللحظة؛ جعلته كصبغة لونه، مظلما يغرق في السواد والاحتراق. تأتأ قائلًا:

- كيـ... كيف تقول؟ أنتُـ... أنتم مَاذا... ها؟
- سأعيدها بصوتي كله؛ نحن تبرّأنا منك.

بدت على ملامح وجهِ عبْدالغفور الفجيعة وتمدّدت كالعجين، وأحسَّ بأنَّ مشابك شعرٍ تشدُّ زوايا محيَّاه وحدقتي عينيه. عاد يقول بصوتٍ مُتهدِّج:

- لكنِّي أقسم بالله... لم أفعل شيئًا والله... حرام عليكم! بربِّكم!... أوَّه... قليل رحمة!

وجدَ فؤاده يتحطّم مع كلِّ ثانية تمر، فجثا على نفسه متهزهِزًا من فرطِ الانْتِحَاب. أما قلب شقيقه فكأنه أغلفٌ، متحجِّرٌ، نَدَّت عنه صرخةُ عِتابٍ وإنكار:

- كفَّ عن البكاء كالحريم! تحمَّل مسئولية أفعالك!

ظلَّ عبدالغفُور يبكي ويقول:

- لكنّي... بريء... أنا بريء...

- ما شاء الله! طيّب! كما تشاء.

وكان الحارسان يقهقهان سِرًّا بالقرب، ويتهامسان:

- لو بيدي لحبستهما معًا!

- كلاهما عيال كلب.

- أبناء الكُود ماذا تتوقَّع منهم بالله؟

- هذان من حيّ العمال، لكنَّهما غير معروفين.

- وهكذا المجرمون واللصوص!

وقهقها.

انقلب قيس على عقبيه مغادرًا، وهو يُردّد:

- لا مزيد من الرسائل إلينا، أمي قالت ذلك، وهي موافقة على التبرؤ منك، لقد شـوَّهت سـمعتها، وأرغمت وجهها في الوحل، عيبٌ عليك! وهي التي كانت تريد أن تزوِّجك قبلي! يا خس! هذا جزاء الإحسان، يا خير بِر!

لكنَّ عَبْدالغفُور صرخَ فجأةً بكلِّ صوته:

- أص يا حقير! أص! أنا... أنا فعلت كلَّ شيء. كلَّ شيءٍ في سبيل أن أكون مواطنًا عاديًّا، يعيشُ حياةً عادية... أنتَ حاقد عليَّ، وتكرهني... قل الصدق! ماذا فعلت لك؟ لماذا تسومني كلَّ هذا العذاب؟!

توقّف قيس، ليقول وظهره مصوَّب إلى شقيقه:

- صدقت، أنا كرهتُك، منذ علمت بأعمالك الخسيسة، كيف لك التمثيلُ علينا؟ بعت الحشيش، وأعطيت الخمر، وكنت قوَّادًا لدور الدعارة؛ تخيّل لو عرفوا آل العروس، يا خس! لو إنَّك تعترف بجرائمك، وتدلُّ الشرطة على أماكن العصابة، لخفِّف عنك العقاب... لكنَّك تأبى، العن نفسك وحسب!

واستأنف مشيه صَوْبَ المخرج، أرضيّةُ المَمرّ تُصْدِرُ طرقًا مِن حذائه القوي ذي الطبقة السميكة كأنّه يحفر الأرض، وعينا عبْدالغفور تلاحقانه، وتمعنان في لباسه، حتّى قال لهُ سائلًا بنبرةٍ ضارعة:

- قيس، قُلْ لي، لماذا تلبس زِيَّي الخاصّ بالمد؟

التفت قيس برأسه جانبًا، دون النظر إلى هيئة شقيقه، وقال:

- لم نستطع إلغاء خطبتك، فأخذتُ مكانك، وسأتزوَّجُ بدلًا عنك، لذا ملابسك لم تعد لك، ولست فردًا من عائلتنا بعد اليوم، انسَ!

- فهمت، لن أطيل عليك. ارحل.

اشتعل شيءٌ ما في جوف عبدالغفُور إزاء شقيقه، حتى كزَّ أسنانه وصرّها، واهتزّتِ القضبانُ بين يديه، واحتقنتْ دموعه في محجريه، واحمرَّت عيناه، ولولا القضبان الفاصلة بينه وبين قيس، لانقضَّ عليه بجنون. غادر قيس والحارسان وراءه، وانتهت أحلامٌ ظلَّت سنينًا ترفرفُ في فلكِ عقل عبدالغفُور. لقد عبَّر عن نفسهِ ونَاجَاهَا، بعد سُويعاتٍ من المُقابلَةِ هدَّأ فيها سِرَّهُ ووَثَبَ لقليلٍ من رُشده، بأنْ كتب في الكرَّاس:

«ماذا تخالني سأقول لك الآن يا أبي العزيز؟ إنَّ السجنَ يُدمِّرُني، ويسحقُ قَلبي، فيُبدِّده قِطَعًا كقِطَعِ اللَّيلِ الدَّاجِي. هل أنت راضٍ عمَّا جرى؟ هل ستتركُني بعد كل حياتنا معًا؟ أبي، إنَّ ولدك أبكاني، أبي.. أنقذني من عواطفي أرجوك. أبي.. أين أنت الآن؟ هل تشاهدنا من البرزخ؟ هل تصِلُ إليك آهاتنا ودموعنا السخيمة؟ هل تبلُغُ مناجاتنا سماءَك؟ وهل أنت في السماء حقًّا؟ أبي. لماذا غادرت، أنتَ من تخلَّى عنَّا! لقد فعلتُ كلَّ ما بوسعي إمكانه. والله ما ادَّخرتُ جُهدًا في سبيل أن أكون رجلًا صالحًا وطيِّبًا... لكنَّ القدر خانني، أجل! هذه خيانة عظمى! هذه الحياة حقًّا، لم تخلق لي في شيء. ما كان يجب أن أحلُم. ما كان يجب أن أرغب في العيش.

أبي، عائلتي، شكرًا على تخلِّيكم عنّي... أنا انتهيت».

غطَّى عَبْدُالغَفُور وجهه بلحافٍ قذر، ولمْ يُسامرْ لياليه الموحشة سوى كتب جاءته كتبرّعاتٍ من غريبٍ للسُّجناء، بهدف إصلاحهم، وكان أوّلُ ما لفت انتباهه مُؤلَّفاتُ كاتبٍ يُدعى إيميل فارُوبيك.

❊ ❊ ❊

اسمٌ مُستعار

تصرَّمت الشُّهورِ، وصار الموسمُ شِتاءً. إنَّه شهرُ يناير الآن، وهذا جوٌّ عَليل يريح الصدر. الحرارة خفيضة تلطِّفُ الحركة الدَّؤوبة للمواطنين في مدينة المكلا الساحِليَّة، والوسط العامُّ في شُغْلٍ عن خَبَرِ حبسِ رجلٍ مجهُولٍ حتَّى لجيرانه أو روَّاد الجامِعين الكبيرين. ثمَّة رَجُلان فقط اهتمَّا بحالِ هذه القضية، هما ياسين عَبْدِالحكيم ولَبِيد المفتِّش. وقد تواعَدَا لِأجل تلك القضية؛ فقد كانا زميلا دراسة يثق أحدهما بالآخر. وكان ياسين عَبْدالحكيم يستأثر اهتمامُهُ بقضايا مساجين المخدرات والكحول والمواد المشؤومة، وقد عَيَّرَها بوصفها ترسُّباتِ المجتمع المحتَّمِ وجودُها...

كان الليلُ قد استقوى وشدَّ أوتاد خيمته الظلماء ونشر رياحًا باردة صدرت من أجواف الوِديان في الضواحي اكتنفت أسواق المدينة، فارتعدت فرائص ياسين عَبْدِالحكيم، وقرَّ مكتبه وهو يرتِّب أوراق الشغل ومظانّه، وانتهى منها على عجل، فصكَّ وجه الباب خلفه وأغلقه بالمفتاح، وخرج من عمارة النقابة يغذُّ خُطاه إلى ناحيةٍ فيها تغيير كبير لم يألفه قطُّ في حياته، بل ولم يتوقَّعه مرَّةً. كانت وجهته هي أمسية أدبية تقامُ في قاعة أدباء وكتَّاب الجنوب خلف مطعم العقبة الخاصِّ بالرجل الحضرمي أنس هادي. وهذا مطعم أشهر من المركز الأدبيّ بأشواط، فكم له من أعوامٍ وهو يبرُقُ بكعبٍ عالٍ يَحُطُّ فيه الرِّحال لإشباع البطون الجوعى وأهل المدينة أنفسَهم.

ومطبخ المطعم يضـجُّ بقلقلة المقالي وطرطشـة الطُسُـوت بزيوتها وغليانها، والرجل هناك ينادي فيجيبه المنادى بحيوية تبثُّ في الزبائن حياةً ورعشـةً مألوفة وسط هذا البردِ الفائح من أفواه البلد. كانت الساعة تشير إلى السابعة ونصـف، وكان مسـجد الجامع قد أغلق أبوابه، وانتهى العاملون من غسـل الحمامات والميضـأة، وانتعش السـوق مع هذا الليل الساجي الطويل. ألفى ياسـين طوال مشـيه نحو الملتقى في نفسـه جوعًا وعطشًـا، وارتأ أن يتناول وجبة خفيفة في مطعم بن ذياب المطلِّ على الشـارع الأول والمحاطِ من كل الجهات بباعة المقالي والشبس والسندويشات والوجبات السريعة المسيلة للعاب، فنَزَلَ بِه. كان المطعم عبارة عن غرفتين متصلتين، مع عُلِّيَّةٍ للعَامِلين، تُغطَّى وَاجِهَتُهُ بـأبوابٍ من قوارير، تلتمعُ بمعيَّةِ أضـواء المسـاءِ اللامعة الرقيقة، وفي ركن المدخل الأيمن، يقبَعُ الكاشـير والمحاسِـب خلفه. تقدَّم منه ياسين وأشار إليه بطلبه: شطيرة شاورما وعصير حليب بالموز المثلَّج. أعطاه الإيصال، ومن فوره سلَّمهُ إلى الجرسون، واتَّخذ له مكانًا في الجانب الآخر من المطعم حيث الطاولات عامِدة والمقاعد منصـوبة. كان ياسـين عبْدالحَكيم يَهمُّه أمرٌ ما، وهذا هو بعينه ما حفَّزَهُ للذهاب إلى ندوة أدبية عنوانُها: "الفقر والتهميش واللامبالاة الاجتماعية بحياة الفرد والاسـتغناء عن خدماته". وكان كتاب "الموت القريب" لِإيميل من نماذج المناقشـة، وهو كتاب اشتهر وانتشر بين الأوساط الأدبية في المجتمع الحضرمي.

تناجى ياسين مع نفسه: "عليَّ فعل شيءٍ لأجله، إنهم قد نسوا قضيته

بالفعل، وهو قابع في ظلمات السجن منذ أشهر... لن يكون صوتي مسموعًا إلَّا إذا جهَرْت بالحقيقة، ولكن هل حقًّا عليهم أن يعرفوا من أنا؟ هَبْ أنني أخبرتهم في النهاية، فهل سيصدِّقون ببساطةٍ أنَّني إيميل فارُوبيك بعينه؟". لم يكن إيميل فاروبيك إلَّا اسمًا مُستعارًا جذَّابًا وأنيْقًا اتخذَهُ ياسين عبْدِالحكيم لمشـواره الأدبي الحديث، وقد أفلح في بُغيته بأن يزدهر اسـمه هذا في الأوساط الأدبية المحلية والعالمية. فازَ قبل شهرٍ من الآن بالجائزة العالمية للرواية العربية، لروايته الحديثة والموسومة بـ "صراخ الفقير"، ونوى ياسين عَبْدالحكيم أنْ يكون الأثر أكبر بارتقائِهِ إلى مصـافِّ الأدباء البارزين جدًّا. فنال مراده دون أن يظهر على الشـاشـة ولو لِمرَّة. وصـار نجمًا للمكدودين والقانطين من الحياة وتسـريةً للمعدمين الفقراء، فقد صـار لهم صـوتٌ مسـموع يصـيح لِأجلهم. ومع قرب الثامنة، أولَمَ ياسـين وفضّ أكياس شـطيرته، وقام بابتلاعها على عجالَةٍ والهَمُّ حول رأسـه يحوم. ولمَّا خلَصَ من الطعام وغسل يديه في حوض الغسول المنزوي بجانب المشرب وتحتَ سُلَّمِ العُلّيَّةِ الخشبي المحفوف بشباك العنكبوت في شكلٍ غريب ينمُّ عن قِدَمِ المطعم، غادر الكاتب الكبير في هدوء بعيدًا عن لفت الأنظار، وراح لا يلوي على شيء سوى الأمسية الأدبية المرتقبة.

قطعَ لهاة السوق المنحنية، وتجاوز الجموع البشرية، وغاصَ في السوق وذهنه صـافٍ يركِّز فقط على بلوغ هدفه، ومرَّ بلغط الباعة وجلبة الناس دون أن يعيرهم شأنًا. كانت حياة ياسين عبْدِالحكيم مريعة، قضَّت مضجعه ونأت

بجنبه حتَّى بَلَغَت أوقات قيلولته المحدودة، وقد رسم حياته كلَّها في جملة له في كتابه «صراخ الفقير» بأن قال: **"راجعٌ من البلوى والتعاسة، إلى أين؟ لا أعلم. ليس لي مكانٌ آوي إليه بعد اليوم، فقدتُ الإيمان بسببها. كانت أنثى مجنونة، أفقدتني صوابي، لم يكن فَقْري بمصيبة بمقدار ما كانت هي كذلك"**. عانى ياسين من زوجته الأمرَّين، وكان طلاقهما ليس بالمستغرب، إنَّما تأخُّره واستبطاؤه كانا أشدَّ غرابة.

الحقَّ يُقال: لم تكن حياة ياسين عبْدِالحَكيم العامل أو إيميل فارُوبيك الكاتب بالحياةِ الهانئة السعيدة بتاتًا؛ بل إنَّ معظمها تمثَّلَ له كالعَذَاب الزاحِف كحلزون. كان مع زوجته الطالِق- وهذا اصطِلاح قاسٍ وعادِل- في صراعٍ شَرس، وكان في قُمقُمِ نفسه يودُّ فضَّ ذلك النزاع بتفاهم وسِلْم، لكنَّ الطرف الآخر كان يؤلِّب قُواهُ عليه كافَّة، ويحشُدُ الكلمات النابية والمنفِّرة والشكاوى والنِّكات التهكُّمية في كلِّ أصيلٍ وأمسية. كانت تُدعى لَجِين، وكم لاسمها من انعكاس على طباعها ومذاق أفعالها. إنَّ لها بشرة صفراء، وشعر مربوط إلى جديلة طويلة على مَدِّ ظهرها وحتَّى عُصْعُصِها، مِن ثَمَّ تَصوَّرَهَا كأُنثى مُمتلئةَ الأردَافِ كاعِبة، وَحشيَّةَ الطبع، حادَّةَ النغمة، شَامِخَةَ القامَةِ لَا تهدأ ولا تنام إلَّا بعد أنْ تجعل الدار قَائِمَةً بِأوتَادِ تبرُّمِها. قالت لياسين ذات مرة بأنَّ أمّها نادمة على تزويجها منه، وأنّها لا تراه الرجل المنشود. وكانت أبرز مشكلات ياسين معها هي تشكِّيها من حاله وعدم قدرته على عِلاج ابنتهما. وابنتهما ماتت من المرض الخبيث. فكان قضاءً

محتَّمًا. لكن خلال مراحل المرض، ظنَّ ياسين أنَّه لن يقدر على فعل الكثير لهما، وشاخَ شعره الرهيف وهو آيسٌ من زوجته، حتَّى أنَّها منعته من إتيانها ووضعت حدودًا كيما يسترجل ويؤمِّنْ لابنتها عِلاجًا ما بقدرةٍ ما كونه رجل قوّام، بل ومن قبل تشخيص العلاج، كانت ساديَّة سليطة اللسان، تعشق أن تؤذي به الآخرين، ولا تشعر بالقوة والهيمنة إلا بلفحِ زوجها بلسانها الملتوي كحَنَش في أدغال إفريقية. كانت من تينك النساء اللائي يظنَّ الزواجَ ساحة معركة تدارُ رحاها بين الرجل وخليلته أيُّهم يستحوذ على الآخر، فما لبثت أن تطلَّقت، وعادت إلى بيت أبيها، متحسِّرةً لا من شيءٍ سوى فقدانها الشخص الذي اعتادت مناكدته وتفريغ نقمتها فيه. وليس ياسين بأقلَّ حالٍ منها؛ فهو في توعُّكٍ دائم تمخَّض من شقوق هذا العداء المَرَضي. وياسين رجلٌ يعيل صبره قد يئس من صلاح زوجِهِ فأبى الاستمرار في هذه الحلقة المفرغة، وصاحَ بالثلاث.

حصل هذا بعد وفاة ابنتهما، وقد حوصر العنصر الأخير الذي يبقيهما معًا، نعم وفعلًا، كان ذلك حصارًا ممضًّا عاتيًا، لم يقبله ياسين، ولم تُرِدْ لَجِين بإفراغه على ياسين طلاقًا أو نشوزًا، إنما هي تحبُّ مكايدته ومناكدته وإعمال نارِ غضبه. كانت ساديَّة عابثة، تحبُّ زوجها وهو غاضبٌ منحلُّ رباط الجأش، تشعر بأنها إذا أغضبته، سيطرت عليه وكلبشته. عاشا معًا إحدى عشرة سنة، وهذا عمر ابنتهما منذ الحمل البدئي. وتتاركا على كلِّ شيء، فقد أفسدَ طُول التمادي.

رثَى ابنته بكلّ شُـجُون أدبه، وظلَّ يسـامِرُ ظِلَّها وخيالها الرقيق، يقطِّعه الأسف لما كان، وهل كان بالإمكان أفضلُ مما كان؟ لا يدري. لكنَّه يشكّ.

واصـلَ مضـيَّهُ إلى قاعة الندوة، والهرولة تسـحبه إلى موعده، ولمَّا شارف على الدخول، مقابلَ بابَ القاعة، تناجى مع نفسه يقول لها ويسائلها:

"من الخطير بمكـان أن أخبر النـاس أنني إيميـل فـارُوبيـك، ولكنني أستطيع أن أكون الصـوت البارز له، لأني أَعْرَفُ الناس به، بل لأنّي هو! عليَّ فقط اسـتعمال معرفتي العميقة بإيميل فاروبيك واتَّخاذها مِنصَّـةً أبوح عليها بكلِّ الحق وبكلِّ الآلام، ولكن لمَ كلُّ هذه الحماسـة؟ ليس وكأنَّ الكلام هو من سيزيل الأكبال عن يديه. إنني لا أفهم!"

ثمَّ هزَّ رأسـه، وصـفقه بكفّ، ليثب على الباب بخطوة كبيرة، وفي تلك اللحظة، انكمش صـدر ياسـين عَبْدِالحَكيم، وانقبضـت جوانحه، وأحدق عيناه في الأرض المبلَّطة، وكانت الإنارة قويَّةً، فلم يجرؤ على النظر مليًّا في الحاضـرين، لكنَّه لمحهم فقط، وكوَّن فِكرَةً عنهم: خمس بنات يبدون في شـرخ شـبابهن، واحدةٌ فقط تلبس الخمر، تبدو متزوجة وربة منزل وعليها آثار الحكمة وسـمت حفظة القرآن، وتسـعة رجال، منهم ثلاثة شبّان حديثي السـن، والبقية يناهزون الأربعين من أعمارهم، لهم هالة الأدباء والمفكّرين، وشيئًا من هَيبة العالِمين، لكن بهم خيلاء واضحة وغرور تلتمسه من صمتهم وتقبّض أذرعهم وذلـك التلفُّـت والتبسُّـم الـدائبين في أنحـاء القـاعـة وعلى المجاورين.

اتَّخذَ مِقعدًا ليجلس عليه في الخلف، كان قلبه يخفق في صدره، يقاسي ضجيجه وحده، ويعمَدُ إلى إسكاته بتنفّس عميق. بدأت الندوة، وعرضت المشكلات، وشرع الحاضرون بالنقاش. منهم من يعترض، ومنهم من يفصِّل. والبقية سكوت... كان الأستاذ الكبير عَبْدِالقادر عيسى حاضرًا يُسهِمُ بفاعليَّةٍ في محاور الأمسية، وصوته المتواضع الخجل يضفي عليه وقارًا وسماحةً وقبولًا لدى الحضور، وما إن تسمع نبرته، في مستهلِّ كلامه، يشدُّكَ الرقي واللطف وحرارة النبرة إليه لتنصت مُغتبطًا راضيًا. اعتقد ياسين أنَّ الأستاذ لو كان قارئًا للكتب لَأحبَّه آلاف الناس من فرط دفء وحنان حباله الصوتية. وجرى الحوار، وتناقشوا في قضية عدم كفاءة الفرد في المجتمع، واستغناء الناس عن الشباب الذين لا فائدة منهم في الإسهام الاجتماعي، وبرزت فتاة ما في هذا السياق لفتت بكل ما لها من شيء انتباه ياسين واهتمامه. وكان شابٌّ ظريفٌ ومُشوِّقٌ حيوي، قد قاطع النقاش وقال بنبرةٍ واثقة حازمة:

- إنَّ إيميل قد فضَحَ ذلك النوع من الأغرار، وأخبرنا بوضوح حيث كتب: "السفهاء هم وحدهم من سيصدقون الحُكَّام"! ولا أجدني أحفظ له كلامًا أستشهد به في مكاننا هذا خيرًا من قوله: "المجتمع كِذبة التطوُّر، وكلُّ أنظمة المجتمع العالمية جاءت لتخدُمَ الساسة والطبقة الرفيعة، وتلغي التفاوت، وتحجّم الطبقية، وترفع من مستوى الفقر." المجتمع آفة، إنها النكتة الأشد سخافة لمن يعقلون!

كان فتى وسيمًا، يرتدي معطفًا أزرقَ أنيقًا، وله بشرة صافية كالبوظة، وابتسامته تشرح الصدر وتفرح الرضيع، وله شعر أسيل سبط، مترامٍ على غرته، فخم للغاية، وهيئته كلها تجعله محط إعجاب الناس وتملُّقهم. ولكنَّ الفتاة هنا عارضته بشيءٍ من الحدَّة، ولكن مع كثيرٍ من الحُجَج:

- كلَّا، اسمح لي! المعذرة، لم أعرِّف بنفسي، اسمي صفاء. أنا أشاركك وجهة نظر إيميل في المجتمع، ولكنكما باعتقادي مخطئان في أمرٍ واحد: المجتمع جاء من حاجتنا إلى النظام، والمجتمع رغبة من الناس في توحيد قواهم، إيماننا بالمجتمع يرتبط بالتاريخ والحضارة والهُوية والرغبة في تسخير قوانا لكيان يعنينا ويمثِّلنا، ولا ينكرنا لأننا من طبقة الخدم أو العبيد أو السادة أو غيره! هذه المعاني كانت أساسية في بداية المجتمعات، وكان الفقير تاج المجتمع، يُعنى بحاله، ويُهتمُّ لشأنه، وكلُّ الهموم تنصبُّ لحلِّ معضلته! أما الآن، فلم تعد المجتمعية قانونًا حاضرًا فضلًا عن أن تكون رغبة في قلوب الناس... صَاروا متوحِّشين، بقلوب مسودّة، وآذان وقرة، نعم! واسمحوا لي بالقول، لقد بِتنا أنانيين همجيين! والله! هذا حق! ثم.. ثمَّ إنَّ... أقصد...

تأتأت الفتاة فجأة وحَصُرَ لسانها، وبعد لحظةٍ، فَهِمَ ياسين ماذا بها. وقف فجأة، ونظر إلى الفتاة بعمق وإخاء، وشرع يقول:

- الأخت صفاء على صواب، إنها محقَّة في كل كلمة.

وقلَّب نظره في الحضور، فكانوا صامتين مترقّبين:

- قال إيميل، كما تعلمون، بأنَّ "المجتمع كِذبة" ولكنَّه أقْصَـرَ عن الحقيقة التامة. حياتنا لم تكن إلا بفضـل المجتمع، والتكاتف هو سـمة أوَّلية فينا، هذا إن كنَّا نودُّ تطبيق مفاهيم المجتمع الحقَّة. وفي مكان آخر، فسَّر إيميل نظرته التشاؤمية فقال: "الفقير صار مَقصيًّا، لا يعني المجتمع، وصـار مُدانًا، وعليه الحجَّة إذا ما اسـتجدى في الشـوارع والطرقات ودور العبادة!" أليس هذا ما يحدث اليوم؟ لقـد داس النـاس على كرامـة الفقراء، واحتقروا السـائلين والمساكين، بل وكذَّبوهم وسفَّهوهم، حتَّى أمسى الفقر أسوأ من الرذيلـة، وأقبحَ من الخطيئـة. أيمكنكم تـذكُّر كلمـات الأديـب الروسـي الكبير فيودور دوسـتويفسـكي، حيث قال، على لسـان شـخصـيةِ (مارميلادوف) في روايته الكبرى "الجريمة والعقاب": "ليس الفقر رذيلة، ولكنَّ البؤس رذيلة، فلا يسـتطيع أحدٌ فيه أن يحافظ على نبل عواطفه!" ونحن في مجتمعنا قد قلبنا الموازين، وجعلنا من الفقر بؤسًـا يشـتدُّ بصـاحبه حتى يرديه في براثن الخطأ والزلل... أنا حقًّا، أدعم كلامها.. لقد أثَّرت فيَّ.

ونظر ياسـين في عيني الفتاة بشـيءٍ من الرحمة والمعانقة الروحية، وأكمل يقول ونبرته محزونة كاسفة:

- هـذا ليس مكـانًـا للتـأنق والتبختر، إننـا نحمـل همَّ هـذه الأمَّـة

وتطلُّعاتها، ولكن لا تنسُوا أولئك المُعدَمين المرتجفين أمام جبروت الحياة الجديدة المختالة، أولئك الذين نحسبهم أغنياء من التعفف، ولكننا لا نعرفهم بسيماهم، بل ننكرهم، وندوس على حقوقهم، ونستكثر عليهم صدقة الرحمة ناهيكم عن صدقة المال والعطاء! نحتاجُ إلى مَن يقفُ مع الفقراء وقفة مؤازرة فخورة، بلا شفقةٍ تهزُّ الكرامة ولا تكلُّفٍ يهين البراءة ولا نَهْرٍ للمساكين!

ظلّ الحضور في صمت، حتى عاد الفتى الوسيم يقول بصوت رخيم:

- نعم، صحيح.. أُعرِّفُكُم بنفسي، أنا خالد فهد، طالبُ صحافة وإعلام. أنت محقّ يا سيد...

كان ياسين لا يزال واقفًا متجمِّدًا. وأجابه بنبرة مخنوقة:

- ياسين عبْدالحكيم.

- نعم، أنت محق يا سيد ياسين... أنا عملتُ في قناة حضرموت، ووجدت فيها تحيُّزًا لجانب الرفاهيات والتراث والبرامج الثقافية الفضفاضة، وكان كل ما رأيته محض أوهام، لا يضيف للواقع شيئًا! قضايا أمتنا الحقّة مغيَّبة، وإنَّما أيديولوجية إيميل يمَّمت نحو الاعتقاد بانحلال النظم الاجتماعية والسماح للفرد بالتمرُّد وتبرير الجريمة المنظمة والجريمة الناتجة عن فقر مدقع! هذا التغريض واقعي تمامًا ولا ينتهي عند هذا الحد، ففي المكلا، تحدث

الجرائم ولا يكترث لها أحد إلا بمقدار فضوله المحض! قد سمعتم عن شخصية تُدعى "دامين وولف"، في رواية إيميل "الموت القريب"، ذلك الرجل الذي قتل زوجته حرقًا، وقد قال للبطل بعد محاكمات كثيرة لم تصل بالنصل إلى عنقه: **"لقد كنتُ شريرًا لكنَّ المجتمع سامحني!"** وهذا إسقاط نجده في قضية برزت في مجتمعنا، ولم نحرّك لها شِبْرًا!

كان خالد فهد متعصَّبًا لأعمال إيميل فاروبيك، ويرى فيها صدقًا ملموسًا لما في جوانب حياة المجتمع. إنَّ فيما يقرأُ له من مؤلَّفاتٍ رُوحًا ثَائرة ترفُضُ التَّهميش والأنانية والعادات الطباعيّة النائية عن روح الجماعة وحقوقها، مع فقدان للإيمان بالحياة الحالية ومحاولة التمرّد عليها، كما يمكن رؤية ذلك في شخصية (دامين وولف)، فإنَّه قد سفح دم خليلته، وهكذا هي القصَّة:

كانت الزوجة ترفض أعمال زوجها، تراها غير شرعية، وتَصِمُ سلوكه معها، فهو يتاجر بالمخدِّرات والحشيش، يتملَّق التجّار، ويداهن الرؤوس الكبيرة هناك. كانت تنظر إليه بقرف وهو بنصف عقله، وفي ليلة ما، صرخت في وجهه، وكلها الفزع والاحتقان:

- لن أسلِّمكَ نفسي! أنتَ عاهة!
- الزمي أخلاقك يا امرأة!
- أنتَ كريه، كيف لكَ أن تخونني!

كانت وســاوس وهواجس غريبة تجول بذهن الزوجة، حتَّى ظنَّت أنَّ (دامين) خائن، وأنَّه نام مع امرأة أخرى.

لكنَّه نافح عن نفسه، فقال ولسانه يذود عنه:

- لســتُ كما تتصــورين يا غبية، هل شــربتِ شــيئًا أذهب بعقلك؟ أخبرتك، ولكنك لا تنصـتين، إنني كنتُ أبيتُ في منزل شـريكي في العمل، ونتسـامرُ لنرى كيف سـتربو أرباحنا.. كله لأجل عائلاتنا يا حمقاء! لأجلكم!

وشــبَّت نار العداء بين الزوجين، وبعد أن محضــته ثقتها في ســالف الزمان، ها هي تُبدي له العداوة والتطيُّر. فبدأ هو في الشكّ فيها أيضًا، وشعر بأنه يودّ لو تخونه، ولســان حال (دامين) يقولُ لها غضـبانَ مهتاجٍ: "ســترين من أنا!" وبعد ليلتين، وُجدت جثّة الزوجة في فناء الدار، محروقة مرذولة، بعد أن صــبَّ (دامين) عليها الوقود، وأوقد النيران عليها، وزعقت أمامه تســتغيث به، وهو حارقُها، تناجيه أن يرحمها ويرأف بحالها، لكنَّه مخدَّر منتشٍ لا يحسُّ بشيءٍ إزاءها. هل كان خائنًا؟ هل غَدَرَ بأهله؟ وهل الجريمة نجمت عن شــرٍّ تجذَّر في قلبِ (دامين)؟ لم يوضِّــح إيميل ذلك. اكتفى فقط بأن قال في نهاية قصــتهما: "والتهمت النيران ربَّة المنزل، كأنَّها زبالة حقيرة، بينما وقف الزوج يناظر بازدراء وبرود، كأنَّهُ صَنَمٌ من عاج. وانطوت القضية، وبعد شهور في السجن، نجا الرجل من أنياب القصاص." ولكن كيف؟ هذا ما حيَّرَ خالد فهد، وجعله يتقلَّبُ في فراشــه ذات ليلة متعصِّــبًا. ثمَّ ها هو

يستأنف كلامه بأن قال:

- الجريمة غيرُ مستغربٍ حضورُها في المدينة.

عاضد ياسين كلمات خالد فهد وأضاف لها:

- والمُجرم حُرٌّ طليق، لا يجد من الرقابة والتربُّص ما يمنعه ولا ما يخيفه.

وبشيءٍ من تضرُّعٍ وغوث، استجدت صفاء:

- ولكن هل سنتركهم لوحدهم، مع هذه الظروف القاسية، يسلكون سبيل الإجرام دون منقذ ولا حل!

تدخَّل رجل آخر أكبر سنًّا بصوتٍ مفخَّم:

- ليس بيدنا حيلولة دون ذلك، إنْ أردنا جعل كلِّ الأيدي في المجتمع ذات مساهمةٍ وعطاء فعلينا أوَّلًا تعليمهم جميع الآداب والأعمال، وعلينا أيضًا إيقاف المنظمات ذات البعد الإجرامي.

جمع خالد فهد قبضته ووكز بها الطاولة وقال بنبرة ساخطة:

- أهكذا تقول؟ ليس هذا بالعملي!
- إلام تشير إذن يا أستاذ خالد؟
- لست أستاذًا وكفاك تهكمًا! إني أشعر بهم، أولئك المظلومين الصغار، نجدهم بأحلام كبيرة، لا تقدر صدورهم على احتوائها واحتمالها، فتنفجر من أيديهم بمقارفة الجريمة، لأنَّ المجتمع لم يمكِّنهم من شيء في مجرى قواهم، لم يبذل لهم حقوقهم

كمواطنين مساهمين. عاشوا بيننا بلا سياق واضح، إننا لم نعطهم الفرصة، فإذا بهم بين ليلة وضحاها، يقارفون جُرمًا... كنوعٍ من الردّ علينا، كتمرّد إزاء الشر الذي يرونه منا، بلا حيلة...

وعندئذ، انسلَّ صوت ياسين عبْدِالحَكيم بشيءٍ من الأسى، وهو يقرأ اقتباسًا:

- "البائس الفقير! إنه غارقٌ في إثمٍ لم يقترفه بمحض إرادته"... نعم، إنّني لا ألومه أبدًا، ولا يمكنني أن أسمح بلومه.
- بالضبط!

وأخذ نفسًا عميقًا، كأنما كان يسابق الحياة. وجد ياسين مَن يفهم كلماته جيِّدًا ويُسقطُها على الواقع الحي. أمَّا صفاء فكانت ندًّا لنواقص كتاباته، وهي بدورها لم تستأثر بالسكوت ملتحدًا، فأبت وقالت:

- كلَّا! لن نتركهم يصلون للجريمة، لا يمكن هذا! ليس معقولًا. سيكون الوقت متأخّرًا!

وإذا بالأستاذ عَبْدالقادر عيسى يقوم بفضِّ الجلسة، لأنَّ الساعتين كانتا قد استنفدتا. وكانت مُهجَةُ صفاءٍ لم تنل مغزاها بعد، فاتَّجهت إلى ياسين تمشي الهوادة على استحياء، وسلَّمت عليه بصوتها المحزون، ثمَّ قالت:

- على ذكر ذلك الاقتباس، لديَّ مشكلة.
- تفضلي، ما هي؟

قال (إيميل)، ثمَّ جذب كرسيًّا وأجلسها.

- أخي، اسمه أصيل. نحن في الحقيقة... كنا فقراء... ولا زلنا. إنما كنا في الماضي... بعد وفاة أبينا... كنا مدينين، ومتعَبين... فتسوَّلنا كعائلة. خرجنا ذات ليلة، أنا وأصيل وأمي وأختي الكبيرة، وجلسنا بجانب باب مسجد... في هيئة شبه ميتة، مرهقة، محطمة... بل كنَّا مدمَّرين نفسيًا. أختي الكبيرة كانت مشدوهة، فارغة اللب، لم تستوعب ما جرى لنا، فسرعان ما فقدت رشدها، أمَّا أخي فكان منذ فتوَّته عنيفًا وعصبيًا. إنَّه الآن... الآن...

انكتمت صفاء وصُدّت جوابًا، كأنَّ جبلًا أغردًا قد سدَّ فاهها. كانت القاعة من حولهما تقذف المثقفين. وفي لحظة الصمت الوجيزة تلك، اهتزَّت صفاء باكيةً.

- ما بك؟ لا بأس، هاكِ ماءً!

اضطرب ياسين، وشربت وهي ترتجُّ كطفلٍ بين يدي والده؛ ينتحبُ بمرارة بعد أن آذوه أطفال الحي وضربوه.

عادت صفاء لتكمل حكايتها بعد أن تماسكت:

- أصيل الآن... مع عصابة... مشهورة بالفساد والاتِّجار بالحبوب والشبو وما إلى ذلك... لقد تزوَّج، ولديه صبية في المهد، لكنَّه يطعم أهله حرامًا يا ياسين! هو ما زال صغيرًا ليفهم كل ذلك... بل ما يزال طفلًا عنيدًا لا يستأهل الزواج! ولكن... هذا ما قاله لأمِّي: "سأتزوَّج، معي المال، وأريد الجنس، لن تدعوني أهرع إلى

الحرام أم أنَّكم كذلك؟" فوافقت أمي مبهوتة، وحصلت له على فتاة من طبقتنا. إنما أمي... لا، لا عليك... أنا فقط أريد إنقاذه! أنا متأكدة أنَّك تفهمني، فأنت... لا أعلم كيف أصف ذلك. كأنَّك إيميل عينه! وأنا متأثِّرة به. بل وأحببته بشكل غريب ومضحك! كنتُ محطَّمة في فترات عدة من حياتي، وكلُّ شيءٍ آذاني، لا أنساه، لم أقدر على نسيانه. وإنَّ أكثر ما آلمني هو إشاعة أنَّ شقيقي الأصغر، ذا العشرين عامًا، مجرم يسترزق حرامًا! آه! لم يكن ذلك مستغربًا، ولكنني لم أتقبَّله. لو أمسكوا به، فسنهلك يا ياسين! لن نستطيع الوقوف ثانيةً!

واهتاجت من جديد وأجهشت باكيةً حيرى كأنَّ غمَّها لَتتفطَّرُ منه الجبال. كانت بعبايتها الواسعة وخمارها المغبرِّ بعض الشيء، تهتزُّ بخفوت. ولمَّا أحسَّ ياسين منها اليأس وفراغ اليد من الحيلة، قال لها:

- سأساعدك، إنني مهتمٌّ بهذه العصابة في الأصل.

رفعت رأسها تبحلق في دَهشة، ونطقت غير مصدِّقة بنبرة ذاهلة غير واعية بطيئة:

- أنت ماذا... حقًّا؟ ستفعل؟

- سأكون معك، لذا لا تخافي. في الحقيقة، ثمَّة رجلٌ مسجون منذ مدَّة، بسبب تهمة تعرَّضَ لها زُورًا وبهتانًا. لقد تمَّ التلاعب به، أنا واثقٌ من ذلك. والآذان تسمع الشائعات، ومجملها يقول إن

أعمال العصابة ازدهرت خلال الأشهر القليلة الماضية، بل وقد استحوذوا على سوق القات في منطقة الديس.

- إي والله صدقت! قد كان أصيل يتردَّدُ على ذلك المكان في الأسابيع الماضية!

صفَقَ ياسين عَبْدِالحكيم يدًا بِيَدٍ، وزمَّ شفتيه، وأخذ يَجُولُ بناظريه في القاعة، فوجد عيني خالد فهد تحدقان فيه، وألفى القاعة فارغة إلا منهما ومن المسؤول، فأحسُّوا بأنَّ عليهم المغادرة، فخرجوا على عجلةٍ، وانتصبوا بقاماتهم أمام المدخل حيث الإضاءة باهتة خضراء، والزقاق الذي ينتهي عند مطعم العقبة ينحدر من تحتهم ويلتمع بنوَّاسة المطعم الثلجية، وتقاطيع بلاطه الموشّى بلون الزيت تبرُزُ خضراءَ حادَّة، وكان الجوُّ كأنما استطاع إيقاف الزمن، وتلك لحظات خاطفة أخذت بتلابيب نفوس الأفراد الثلاثة وجعلتهم يقشعرُّون كما لو كانوا في حضرة جنازة تحمل على الأكتاف في إجلالِ وخَرَسٍ حادّ. إنَّما خالد فهد هو من قطع دابر اللحظات القارسة تلك، وكان يشعر بأنه فضولي لا مكان له، فأبى إلا أن يتَّخذ له موضعًا بينهما، ليقول وهو يفرِك يداه:

- أتعلم؟ أحبُّ قوَّةَ إحاطتك لِكتابات إيميل!

- آها... نعم إنه جيد.

- بل ممتاز! كم مرة سألت نفسي أين يعيش رأسه العبقري؟ وعلى فكرة، في مؤلفه "الموت القريب"، تعجَّبت من دعمه لفكرة هدم

الحياة والبحث عن ملاذ تَلُذُّ له الأنفس كالموت بعد تحقيق معنى الوجودِ في هذه الدنيا! إنَّ لوجودنا معنًى إنْ لَم نحققه فسوف نهلك خائبين. وفي الإسلام يتجلَّى هذا المعنى بصفة جماعية، أميَّة، بتوحيد الله وعبادته، وهذا هو الحق، أليس كذلك؟ لكنَّ إيميل، يضيف شيئًا جديدًا لهذا المعنى، ألا وهو التمكين والتحقيق للشعرة الرفيعة التي تقبع في نفس كل بشري، حيث لا شيء يضيع هباءً في الدنيا الصغيرة، وهو يخبرك بحقيقة الدنيا العبثية، مع الترغيب في تحقيق المعنى من إضافة الله لكَ فيها! وهل تعلم؟ إنَّ المعنى من حياة شخصية دامين وولف تلك هو قتله لزوجته، كما كان المعنى من وجود قابيل هو قتله لشقيقه هابيل. ذلك كان التجلِّي النهائي لوجوديته وشخصيته في هذه الدنيا! إنني أشجِّعُ على عدم رفض الرغبات المكبوتة، وتحريرها ليستقيم المعنى ويتَّضِح!

- فهمتك، هكذا تكلَّم إيميل.

- نعم، ولكن...

نظر خالد فهد إلى الفتاة، وأحسَّ منها بانزعاج وعدم رغبة في وجوده، فارتقى بنفسه، ونفخ صدره، وقال:

- على أية حال، يبدو الموت للإنسان حكمًا عادِلًا يخلِّصه من همومِ الأحلام والأوهام، ويقضي على أفراحه ومآسيه على حدٍّ سواء..

وهذا ممَّا أعجبني في كلامك يا إيميل. نعم، أنت هو إيميل بعينه!

ارتبك ياسين عبْدِالحكيم، وغاب صوته، ولم يدرِ ما عساه يقول، حتَّى انزلقت ضحكة عالية من فمِ خالد فهد يسخر من ردة الفعل الصادمة والمُتَيَبِّسة من ياسين.

- أفزعتُك؟ لماذا؟!
- يبدو أمرًا مثيرًا للجدال...
- ربما، ولكنَّه كافر، وأنت مؤمن، فما الخطب؟

أبدى ياسين عَبْدالحَكيم غضبًا طفيفًا قابضًا ليده.

- وما يدريك أنَّه لا يؤمن بالله؟

قهقه خالد فهد وتبسَّم، وطفق يردُّ، وصفاء كالصنم الأخرس بينهما:

– رجلٌ أوروبي، ماذا تتوقَّع؟

تشهَّق ياسين، وأجاب بطول نفس وتمدد حروف:

- هذه كلمة كبيرة، قد تكون بهتان إن لم يكن لديك برهان... لا أشجِّعُك على المضيّ في رأيك هذا.
- حسنًا. لا يهم. بيت القصيد هو أنَّ للموتِ لَذَّةُ ننشدُها نحن بنو آدم! وإنَّ أوَّل شقيقانِ في تأريخ الإنسانية قد همَّ أحدهم بالاقتتال طلبًا للحياة والارتواء، ورفض الآخر بسطَ يده طلبًا للموت والفناء! ألا ترى؟ ألا ترى؟
- فهمت. كلامُك جميل، لكن هلَّا تعذرني يا خالد؟

- أوَّه! كم أنا آسف!

وغادر خالد وفي جوفه الكثير ليقوله. خطر في بال ياسين كم هو مخيف أن تملك جمهورًا فطنًا كهذا الفتى الحيوي، وكم أنَّ أفكاره تأخُذُ منحًى جادًّا قد يغيِّرُ من حياةِ فردٍّ ما إلى الأسوأ أوِ الأفضل بدرجةٍ سواء.

أكمل حواره مع صفاء، وحكى لها قصة عَبْدالغفور.

- هذه مُصيبة! وماذا سنفعل له؟
- لقد اتَّفقتُ مع المفتّش لَبيد عندما قابلته على اكتشاف المجرم الحقيقي من الداخل.

فزعت صفاء ونكصت خطوتين إلى وراء.

- أتقصد الوشاية بأخي؟ ويحك!
- كلا! نستطيع فقط مراقبته.
- وبعدين؟ أظنك لم تفهم بُغيتي بعد.
- بلى، أنتِ تريدين إنقاذَ أخاكِ من أوكار العصابة، حتَّى لا يُسجن ويذهب ريحه عنكم. سنتتبعه، وسنسرِّبُ إليه وإلى الشرطة معلومات، نخيف أخاك بها فيأخُذ حِذْره، ونلتمس بها تحفيزًا للشرطة بأن يُظهروا الحقيقة عَيانًا! وهكذا نُخرِجَ صاحبي عبدالغفُور من أقبية السجون.
- آها! حَسَنًا لك هَذَا... مع أنني لا أضمن لنا النجاح.
- سنحاول، علينا أن نحاول! **"على البشر أن يمضوا قُدُمًا لتحقيق**

معنى وجودهم"، كما قال إيميل. ولعلَّ إنقاذهما يحقِّق لَنَا شـيئًا مِنَ المعنى الوجودي... أو شيئًا من الخاتِمةِ السعيدة.

وتفاهما على ذلك، وتبادلا الأرقام، ثُمَّ افترقا. ومضـت الأيامُ حُبلى بالمفاجآت.

❊ ❊ ❊

طِفلٌ ومُجرم

هل يهتبِلُ الإنسان كلَّ فرصةٍ تلوح في حياته بما يفيده ويضعه في المكان الذي يرضيه ويليق به؟ هَبْ أنَّه يفعل، فهل سيصل إلى التجلِّي الأخير والأكمل لإنسانيته؟ إنَّ متغيرات الحياة تضع الناس على شفا جرف من التغيُّرِ، ولكن إلامَ سيتغيّرون؟ ما لم يُجبْ المرء على نفسه فلا معنى من التقعُّر في الجواب على أسئلة الآخرين. لكنَّ كُليبْ استطاع أن يجيب على نفسه مذ كان صغيرًا، وليس هذا كلامًا لِإثارة الجدال، فكليب نفسه يعترف بأنَّه قد توسَّمَ في نفسه تلك المعاني التي قد يصفها شخصٌ عاميٌّ أحادِيُّ النظرة بالضالَّة عن سواء السبيل؛ ففي الثامنة من عمره، أدرك أن وجوده في صف دراسي يضمّ ستين طالبًا لا يعني له شيئًا، واعتقد أنّ وجوده بلا معنى تمامًا، فقرر أن يُفصل، حيث ضرب أحد الطلاب حتى أفقده وعيه.

ارتقى عالم العصابات وعمره أربعة عشر خريفًا، وتنصّل من أحابيل الشرطة والأمن العام بسهولة، رغم المخاطر، أنشأ لنفسه اسمًا ذاعَ صيته في سماء سماسرة القات والمخدَّرَات في العامين الأخيرين. في صباه، تلقَّى معامَلَةً ظالمة، وعاش عِيشة بائسة، ولم يحب أحدًا سوى جدّه الأبكم. زجَّ به والده في عمله بالبناء، وأرغمه على مساعدته، كعقوبة على فصلِهِ من المدرسة، وفي العاشرة، قُتِلَ شقيقه، بطريقةٍ غريبة في مِنصة العُروض حيث وجدوه على رصيف الشاطئ ينزف من ثقوب في جسده. كان كليب يحُسُّ

بكلِّ تلك المشاعر الغاضبة والساخطة طوال سنين حياته، وكان يسعى فقط لإعمال هواه وإشباع نفسه الناقمة على الحياة، وكسب ما يريده بأريحية، حتى لو كان ذلك انتقامًا.

في نهاية سنته الثالثة عشر، مع بزوغ نجم الأصيل الساطع، سفح كليب دمًا لأوّل مرَّة في حياته، وكان ذلك في غرفة المعيشة في رَدهة البيت، بجانب الديوان المخرَّق، جثَّةٌ مرميةٌ على بطنها، مفلوقٌ رأسها، كانت تخصُّ والده. لا يعلم يقينًا ما الذي سوَّلت له نفسه كي يقتل والده، غيرَ أنَّ الوحدة التي عاشها بين أب متسلّط وأمٍّ معاتِبة، وموت جدِّه بسبب مرضه بالسُّل، قد أثقبا في كيان كليب إحساسًا بالنقص والغيرة، والتلاعب من العالم. نمت الكراهية صوب كل العالم في قلبه، وحقد في البداية على والده حقد العمى. أوعز والده مرارًا بأنَّ كلَّ ما يقاسيه إنَّما في سبيل مصلحته لينمو كرجلٍ شريف قوي. لكنَّه أبى الإيمان بكلامه، وكان يراه بلا شرفٍ أصلًا، معدوم القيمة؛ فضَّل اتِّباع نزعته كفتًى متهوِّر، فأعمَلَ طاقاته في سبيل تأجيج ناره، وساير (المقاوتة والموالعة)، مدمنو مضغ القات وشرب السيجار، وسمع لهذيانهم وحكاياتهم، وأطالَ معهم، حتَّى فهمَهم وتشرّب حياتهم، لكنّه لم يسعَ وراء تقليدهم، بل فضَّل أن يكونَ رئيسًا عليهم، ليتلاعب بعقولهم ويحقنها بالأوهام كما يحبُّون.

تعرُّضُه للحبس وهو لم يبلغ بعد جعَلَ منه شخصًا جلفًا متصلِّبًا، يسير على أحكامه الخاصة، لا ينقاد لرأي الغير، ويقسو في الحُكم عليهم بشدةٍ

متعمَّدة، ولا يأخذ بنصـيحة أحد حتى يثق بأنّه لا يمكن له أن يكون تهديدًا لوجوده. كان يمكثُ في الإصـلاحية وسـجن الأحداث الخاص بالنُّشَّء الضالِّين، ويستقيمَ لا في سبيل المصلحين، بل كمجرِمٍ توغَّل في مستنقعات الجريمة المنظَّمة. عقد صـداقات جديدة، وفهم أعمال ذلك العالم، وارتقى بمُهلٍ وثبات، حتى صار زعيمًا يُعتدُّ به في زعامةِ الأعمال المحظورة.

يديرُ كليب في الوقت الراهن تجارات، كتجارة الخمر العرقي، والفودكا كنوعٍ فاخر من خارج البلاد، وتجارة الشبو وشمَّة الحوت وتسيير عمل شاحنات القات القادمة من مزارع شمال اليمن. وإنما الأسوأ لم يظهر بعد؛ فإنَّه يترأسُ ماخُورًا سريًّا في مدينة المكلا، حيث يُؤمِنُ بأنَّ زَرْعَ هَذَا النَّوعِ مِنَ المفاسد، سيجعل معشر الشباب في قبضته، يَسُوسُهم أنَّى شَاء. مومسات العصابة يخالطن هذه الزمرة الشائعة من النسوة في المجتمع المسالم، والشريف.

كعوب مزيَّنة بالخلاخل ترنُّ وتقعقع، كواحل ظاهرة مكشوفة لعباءات قصيرة ضيِّقة تُحجِّمُ الصدور وتُبرِزُ القدود المُثيرة، براقع بالكاد تغطِّي الذقن والوجنتين، والكثير من مساحيق التجميل والروائح العطرة الفواحة، عُهر يفقَأُ العين، ومشي مهتزٌّ متماوت مختل، متواثب، وأصوات تذوب لها أكباد الرجال، أكتاف ناتئة منحوتة مع نحور مرسومة ونهود كاعبة مكنوزة، التأمل فيهن سيبعث لِأي بائس معدم، أو غني مترف، شهوةَ حصانٍ فحل. استغلَّ كليب اختلاط المجتمع بالمغتربين وغيرهم من الساعين إلى تحرّر المرأة

ونيلها مساواتها وحقوقها، وسيَّرهم بيده في سكَّة الشهوات والمصالح لجني أموالٍ استهدفت شهوات كِلَا الجنسين، بينما كان يقيّم قيمة الإنسان بما يقدّمه له من منفعة.

إنَّ ما يريده كليب في الحقيقة لا يعدو أن يكون إغراق المجتمع في الفوضى وكسر أعرافه وصورته التقليدية، وقد قال مرةً: "كيف تمسك بكلب وتجعله مطيعا؟ كيف تروّض أسد في زنزانة؟ لن يمكنك فعل ذلك إلا بإشباع غرائزهم، وأنا سأعيد ضبط غرائز هؤلاء الناس، سأعيدها بدائية، وأفجّرها ببساطة، إنها مجرد دفعةٍ بسيطة، ثم الأيام ستكشف كل شيء." وخطته تجري قدمًا، مستغلًّا كبداية، صعوبة فتح بَيتٍ زَوجيٍّ سَعيد.

كيف يعيشُ هذا الصنفُ من الناس برأي الوسط العام؟ يقول أحدُ المثقّفين مُعرِبًا عن رأيه فيهم: "لا يعدو الأمر أن يكون سجنًا مفتوح الباب، يتربّص الرجل من داخله بكلّ ما يتحرّك حوله، كالجرذ. إنَّما هو مفتقِرٌ للطمأنينة." أمَّا عَجُوزُ السُّوقِ السَّمْراءَ كالتمرِ المَدْعُوكِ والتي تبيع الفِجِلَّ والنعناع، فإنَّها تظنُّ بهم ظنًا آخر: "أكيدٌ أنَّهم مرتاحون، ولن يتعين عليهم السهر وسط السوق طوال المساء ليؤمِّنوا طعامهم! سيعيشون في سقيفة أو خيمة أو في عمارات قذرة كي يتجنبوا العين والسحر! هؤلاء أذكياء ماكرون، أنا على يقين من ذلك."، وحياة كُليب متجانسة مع هذا وذاك، هادئة سليمة من كل خلل، وهذا هو ما يهمُّه؛ أن تبقى حياته كما خطط لها سليمةً من العثرات والسقطات. إنّه رجلٌ فطين، مُنظّم، يصحو فجرًا بعد قِسطِ نومٍ

كافٍ، ويهتمُّ ببدنه عبر تمارين أساسية مع كل صباحٍ يتنفَّس، يعرف من أين تؤكل الكتف، ويعلم متى عليه الكلام ومتى يتوجب أن يسكت. ومن بعد تحويل أعين البوليس والأمن العام نحو قضية عبدالغفُور، قامَ كُليب بصفقةٍ كبيرةٍ مع القبائل في الداخل، وبعض المهاجرين في عدن، واتَّسعت دائرة تجارته، وأزهرت حقوله مالًا مديدًا، حتى رسّخ كيانه المُقدّس في عينيه، والذي لن يسمح لأحدٍ قطّ بتهديد وجوده.

لَكَم تجدُ في نَهجِ هذا الرجل المتوحّش المعتلِّ اجتماعيًّا مِن تشابهات مع سيرة وطفولة حَياة السجين في زنازين سجنِ المنوَّرة المسمَّى عبدالغفُور جِهاد. دارت عجلة طفولته على مرحلتين، فكان القسم الأول منها يُعنى بحياته **وجِهَادٌ** مَا يزالُ حَيًّا، والقسم الثاني لم يكن سِوى حياته دُونَ أبيه. مرَّ شريط حياته ببطءٍ على كاسيت قديم ممل أمام ناظريه طوال لياليه المُوحِشَةِ بين القضبان الصدئة المتّسخة. فهذا طفلٌ أسمر يلعب وحده في زقاق بجانب بيت طيني من طابق واحد هو بيت والده، يرطم الكرة، وينطنطُ بها، ويقفز وَيَلهث ويَصيح، ثم تمرُّ غُنَيمَاتٌ تكدف وتثْغُو بحناجرهن، والطفل الأسمر كرقعة يبدو مستغربًا من وجودها، وحيدًا، لا يجدُ من يلاعبه. كان منذ صغره معزولًا، نائيًا في عالمه؛ أيلزمه أحدٌ بالمُخالطة وهو متعوّدٌ على البُعْدِ عن أقرانه؟ وهل هم يريدونه؟ لم يسأل قطّ والدَهُ إنْ كان يجبُ عليه أن يلعب مع صبيةٍ آخرين. لا يدري لماذا، وسط كلِّ تلك الوحشة، لماذا ظنَّ عبْدُالغَفُور أنَّهُ بخيرٍ لا ينقصُهُ شيء... سعى والده جاهِدًا لأجل ترسيخ ذلك

الوهم في ذهنه، وظلَّ يحثُّهُ على الشعور بالرضا والسعادة ولو من دون مناسبة أو سبب، وكان يبتعد عنهم، ولا يكلمهم. وفي ليلةٍ ما، باردة صَرَّةٍ، تأخَّر والده في عمله، وانتصف الليل، ولم يكن إلا طارق النذير يدكُّ الأبواب الحمراء القانية، ليعلمهم أن مُعيلهم قد وافته المَنيَّة وهو على المرفأ قرب سنبوقه. كانت صدمةً جعلت عبدالغفُور يرتجف من عينيه حتَّى أخمص قدميه. نظر حينذاك إلى أمِّه المذهولة بملامحها المفجوعة، وسألها:

- أمي، ماذا يعني أنَّه مات؟ ألن يعود؟

وخرَّت والدته على ركبتيها، وضمَّته وهي تتخيل بقايا والده. وأجهشت في البكاء تنتحب، لا لشيءٍ سوى فقدها لسندٍ وعضُدٍ وحيدٍ أوحدٍ في تلك الحياة البائسة الصموتة التي عاشوها. كلُّ شيءٍ يشيرُ إلى فقدان الأمل، والبيت أخرسٌ. كانت روحٌ واحِدة من أبت التسليم بتصديق ذلك، حيثُ مدَّ صوته بصرخةٍ:

- كذَّاب! ذلك الرجل لن يموت مَيْتةً بسيطة! إيَّاك والكذب!

وقال النذير كاسفًا لحال هاته العائلة:

- أنا لا أكذب، الجثة في المشفى بالفعل.

لكنَّ قيس أصرَّ أسنانه، واحتقنت عيناه، ثم إذا بهما تدمعان، بقبضتين متوترتين، وهيئة حقودة. اشتركوا جميعًا في شعورٍ واحد: كيف له أن يتركنا؟ وحاولت الأسْرَةُ المفجوعة لَمْلَمَةَ شأنها وستر عورتها، لَكِنَّ صوت ناقوس الموت شديد، فطغى عليهم حتى باتوا في حُزنٍ سحِيق.

- سامحك الله! نادت الأمّ.
- لماذا؟ صرخ قيس وعقف يديه.
- ما معنى الموت؟ تركنا؟ قالت سارّة مبهوتةً.
- هل الميِّت لا يعود إلى البيت؟ سأل عبْدالغفور مَصعُوقًا.

بدت الحَيَاة فِي تلك الومضـات في أَعْيُنِ عَائِلَة عبْدالغفور بَاهِتَةً جرداء، كأَنَّهَا خَوت عَلَى عُرُوشِـهَا، جَافَّةٌ بِلَا مَعينٍ يَنبُع، بِئْرهُم تَعَطَّلت، ودِيَارهُم قَدْ خَوَّرَت، وسِيقَانَهُم قَدْ تَدَاعَتْ أرضًا.

اِسْتَظهَرَ عَبْدُالغفُور تلك الذِكْرَى، وَسَطَ ظلمة السجن، خاليًا، فانهمرت عيناه بالدُّمُوعِ. وقَالَ فِيمَا قَالَ حِينَها:

- صِرتُ كما تريد، وَحِيدًا...

وهبَّت رِعدَةٌ قارصَـة في بدنِ عبْدالغفور أشـعرته كما لو كانَ ممسُـوسًـا بجانٍّ، وطَفِق يرْتَجِفُ ويهْذِي:

- هَذَا فَظِيع، ألنْ أهْدأَ أبدًا؟

وانكمش حول نفسه يرومُ تهويده عبثًا.

بعد حادثة الوفاة، تصـرَّمت السِّـنون بقسـوة، تاركةً العائلة في سُـمُودٍ وعُزُوفٍ عن نفسـها والحياة، وهم شُـرُودٌ غائبين، لا يقدرون على شـيءٍ مما فقدوا. تعهَّد قيس بعيد ذلك بأشـهرٍ أنْ يَمُدَّ العائلة بقوت يومها، فصـبَرَ على وَعَثاءِ طريق الرزق، وألحَّ في كدِّه، مرغمًا، وهو لم يبلغ سـن البلوغِ بعد، ولم يكن ضـنينًا على أهله، بل منحهم عصـارة جهده وسـمينِه، وكافَحَ، حتَّى أنَّه

أوقف دراسته، وسمح لشقيقه بإكمال الدرب التعليمي. بدا لهم أنَّه أهلٌ للمَسئُولِيَّة، وذلك بعينه ما قَصَمَ ظَهرَه، فما إنْ تجلَّت قدراته وتفتَّلت عضلاته وصَلُبَت عظامه، وأمعن أهله في إمكانه فرأوه جلدًا صلدًا متحمِّلًا؛ أهالوا عليه بتراب المسئولية الحار، وكبُّوا في آذانه همومهم وحمَّلوه مسؤوليتها بذريعة اليأس والخوف، وتلقَّى المَلامَة في أدنى تقصيرٍ وأقلِّ تبذير، والحاصِلُ أنَّ حياته قد ساءت مذ نَسَتْ عائلته حقيقةَ كونِهِ فتًى مُراهِقًا. وفي سنِّ السادسة عشر، انفجر قيس، وراح كالمسعور يرمي معدَّات وأواني الطبخ، ويصرخ مُزبِدًا، ويقذف كل جانبٍ بضراوَة...

على أية حال، بدأ عبْدالغفور يحمِلُ مسؤولية أخيه الهائلة، بينما انكفأ الأخير على نفسه. حاول مع ما تبقى من رُشْدِ أخيه ستر عائلتهما وتجنُّبَ مظنَّة السوء ومعابة الألسن وكلام الناس. وكانت أمهما تقول أنَّ الأهم هو شرف وكرامة العائلة: "أبوكما كان لا يحرص على شيءٍ بقدر ما حرص على الشرف، الكرامة، السمعة الزينة يا عيالي!"، مهمةٌ كانت عصيبة على طفلين، فهل يُدان الأب أم الأم؟ أوَ هناك من سيُدانُ في شأنِ هذه العائلة أصلًا؟ حتَّى هُم لا يعلمون. والمَصَابُ يتلوه آخر، والنوازل كالصاعقات في ليلٍ شاتٍ عاصِف، كأنَّ بيت آل عبدالغفُور هوائيٌّ ضخمٌ يلتقِطُ كلَّ صواعق السماء الراعِدة.

وفي هذه النقطة، يتوجَّبُ القول بأنَّ عَبْدَالغَفُور لم تعد له عائلة منذ نحوِ ستَّة أشهر. ولكن أيعقَلُ أن الجميع، ببساطةٍ تبدو كالتواطُؤِ، قد نسُوه؟ ألم

يتبقَّ له أحدٌ يسـأل عنه، أو يتفقَّد أخباره، أو يعطيه معلومات عن عائلته، أو يتكفَّل بفكِّ أسـره بكفالةٍ مشـروعة مالية؟ أكُلُّ هذا مسـتحيل؟ نقفت تلك الأفكار رأس عبدالغَفور وهو يدقُّ قفا رأسه في جدار الزنزانة المظلمة، اللَّهُمَّ إلَّا مِنْ قليلٍ مِن اخضرار مِصباحٍ معلَّق في الممرّ. وانقضتْ ليلتان على أُمسيةِ ياسين الأدَبِيَّة ولقاءِهِ بالبنت صفاء. وها هو زائرٌ يجيءُ إلى عبْدالغفور.

تشـبَّعَ عبدالغفُور من كُتُب إيميل فارُوبيك، وشـعَرَ بأنَّه محقونٌ بها كأمصـال لداءٍ خبيث تفشَّـى فيه مذ كان صـبيًّا، فكان يحُسُّ، على نحوٍ دقيقٍ، بين تلك القضبان، بأنَّه حُرٌّ يُولَدُ مِن جَديد.

كان الليل قد ادلَهمَّ، وتراكمت طبقاته، وحَشَت الظلمة السوداء مخدَّاته لينام، ويسكن إلى شيءٍ ما؛ لكن أيُّ سكينةٍ توجدُ في السجون؟ وهل من مفرٍّ من أفكار المرء الناجمة عن أرَقِهِ في مثل هذه الأمكنة؟ لكنَّ الزائر يقعقع بجزمته، ويقترب، فيتناهى إلى مسـمعه صـوت غناءٍ إنجليزي، من زنزانةٍ ما، هناك في عتمةِ الزنازين.

يغنّي تارةً:

"I need a place to belong! I need someone! Someone I can share my evenings with without hindrance. It seems to me that I came from far away, and took a long road, but I heard that little word so many times, like everything I needed!"

"إنني بحاجةٍ إلى مكان أنتمي إليه! بحاجةٍ إلى شـخصٍ ما! شـخص

أســتطيع مشــاركته أمســياتي بلا عوائق. يخيَّل إليَّ أنني قَدِمتُ من بعيد، وسـلكت طريقًا طويلًا، ولكنني سـمعتُ تلك الكلمة الصـغيرة كثيرًا، ككل شيءٍ احتجته!"

وتارة أخرى يردد أغنية ما:

"And every day I wake up, then I start to break up, lonely as man without love!"

"في كل مرّة أستيقظ، أبدأ بالانكسار، وحيدًا كرجلٍ من دون حب!".

كانت الأغاني الأجنبية تشـعره بالقوة والجبروت حين كان مراهقًا، في وقتٍ تولّى فيه مسـئولية عائلته واحتاج لشـيءٍ يقوّيه، ولقد أدمنها آنذاك، إذ كانت تُشـعره بالرعشـة الذكورية والنشـوة التامة في طعمٍ مجنون لذيذ، لكنَّه توقف عنها في سـنّ العشـرين لسـببٍ ما. وظلَّ عَبْدالغفور يدندن رغم كل شـيء، حتَّى تراءى له طيف شـخصٍ طويل، يعرفه معرفةً لا يسـتسـيغها. فسكت كأنما أُسقط بين يديه، وبلع ريقه، وهدأ المكان.

- يبدو أنَّك مُستمتع.

لم يُجب عليه، فأردف قائلًا:

- انهض، أريد أن أكلِّمك وجهًا لوجه.

وأذعن له، وانتصب فإذا هما سواء.

- أخبرني وأنا بك ضَمين، هل أنتَ مظلوم؟

أجاب عبْدالغفور:

- لا أدري. هل الكلبُ مظلوم حين نربّيه في بيت من أربع جدران؟

ضرب الزائر القضبان بعصًا كانت معه، واحتقنت عيناه بشراسةٍ.

- ليس هذا وقت المناورة، قل الصدق!

تقهقر عبْدُالغفُور كأنَّ صـراخ الزائر دفعه بقوة ما إلى الجدار المقابل، واسـتند عليه، يحكُّ رأسـه، وينظر بين قدميه. رزَحَ الصـمت على المكان. ومن مكانه كجرذٍ مرتجف، صاح عبْدُالغَفُور على زائره:

- اسـمع يا لَبيد المُحترم! إنما ليس لديَّ ما تحبه مسـامعك، أخبرتك جواب سؤالِكَ هذا من قبل. أتريد تعذيبي وحسب؟

- تمهّل، لم أقل شيئًا مِن ذلك.

أشـار لَبيد للحارسِ بالتقدُّم، وفجأةً، كمصـادفة بلمح البرق، فتحت الزنزانة، وأُمِرَ السجين بالخروج، عَلَت الدهشة ملامح عبدالغَفور، وانقادَ في صـمتٍ جليلٍ إلى ردهة العنبر حيث انتظره الآمِر وخيرة الضـباط المداومين في ورديَّتهم، وأخبروه هناك، وهو جامدٌ لا ينبس ببنت شـفة، أنَّ كفالته قد دُفِعت من طرف شخصٍ ما أراد أن يظلَّ اسمه سرًّا، وأنَّه الآن حُرٌّ طَليق.

❊ ❊ ❊

حُرّ

راحَ عَبْدُالغفُور يبدِّلُ ثيابه استعدادًا لمغادرة السجن. ارتدَى على غير عادةٍ منهُ سِروالًا من قماش ناعم، ضبابي اللون، واعتلى صدره قميصًا أسودًا مُحكم الأزرار. كان هذا ما وجده في خزانة السجن، وحمل كيسًا فيه بقايا ملابسه القديمة التي أُعتُقِلَ بها. أقلَّته سيارة المفتِّش حتَّى وصل إلى دوَّار ناحية (ملعب بارادم) المحاط بالغبار والجبال. في الطريق ظل لَبيد يحشو رأسه بالنصائح والمواعظ، ويكرّر عليه بأنّه لا يمكنه الفرار قبل المحاكمة الرسمية، والتي لمَّح إلى أنّها قد تتأخّر كثيرًا لظروف ما. ثم سأله عن حاله، وأخبره عن وضع المكلا، وعن عمله. قال:

- كالهباء يذهب سدى. العصابة بارِعة، لا تدع فرصةً تفلت من يديها! والتحقيق تائه في دوَّامةٍ من شائعات وأطيافٍ وهمية لأشخاصٍ غرباء.

كان عبْدُالغفور شاردًا، لم يجب بكلمة واحدة. ظلَّ هامِدًا غافِلًا. خطرت له أفكارٌ متشابكة ملتفَّة، ولم يمهله العرق المنهمر من جبينه أن يستعيد بعضًا من شخصيته وتوازنها. كان محاصرًا في غرغرة انفعالٍ شديد في أعماقه، وشعرَ بالقلق يهزُّ له كيانه، ويرسل إليه لفحاتِ الخوف ويُنزِلُ عليه صواعِقَ الرجفان العصبيّ. أعطاه لَبيد ألف ريالٍ، وتركه في ظلمة الشارع حيث السُرُج محروقة، ولافتات المحلَّات معلَّقةٌ في حالة انطفاء. أخذ سيلٌ

من الأسئلة والهذيان يصيب عقل عبدالغفُور:

«ما عســاي فاعلٌ الآن؟ هل أنا حُر، هكذا وفجأةً؟ أشــعر بالدوخة، وعينيّ تلتهبان من فرط توتري واحتداد مشــاعري... كيف لي مقابلة أهلي الآن... لحظة، نسـيت أمرهم، لقد تبرَّؤوا مني مسـبقًا! إذن، لا أهل لي، ولا منزل يحتويني... أشعر بالغضـب، أشعر برغبة في الصـراخ أمام البحر. أريد ضرب طفلٍ حتَّى الموت! آه إنَّ قلبي يشيطُ سَخَطًا ووحشية! أريد رؤية قيس فورًا. سأتحدّث إليه، وسأسأله عن سعادته وشقائه، وماذا سيقول لي؟ لن يأبه بي، لقد تزوَّج الآن، أظنَّ ذلك، وقد نساني. حتى كراهيته لي ربما لم تعد موجودة. صــرت كالعَدَم. لا معنى لي... أهذه هي الحرية؟ أظنني لم أكن، طوال حياتي، حُرًّا قط... كنت حبيسًـا للمجتمع، لنفسي، وللعائلة... والآن، أنا حُر؟ لا، لا يمكن!»

وإثر ذلك داهمت عبْدَالغفُور نوبة ضــحكٍ هســتيرية، حتى انكفأ على بطنه وخرَّ على ركبتيه جاثيًا، وأدمعت عيناه. كان يشــعر بجســده كله يرتجُّ ويُخض، وعقله يدور ويخبط خبط عشواء كثيابٍ قذرة هبَّ أحدهم بوضعها في الغسَّالة التلقائية؛ فكان يدور ويصعد، ثم ينزل ويدوخ، ويهتزُّ بشِدَّةٍ تُغيِّبُ له وعيه. كانَ في حَالَةِ نَوبَةٍ عَصَبيَّةٍ تَامَّة. مَضَتْ دَقَائِق، حَتَّى هَدَأَ قَلِيلًا، ومَشَى مُندفعًا بِمَشاعِرَ كَريهةٍ، يَحُسُّ بِهَا تُهيِّج أعصابه، مثلَ صَدَى قِطَارٍ حادٍّ مَرَّ من فوقهِ في سكَّةٍ معلَّقةٍ. وعلى حين فلتة منه، في سهوٍ، اغرورقت عيناه وفاضتا دمعًا، فجلسَ على رصـيف الخَور، وظلَّ مهمومًا، تائهًا، يشــعر بالتشــريد،

حتَّى السجن رفضه ولفظه من جوفه، ظنَّ في غمرة مشاعره السيئة أنَّه غير حقيقي، وهمي، ليس بموجودٍ حقًا، ولا أهمية لوجوده، وكلُّ أفعاله إذًا ستكون بلا أدنى فائدة، فضلًا عن الأهمية. افترسته الوحشة؛ فصار حاقِدًا، وغالبته الوَحدة؛ حتَى أمسى نادِمًا، وجالسته نفسه توحي إليه؛ فعانقها وارتمى عليها بكلّ أحاسيسه، لكأنّه آمنَ بها للمرة الأولى في حياته أخيرًا...

عاين المكان جيِّدًا، فرأى شخصًا يشبهه، مستلقيًا على جنبه في الدكَّة، تحت عمودٍ منطفئ، وأمام مياه الخور العفنة الطحلبية، وسَمِعَهُ يهذي، ويئنُّ، ويغرغر بندمٍ، فرثى لحاله، وتقدَّم إليه، كان يرتدي لباسًا يشبه لِباسه، وله بشرةٌ كبشرته التماعًا، فغمز له في البدء، وألمع له إلماعة طفيفة ظريفة، حين قال:

"أنا مثلك، وإلى ذلك، أنا معك".

وقفز الرجل من أنينه ومآسيه، وجلس إلى عبدالغفُور ينظر في حاله، يقلِّب عطافيه، يرى ما لم يره من قبل؛ شخصًا يُشبِهُه كالصَّنُوّ. فماذا يريد؟ أجاب عبدالغفُور:

- أريدك أن تكون بخير، سأفعل أيَّ شيءٍ تريده!

تمطَّت ملامح الرجل وتغيرت هيئته، فصار فَزِعًا.

- أنا أعرف رغباتك، اقبلها، وافعلها.

وتلاشى الرجل مثل البُخار، فنهض عبْدُالغفُورِ وهرولَ مبتعِدًا يقصدُ مجلِسَ قاتٍ معيَّن في الغار الأحمر، قبل مسجد الصفاء بقليل، عند محلَّات

كراء السيارات. تبدَّد منه الخوف، وتقبّلَ ما يعتلج فؤاده، وانكبَّ على رغباته يحثُّها فيردد: «زِيدِيْنِي قوَّةً! أنا حر طليق! زِيدِيْنِي يا نفسي رغباتٍ وقولي لي ما تشائين أفعله! أخبريني يا نفسي ما تشتهين! زِيدِيْنِي اشتعالًا وغريزَةً! آه!». تتالت خطواته القافزة كالغزال على بُقَعِ ماءٍ تكوَّنت من غسلِ الصوماليين للعَرَبات، وارتقى دكَّةً ودخل على ديوان مفتوح مكشوف، به جلسة عربية أرضية، وجدرانه ليمونية اللون، تتدلى من سقفه مروحة قديمة تصدر أزيزًا مع دورانها، نادى على شخص بصوتٍ جَهُوري طاغٍ:

- يا بُهلول، تعال! أريدك في شأنٍ هام.

حاجَّه بهلول وهو قاعدٌ متكئ على مِخدَّة، وصوته يحشرج من فرط مضغه للقات وانتفاخ أوداجه منه:

- ما شأنك يا رجل؟

- شأن خاص، تعال وستسمع.

بدا عبْدُالغفُور حازمًا، لكنَّه من أعماقه كان يرتجف.

نهض البُهلول، ومَثُلَ بين يدي عبْدالغفور، فصات به:

– هيا! أنا قدّامك، ماذا تريد؟

كان عبْدالغفور يأخذ نفسًا، ويدير وجهه إلى الشارع، يمسح على صدره بيديه في حركات خفيفة متتابعة سريعة، حتَّى أسعفه لسانه ليقول:

- أنا أعرف علاقتك برجلٍ اسمه قيس، أنتما في العصابة المشهورة، ألست محقًّا؟

كان بُهلول تحت تأثير مفعول القات المخدّر والممتع، فلم يفكر كثيرًا، بل أخذ يثرثر:

- أنت زبون؟ حلو! أي صنفٍ تريده؟ لا أظنُّك من مظهرك شرطيًا، أخبرني ماذا تريد؟ أنا في الحقيقة صديقٌ مقرَّبٌ للثعلب قيس! إنَّه يثق بي ثقةً عمياء! هيء هئه... شكلك واحد يريد شبو، أم تريد أن تقضي ليلة مع إحدى الجميلات؟ هيء هئه! نعرف رغبات الشباب، نحن ندلّعكم، رغم حقيقة أنَّ عقولكم مغسولة بمقاطع وهمية! مساكين، هيء هئه.. طيّب يا صاحبي، ما حاجتك؟

تحمحم من بعد ذلك، ورشف من قارورة ماء مثلَّجة رشفة تمضمض بها لبرهةٍ خاطفة ثمَّ بصقها وابتسم، فبرزت سنونه الصفر الأشبه بإسفنجة متّسخة. كان عبْدُالغفُورِ مضطربًا، قد هزَّه الكلام كلُّه، شعر به كما لو أنَّه صادرٌ من ذاته الخبيئة. وهل يريد كلَّ ذلك؟ ممكن، ومرجَّح. لكنَّه ركَّز على مبتغاه الآن، والغضب قد بدأ يظهر على نبرته:

- معي صفقة، أريد مقابلة قيس الليلة مباشرةً.
- همم... لا أضمن لك موافقته، فهو متحفِّظ، وقد صار ربَّ أسرةٍ الآن، عارف بهذا؟ زوجته حامل! حصلت أمور كثيرة لعائلته، وعانى المسكين من سمعة سيئة بسبب ما حصل، لكن ربَّنا وفّقه! وانظر كيف فتح عليه!

نزلت به تلك الكلمات كغصَّةٍ مريرة، جعلته يدور في مكانه ويتألَّم ألمًا

كحرقةِ لَدْغَةِ عَقْرب.

- سمعت... بذلك.

تلعثم عبْدالغفور، لكنَّه واصل بمشقّة:

- حاول معه، فأنت محلُّ ثقته.

- طيب، يا طيب.

- أخبره بأنني سأنتظره الليلة الساعة العاشرة عند شاطئ المنصة في فوّه.

تعجَّب البُهلول وأغارَ بصوتٍ رافع:

- بعيد! لمَ هذا العناء؟

- الموضوع يحتاج عزلة وسريَّة. الليلة، مفهوم؟

- آها. طيب، طيب... وما اسمك إذًا؟ حتى أخطره!

ضحك عبْدالغفور هنا، وصعَّر خدَّه للبُهلول، وقال وعينه على حركة الشارع المتدفقة والمتَّصلة بعنفوان:

- قل له بأنني أُدعى غازي، غازي الحَنَش.

كان اسمًا تبادر له توًّا، لكنَّه يعرف هُويَّةَ صاحبه: إنما هو اسمُ صديقٍ قديم لشقيقه، ولكن ماذا يريدُ من مقابلته في ذلك المكان البعيد والمهجور وهو لا يرغب سوى في محادثته حديثًا قصيرًا؟

أقفل عبْدُالغفُور راجعًا، يتربَّص حينًا، ويهْجُسُ فينةً، وقد رجع إلى نفسه بالقول، فتخاطر معها: «لا أظنني حُرًّا حقًّا. أنا متعب جدًّا، وأريدُ أن

أسبح، عاريًا، في بحرٍ هادئ بارد، أريد أن أعوم على سطحه لساعات، بل لا مشكلة لديَّ لو كانت لسنين... البدء من جديد، والإصلاح، وسلك جادة الصواب، كلمات نقفت في عقلي منذ دخولي إلى السجن... لقد اتبعتها في الماضي، أما الآن... فلا أستطيع مواصلة جعل الأمور هادئة تمامًا». وفي خضمِّ هذيانه وسرحانه الملفت للنظر، مرَّ بشاشةٍ عِملاقة وجمهورٍ تحتَها، يتابعون بشغفٍ، أشبه بالمرض، مباراة كرة قدم، فتشوَّف عبدُالغفور إليها، وحدَّق في الفريقين المتباريين، ومن دون أن يفكِّر فيما قاله، هتفَ:

- (كلاسيكو)! أوه!

لفت الانتباه إليه، وتناهت له بعض الضحكات ثم لمح بعض البسمات الساخرة، وأخرى ممسوحة جافة، قال له أحدهم، في الجوار:

- إيه، النتيجة لا توحي بمسار اللعب، الريال كان أفضل!

لم يعره اهتمامًا. وإذا بهجمةٍ سريعةٍ للفريق الأبيض تنطلق، وحينها عاد عبْدالغفور ليصيح بكلِّ صوته، مفاجئًا نفسه:

- العبد! اجرِ يا عبد اجرِ! المرمى أمامك!

وتأفّف لمَّا أضاعها اللاعب رقم سبعة، بشكلٍ عبثي مستفز، وبدت علائم الاستهزاء على الحضور منه بسبب ما قال، لكنَّ المهمَّ في الأمر هو انفعال عبْدالغفور ومن ثم وقوفه بشكل قيادي غريب وطفيلي أمام الشاشة، حتى لقد تعالت ضحكات المتفرّجين، واستهجنه البعض:

- ابعد من الشاشة يا حمار!

- شوفوا الحالة الغريبة هذي...

- يا سِودْ بِليسْ اِجلس! المباراة لا تنقصك!

فَحَدَجَهُم عَبْدُالغفور بحقدٍ مفاجئ، كانت حالته العصبية تدخُلُ في طورٍ جديد، فتخيَّل أن جموع الجمهور سينقضُّون عليه في أيِّ لحظة، ويلتهمونه بقبضاتهم؛ فتولَّدت لديه "ميكانيزمات" عِدائية منفلتة، دفعته للصراخ فيهم:

- أص! من سيتحدَّى؟ ومن أنتم؟ أنا حُر!

وكاد أحد الحاضرين أن يفرُطَ على عبْدالغفور لولا تدخُّلِ بعض العقلاء الذين سَدُّوا بينهم وأنهوا احتمالية اشتباكٍ عبثي لا حاجة له. الغريب أن عبْدَالغفُور تخيَّل فعلًا أنَّهُ أُصيب وتقاتَلَ ونافحَ عن شرفه وكبريائه مع رجلٍ كالفيل طاغية وأصابه بوابلٍ من اللكمات القاضية، فشعر بدوخة تغزو عقله، وخوارٍ يغتصبُ بدنه، وبدأت الدموع في الانهمار، وتردَّدت عبارة من أغنيةٍ في دماغه: "لقد آذيت نفسي اليوم؛ لأختبر إن كنت ما أزال أشعر"، وأكمل مضيَّهُ بتخافت، يُعانق نفسه، ويهدِّئها، ويَعطِفُ عليها بكلام عسلي. من ثمَّ يمَّمَ إلى فَرزَة حافلات (فوَّه)، وهناك، تلاقت عيناه مع رجلٍ من حيِّه يعرفه بعض المعرفة، فصرخ متفاجئًا:

- عبْدالغَفُور! أنت هو! ما هذا!

شعر عبدالغَفُور أنَّه قُبض عليه، وتداعت خيالاته، كما لو أنّه فرَّ من السجن، أو أنّه في السجن وقد وجدوه متلبّسًا بالمحظور. أَلِفَ نفسه يمشي

إلى مناديه بإذعانٍ ويصافحه مع جلساءٍ ثلاثة يرتدون جميعهم أُزُرًا مقلَّمة، وأقمصةً بأكمام قصيرة فاتحٌ لونها، أحدهم اعتجر عمامته بينما أسدل الآخران خاصتيهما على الأكتاف. كان أحدهم أصلع تلتمع رأسه، وكان البرد قد بدأ يشتد. فسأله الأصلع بسخريةٍ:

- أرى أنَّكَ ما زلتَ حَيًّا؟

أخفض عَبْدُالغَفُور عيناه، والتفت ناحية الخور يرمي بصره في قناته السوداء المتموّجة، حيث تمثَّلت كمرآةٍ لاضطراب روحه الذي يمحق خطرات باله النظيفة وبدوات فكره اللامعة، فأجابَ بشيءٍ من الفتور والزعل:

- مع الأسف.

- ها! لمَ كلّ هذا العُبوس؟

الحقيقةُ المرَّةُ التي اعتلت بالَ عبْدالغفور هيَ أنَّ الناس لا يعلمون ما جرى لهذا الإنسان الصغير القيمة، وإذا به يشبِّه نفسه، بشيءٍ من المِراء المستحثّ، بصرصور مجاري، لا يستحق طاقة الناس التي ستهدر في ضربه للقضاء عليه، لا يستحق اهتمامهم البتة. كم كان هذا الشعور مخيفًا ومقبِضًا لقلب عبدالغفُور المُنهك، خُيِّلَ له أنَّ الدنيا تخلَّت عنه، وأنَّ الله نساه، وجعله وحيدًا أيضًا في عالم البشر الأكثر رعبًا من عالم الجوارح والبهائم. تقدَّم عَبدالغفور من الرجل الأصلع، فتركَّب أمامه، ووضع يديه على ركبتيه، ناظرًا فيه بابتسامة شرودٍ خاليةٍ من المعنى، فاقدةٍ للوهج الطبيعي للبسمة،

ليقول له:

- ماذا تظنني الآن سأفعل؟

تحيَّر الرجل، ثم أفلت ضحكة، وأجاب بنبرة اتهامٍ مُهينة:

- ربما أنتَ منشغلٌ، يبدو عليكَ أنَّكَ منشغلٌ بشيء ما خطير؟

- لَا!

صاح عبْدُالغَفُور وصَفَعَ ركبتي الأصلع، وأكمل بعد قهقهة خفيفة:

- إنني فارغٌ تمامًا... فارغٌ تمامًا، أترى؟

قطَّب الحاضرون وجوههم، ورفع الأصلع حاجبه ليكون الشعر الوحيد الظاهر في رأسه، وكلُّهم تَعرُوهم حالة عدم استيعابٍ لما يقوله هذا الرجل ذو الأسمال الحالكة، ليعود هو بنفسه فيخبرهم بشأنه مشابكًا يديه:

- يُخلق الناس فارغين، وهكذا أنا. أنا متفرِّغٌ من كل قيد ومسألة وقانون، أنا فارغ بالكامل، كأني بي يومَ ولدت! إني خالي البال، هائم الفكر، لقد خوى عقلي من كل مشغلة، حُرّ، وها هي نفسي تتوق لحياتها الجديدة القادِمة!

تعجَّب السامعون لكلامه وأبدوا ذلك. ثمَّ قال الأصلع وهو يمثِّلُ جانب السامعين الفضوليين، حيث زاد عددهم بجانبه يسعون للتنذُّرِ والتنكيت:

- يعني لديك مشاريع جديدة، متحمس لها صح؟

سكت عَبْدُالغَفُور وعلى وجهه بقايا ابتسامة، ثم ها هو يرمي نظرات

حانقة يمينًا ويسارًا، ويتلفَّت بحركات صقرٍ مهتاج، يهمس بكلمات غامضة، حتى قال على حين غرَّة وكلُّهُ الجدّ والرعب:

- أجل، هكذا تمامًا.

ما هي إلا ثوانٍ حتَّى قلِقَ السامعون من تحوُّل حالته إلى نوبة بكاء أليمة داهمت قلب وكيان عبْدالغفور المخروقين بأنياب المصير ورماح القدر. كان يبكي، ثم يضحك لجزء من ثانية، ثم يكبت صوته، ويرتجف فمه، ثم يسعُلُ بقوةٍ، ويبصق ويتأوَّه. كان منظرًا غريبًا، دفع الحضور المتطفِّل إلى الابتعاد متقززين غير مبالين. أما الأصلع فقد حاول مواساته، لكنَّه لم يكن يفهم شيئًا. وحاول جذب ياقته ليرفع رأسه، لكنَّ عبْدَالغفور نهَرَه، واعتدى عليه بعصبية، قائلًا:

- دعني! ألا ترى؟ إنها حالة رائعة... هذه المشاعر حرَّةٌ تمامًا، مشاعري صارت حُرَّةً تمامًا!

لكنَّ الأصلع قد عيل صبره، وعدَّ عبْدالغَفور مجنونًا:

- اهدأ واسترجل! من قبيل وأنت تهذي بحريتك، طيب يا حر ويا فارغ! من يهتم! كلنا أحرار، والآن انصرف!

وانفضَّ الجمع. طغت موجة خرس رهيبة على كيان عَبْدُالغَفُورِ الذي تهاوى على مِقْعَدٍ فِي الحافلة المتَّجهة إلى (فوَّه)، فبدا خامدًا مثل حارةٍ انقطعت عنها الكهرباء.

في السجن، تلقّى خطابًا من شخص باسمٍ رمزي، أخبره فيه بالحقيقة

وراء قضيته. ظنَّ أنَّه من البوليس، لكنَّه وجد في المظروف بطاقته الشخصية التي فقدها قبل يومٍ من مداهمته، مما أقنعه تمامًا. وبعد فترة أخرجوه. أيُّ حُريَّةٍ هي هذه؟ إنَّ إحساسًا شريرًا يدفعه دفعًا إلى أفعالٍ كان سينكُرُهَا على نفسه في السابق، بيدَ أنَّ الحقيقة تمثَّلت في تبلور رغباته منذ سنٍّ صغير، ذلك الحقد والغضب والرغبة في أخذ الحقّ والردّ بكلمة شخصية، بموقف يمثّله، ورفضه المعاملة القاسية التي نالها من عالمه. إنَّ به غيظًا شديدًا لا يُشفى منه قلب، إنَّه جِدُّ غاضبٍ ومستعدٌّ لكلِّ شيء قادمٍ، حتَّى تلك المخططات والمشاريع الجديدة.

كان في الماضي، حينما تمرُّ به أيامٍ سيئة لاذعة الطعم، يخلُدُ للنومِ طويلًا، ويغرق في لجج اللاوعي الغائب، ويحلُم بعمق. وليست كلُّ أحلامه ورديةً لطيفة، فثمَّةَ كوابيس لاحقته حتى في عوالم الأحلام في تلك الليالي الموحشة، وثمَّة كابوسٌ قد تكرَّرَ كثيرًا وروَّعه: رأى نفسه وسط عاصِفَةٍ طاحِنَة، يهبُّ هواؤُهَا باعثًا ريحًا صرَّةٍ ومطرًا كثيفًا ثقيلًا يسقُطُ على جلده كالحصى الحادّة، وهو على سطح بِنايةٍ شاهقة في قلب سوق المدينة، والكهرباء مقطوعة بسبب هوج الإعصار. ظلَّ مصلوبًا على حرف السطح، عاريًا بلا قميص يستره، رافعًا رأسه إلى السماء يُبصِرُ ظلامها كبئر غائرة. يُوعكهُ أمرٌ ما في داخله، ندم وضيق، وسآمةٌ من أحكام الناس ومطالبهم عليه. يُوشك بالسقوط، ويستعدُّ لرميِّ كلِّ شيءٍ إلى الأبد، كما قرأ عند إيميل فارُوبيك: "إنَّه يرمي حياته بعيدًا ليتخلَّص من أخطائه، بينما كاد أن

يتقبَّلها بمرارة"، ولمَّا مالَ على حافّة البناية وترنَّح ساقطًا للأمام، جذبه من تلابيب قميصه رجل ما، وأعاده إلى السطح، نظرَ إليه ذاهلًا، حتَّى سمعه يصرخ فيه: "لن أدعك تقتلني!"، وصار يحبو إلى سِياجِ البناية الصغير، في فزع جعله ينسى المطر العاصف، وأحدَّ عينيه في هيئة ذلك الرجل المظلمة، غير فاهمٍ لشيء، ونظراته كلُّها تساؤل، حتَّى جاءته الإجابة على مرارة: "أنا أنت! وأنت تخصّني! لا يمكنك الفرار من مصيرك المرتبط بي!" أعول أمام مرأى الرجل، ونهض يجري بكل قوته حتَّى سقط وهوى منتحرًا وصوته يضيع بين وابل المطر الشديد، ليستيقظ من ذلك الكابوس لاهثًا بوجهٍ يلتمع عرقًا.

بعد فترةٍ من تردده على الأطباء النفسيين، وبلعه لأدويتهم التي كلَّفته كثيرًا حتى سئم منها وتركها؛ كانت أحلامه تتنامى وتتصل في نومة واحدة بشكل مخيف، وكان يحس فيها أنَّهُ يعيش الحياة الفعلية، لقد تُرجِمَت نفسه وكبته لرغباته الشخصيَّةِ في تلك الحُزَمِ المتواصلة من الأحلام المُقطّعة، لكنَّه سئم هذا أيضًا؛ فساعة ما ينهض، يتبخَّر كلُّ ذلك الوهم اللذيذ، ويتركه في سآمةٍ وضيقٍ غائرين في صميمه.

لم يخشَ عبدالغَفور مغبَّةَ نواياه، وقد كان يُثني على نفسه بعد أن توقَّف في شارع ناءٍ ودَلَفَ في بِقالَةٍ ليشتري منها شيئًا يحتاجهُ لهذه الليلة.

❊ ❊ ❊

رمال حمراء

كان القمر بدرًا والأمسيةُ باردة ساجية، وكلُّ شيءٍ قد انطوى والتفَّت سيقانه بعضها ببعض. بدا الليل بهيميًّا مخيفًا، وقد قلَّت حركة الراجلين، وسكنت الشوارع قُرابة منتصف الليل. بزغ القمر بضوئه العظميِّ المخضرّ، ونوره الدافئ الخجول، في ذلك الوقت الهادئ جدًّا، واليوم هو منتصف الأسبوع. جلسَ عبْدُالغَفُورِ في الكثبان الرملية النديَّة، وألقى على سُدفَةِ الظلام المحدِقَةِ به سلامًا غريبًا، وهو رغم القلق المعتاد، لم يتشتت عن هدفه، يراقبُ مجيءَ أخيه قيس بتلهُّفٍ وحماسةٍ حادّة. نعم، كان مشتعلًا لرؤية أخيه الأكبر، الذي عصى أمره وهو في السجن حينما أمره بعدم كتابة خطابات إلى عائلته، عصاه في ذلك، وحنَّ إليهم في ليالٍ كِثار، كانت كُرَّاسة الرسائل محمولَةً بيده، يفتحها لحظةً، ويتصفَّحُ كتاباته، ويُبدي رأيه في مشاعره ومدى قوتها. كان إيميل ليشيد به إذا ما نظر في رسائله الشجية المخذولة.

الأربعاء، ٢٦ سبتمبر:

"هأنذا متروكٌ هَهُنا، وسط زنزانة قبيحة. كم هذا مؤلمٌ يا أنا. لقد حصل كلُّ شيءٍ في رمشة عين، يا لسرعةِ ما نكره! ولكن، يا أخي قيس، إنَّني الآن قد صرتُ أمقتك مقتًا يضاهي علوَّ الجبالِ عاليةِ المَناف! في داخلي شيءٌ يريدُ لو ينفجر، ويتمرّد بشكلٍ وحشي! إنَّك مَن رَغِبَ في تجهيز لحدي،

وحفر قبرًا لتغييبي عن الحياة، وهل تراني عنصرًا من الحياة؟ إنَّني كالضباب، مجرَّد ضباب، ودائمًا سأكون ضباب!".

السبت، ١٤ أكتوبر:

"حتَّى وإنْ طالَ بي الأمدُ بين ظهراني هاته العائلة التي سلَّمتني للسجون تائهًا فيها، فلن أتبرَّم من شيءٍ، سأعيف هذا! أستطيع أن أعود متجدِّدًا، راغبًا في الستر، لست أوَّلَ من يُسجنُ ظلمًا وبهتانًا. ولكن، لم يعد من شيءٍ في داخلي يعنيني كلَّ العناية. لا أحد سيسامح أحدًا على أية حال، ولكن من الأفضل أن نحاول مواصلة العيش قدر ما استطعنا. سأحاول أن أتَّخذ قراراتٍ مصيرية، تعنيني أنا عَبدالغفور! نعم، إنما عليَّ فقط أن أنتظر اللحظة الحاسمة".

الجمعة، ٣٠ نوفمبر:

"لا تهمُّني الأعياد في اليمن، لقد أنكروني، وشمتوا بحالي وأودعوني سجونهم، كما لو ينفِّسون عن غضبهم في مسكين مثلي. ألستُ مجرَّد شخصٍ عادي، غيرَ خارقٍ؟ ليس لي نصيبٌ مما في العالم... إنني أهذي، حالتي العصبية تشطط على أفكاري، وصداعي يوشك أن يدفعني (للهلوسة والذهان)، تعلَّمت هذه المصطلحات وأحببت أن أستخدمها هنا، يقولون إنَّ الشعر الجاهلي ديوان العرب الخالد، ويقولون إنَّ البشرية في حاجة لنموذج الإنسان الخارق، هذا كلامٌ جميل أنيق. متى ستحين حرِّيَّتي، دعوني أغرِّد خارج قفصي في الضباب! ألن يرحموني؟ أستذكر كلامك يا أديب

عدن، لطفي جعفر أمان! وأتشرَّف بترديد كلماتك الحُبلى بالحَزَن:

"أخي، كبَّلوني!

وغُلَّ لسانِيَ...

واتَّهموني بأنِّي تعاليتُ في عفَّتي!"

الجمعة، ٦ ديسمبر:

"جرى كلُّ شـيءٍ بغتةً، لم أفهم ما الذي كانوا يبحثون عنه في غرفتي المنزوية، لقد عبثوا بأوراق البلدية حتَّى... تلك الأوراق البالية التي تُخطِرُ قارئها بأنَّهُ تمَّ استلامُ خمسةٍ وعشرين ألفًا، يتيمة... كان ذلك قاسيًا، ومهينًا، ومهشِّمًا لكلِّ مشاعري".

الجمعة، ٣٠ ديسمبر:

"ماذا تخالُني سأقول لكَ الآن، يا أخي الوحيد... إنَّ السجن دمّرني، لم أعد أرى سـوى جدرانٍ موحشـة مقززة كطحالب البحر، وصـار قلبي قاسٍ جافّ حتَّى أمام ألين الخلق... أصـبحت الآن مدمَّرًا بِكُليتي، صـرت أعدُّ أصابعي مرتان في اليوم، وأكلِّم الحراس مرات عدة بِلَا شيء، هذيان مُعدَم! لا شـيء أبدًا، حتَّى السـلام! لذلك، اغفر لأخيك، وسـامحه، على ما سيفعله... إنَّني ما عدتُ أنا... الذي تعرفه".

وكان آخر ما كُتب في الكرّاس، قبل سويعات:

الإثنين، 12 يناير:

"احتدَّ صُـداعي مُذ غادرتُ زنزانتي؛ لم يعطني آمر السـجن المتوحِّش

حبوبَ رأسي، ولقد أخرج لفيفة تبغٍ قُبالتي ودخَّنها بجسارة وقلَّة ذوقٍ صريحة. لَفَفْتُ المدينة بساقيَّ. أظنُّ أنَّ القرار الجيِّد سيمنحني حياةً جيِّدة. لم يُخبَرْ أخي أنَّني خرجت، ولم يدرِ أحدٌ إذن أنَّني أتمشَّى في أحياء المكلا من جديد".

هبَّ هواءٌ حمل هيجان البحر وتلاطمه إلى مسامع عبْدالغفور فامتلأ ذهنه بالضجيج وانفجارات أمواج البحر، متَّعَ بصره بمعركة الأمواج تلك والقمر البدريُّ يُرسل خيوطًا فضِّيَّة بارِقة تنعكس على صفحة الماء المضطربة بصورةٍ حسبَ معها أنَّها لجَّةُ فضَّةٍ مسبوكة مُذابة، وهي تتمايل وتتعرَّج كحشدٍ من ثعابين السحرة. شعر بأنَّ كلَّ ذلك يقصده ويجذبه من أعلى ياقةِ قميصه الأسود. بلغ منه التوتُّر كلَّ مبلغ، كانت الأحاسيس الدقيقة تبزُغُ آسنةً في ذهنِ عبدالغفُور من دونِ توارٍ أو اختباء، وعَنَتْ تينك الأحاسيس بشعوره إزاء شقيقه قيس، الذي وصل إلى الشاطئ، قرب النصب التذكاري لجنديِّ النخبة الحضرمية، المشيَّدِ خصيصًا لتكريم أولئك الجنود الذين قاموا بتحرير المدينة من أيادي شخصيات أخرى يتعارضون معهم في النهج والمعتقد، بينما يظنُّ معظم الوجهاء والأعيان في المدينة أنَّها كانت خطَّةً مدروسة مسيَّرة، كلُّ الحقائق التي فيها تلفيقٌ وخداع، وما كان ذلك ليعني عبدالغفور إلا بمقدار ما بقى منتظرًا يتأمَّلُ ما حوله وقلبه ينقبض في صخب مع كل الموجودات، وكان الجو يجلبُ لعبدالغفور عصبيَّةً حارِقة، وها هو اللقاء الموعود قد حان حلوله.

تسكَّعَ عَبْدُالغَفور وحيدًا خلال الظلام. غطَّى السكون أرجاء الشاطئ والمدينة، وظلَّ شريطها على اللسان البحري يترقرق بنواويس الأعمدة واليافطات المضاءة كعِقدِ مجوهرات ثمين. هدوءٌ عجيب، لا كلاب تنبح، ولا هرر تموء أو تطوف، الناس نيام، لكنَّ العصابة تنشط. ظهر قيس يمشي من الرصيف المنارِ بعمود يعمل بالطاقة الشمسية، اقترب من رجلٍ بعيد داخل الشطِّ، كان الوحيد تقريبًا في المكان، إذ لمح في الشرق البعيد سيارة داخل الكثبان، وبدا له رجلان جالسان ناحية الغرب أمام منصَّات الاحتفالات، وداخَلَهُ شيءٌ من أمانٍ ودعَة. لكن لمَ ذلك؟ ألم يكن بُهلول قد قال له هُويَّةَ المقابِل وهو صديقٌ قديمٌ له؟ لمَ هو مرتبِك واجِف؟ لقد تغيَّر قيس مذ صار زوجًا، وعمَّا قريب سيكون أبًا. وهذه مفاجآت الحياة اغتنى بها وتصرَّفت الأقدار في تأليفها. كانت هيئته بارِجة عظيمة، غضنفرًا، نجمت عن حقيقة كونه أكولًا مُسرفًا بجينات غير مألوفة. يرتدي (صَارُونًا) إندونيسي مزرقّ دَاكِن بعُصبةِ حِزامٍ راقية من الجلد المذهَّب لونه، وعليه معطف فرو أسود يتَّقي به برودة جوف الليل، وتحته قميص زيتي صافٍ يبدو في جيبه شيءٌ يلمع كدبّوس زينة. جهِدَ قيس أنْ يمسح ملامح هذا الرجل، ولمَّا لم يتعرَّف على شكلِ غازي في البداية، أوجس خِيفةً، وتوقَّف عن التقدُّم، لكنَّ عَبْدَالغَفُور بادَرَهُ مُتَعَجِّلًا، ودنا منه، فما هي إلا ثوانٍ حتَّى اكتشف قيس هُويّته الحقيقيّة.

سلَّمَ عبْدالغفور عليه بابتسامةٍ جافَّة، فبلَعَ قيس ريقه، لِيَرُدَّ السلام من

بعدُ. ومضت بضع ثوان التمع جبينه فيها عرقًا واضطربت حركة عينيه. ما من حنينٍ لشقيقه قد أرَّقه طوال الستِّ شهورٍ الماضية، كان همُّه وتفكيره ينصبَّان في حياته الجديدة، وقد عجَّل زواجه لدواعيْ عَمَلٍ سريَّة خاصَّة به، وفي هذه المرحلة آمن قيس بإمكانية البدء من جديد والولادة بنور الحياة، حتى لقد فكّر في ترك عمله مع كُليب، وأعلمه بذلك بالفعل قبل شهر من الآن. «عَبْدالغفور؟ ما هذا؟ كيف له أن يكون خارج السجن؟ لا أفهم، هل أنا أتخيَّل؟ لا! هذا عبدالغفُور حقًّا! ولكن كيف؟ هل هرب؟! أخي الضعيف النكرة سيجرؤ على الهرب؟ هذا مُحال! ولكني لا أفهم... كيف خرج من السجن! هل وصل تحقيقهم إلى شيءٍ يبرِّؤه... مستحيل! المحاكمة الرسمية لا تزال معلّقة، هل دفع أحدهم عنه الكفالة؟ لو كان ذلك، فهذه مصيبة حلَّت علينا! إنما ماذا يريد منِّي؟ إن كان قد خرج فليذهب بعيدًا!» كذلك فكّر قيس في خبيئة نفسه، وظلَّ يتململ واقفًا يرفع رجلًا ويخفض أخرى دون كلمات، بادره شقيقه فقال:

- ألن تسأل؟
- عن ماذا؟

وسكتا. ثمَّ عاد عبْدُالغفور يفتتح حديثًا آخر:

- أردت أن تكون لحظة عودتي مميَّزة.
- آها! واضح، لقد نلتَ ما اشتهيت!

وضحك قيس بكلفةٍ بيِّنة، وذلك ما أوغر صدر أخيه.

- لا، ليس بعد. إنَّما هاكَ لُبُّ الحديث: لقد صـرتُ حُرًّا. فهل أنت سعيد لأجل أخيك؟

كان قيس ما يزال تحت تأثيرِ مفعول مضغه للقات الذي رماه قبل قرابة نصف ساعة، مما جعله غير رشيد في استخدام عباراته، وها قد قال مِن ثمَّ:

- سـعيد؟ أكيدٌ أنني سـعيد برجوعك! ولكن ليس إلينا. نحن لا نزال في خِصامٍ وشقاق. لذا إن كنت سعيدًا الآن، فسأرتاح أكثر لو قلتَ لي غرضك مني.

أبدى عبْدالغفور خيبةً ما، ونكَّس رأسه في هيئة حزينة، شعر بأنَّ فرائصه ترتعد، والبحر ينفجر ويحرِّضـه على إقرار ما يريد قلبُه. ثمَّة شـيءٍ بداخله ناقمٌ على كلِّ عنصرٍ بشريٍّ اشترك في تكوين حياته بعمد أو بصدفة. إنَّه يشعر الآن بالدوار، والقلق قد أخمد لهيب أفكاره، وإذ بفوجٍ من مشـاعر متناقضـة بين حب وكره وغضـب وسـماحة يلتهم لفيف عواطفه ونواحي قلبه. انحنى عبدالغفور على نفسه وقبض على ركبته بِيَدٍ والأخرى على رأسه معلَّقة. كان يحسُّ بأعراضِ مرضه إحساسًا حادًّا مروِّعًا، وكان الصداع المزمن الذي لم يبارحه ما يفتأ أن يحكم الوثاق عليه، احدودق بهما ظلام الليلة القمرية الكاملة، مع سـحائب تكوَّمت في السـماء بدأت تحجُبُ ضـوء البدر شـيئًا فشيئًا، وطغت زمجرة المحيط على صوتهما.

- إن كنتَ سـتبقى صـامتًا، بهذه الهيئة اليائسـة، فحريٌّ بي أن أرحل. لماذا اخترت هذا المكان من الأساس؟ إنَّه محطُّ مظنَّة السوء.

كان قيس قد جفَّ حلقه من فرط رفعه لصوته أمام هيجان البحر وهبوب الريح القارَّة المعاكسة له، كانت المسافة الفاصلة بينهما تقدَّرُ بمترين على وجه التقريب، وإذ ذاك، تمتم عَبْدُالغَفُور يحدِّث نفسه، غير عابئ بأخيه:

- لو كنتَ تهتمُّ لشأني لعرفت أنَّني أحبُّ هذا المكان.

- ماذا تقول؟

هنا، أحسَّ عَبدالغفور أنَّ الأمر منتهي، ودبَّ اليأس الشيطاني في حناياه، وشعر بالحمَّى والرعشة تغزو عقله وأطرافه. كانت الرياح تشتدُّ وتهبُّ جاعلةً مسامعه تدوِّي وتصرُّ فيها الريح ببرودتها مِمَّا هيَّج صداعه وأغضبه. كان يحلُمُ بالمحيط الصافي المترقرق كصفائح الزجاج اللمَّاع وهو بين قضبان السجن كمكانٍ يستطيع أن يكون فيه حُرًا، يلجأ إليه بأمانيه الواهية، وقد تعوَّد أن يسوق نفسه إلى شواطئ (الستِّين) ليستجمَّ ويفرِّغ الحمم المكبوتة، ويخبرها أنَّه عندما يتزوَّج سيأخذ عروسته الجميلة إلى هكذا مكان أمام البحر وعلى شطِّ المحبِّين يواسي القمر وينادم النجوم ويتمازج مع البحر لعلَّه يجد في أعماقه راحةً مفقودة. لكنَّه الآن بلا زوجة، يقف كجزء من الظلام، يرفع رأسه، ويرجُّه، فتتلاشى كلُّ الخيالات، ويزرُدُ عينيه على قيس، وقد التمعتا دمعًا. يدعكهما بظهر يده العسرى، ويهتف كأنما سيُقبل على نوبة أعصاب:

- يا أخي العزيز، إنَّما أردتُ فقط عناقًا دافئًا.

- عناق؟ ها... يا الله! حتّى السجن لم يساعدك على التخلّص من طفوليتك؟

كان الجوُّ محفوفًا بالتوتُّرِ والانقباض، استقامَ عمودُ عَبْدالغفور الفِقَرِي، ثمَّ مشى ببطء نحوه، بيدٍ على رأسه، وأخرى في جيب سرواله وليجة، وقيس يرمقه بنظرة اشمئزاز، حتَّى رثى لحاله، وشعر بشيءٍ من الشفقة الحقيقية له؛ فأطلق جناحيه، منتظرًا وصول شقيقه إلى أحضانه، وعبْدُالغَفُور يتقدّم، ويكابد العناء كما لو كان مصابًا، وكان رأسه تغلي من الخوف. وفي لحظةٍ بارِقة، ارتمى في حضن قيس، ويده العسرى تضمُّه إليه وتحني عنُقه، أمَّا الأخرى فقد قبضها على شيءٍ باتّجاه قلب أخيه.

لقد أقرَّ بما توحي له نفسه، كانت يد عبْدالغَفور اليمنى السمراء الغارقة في ظلمة هذا المساء، تشدُّ برجفان بادٍ على سكين، غرزها في قلبِ شقيقه قيس، حتَّى نكص للوراء مجفِلًا، مصعوقًا، وعلائم وجه عبدالغفُور قد استحالت لغضبٍ مشدودٍ وخوف رهيب، حتى امتلأ وجهه بالغُضُون وتيبّس كذلك. كان منقطع الأنفاس، يرتجف ويترنّح للوراء كنِمْسٍ فِي عاصفة ثلجية لا مكان له فيها. سقطت السكين الدامية وتمازجت القطرات الحمراء مع حبات الرمل الصفراء في تلك الظلمة، مشكّلةً رقعةً مخيفة، وبدت يده قانية كصلصة الفلفل الأحمر، وقيس يجفل ويبصق دمًا، ويغمغم، والأرضُ متعجِّبةً تقِفُ بثوبها البريء، وكلُّها تسأل بتعجّب وذهول: لماذا حدث هذا؟!، فلا يجيبها أحد.

سقط قيس وتمرّغ بالرمال وهو يلفِظ أنفاسه الأخيرة. كان لا يزال يتمتم بشيءٍ ما. رغم الفجيعة التي أصابت عَبْدالغفور، والشعور الغريب الذي برق له بأنَّ شخصًا آخر قد اقترف هذه الجريمة بحقِّ أخيه، فقد خالجَهُ بعد لحظات صفاءٌ وراحةٌ في نفسه، واعتقد بأنّ صداعه قد زال. لقد ظنَّ أنَّهُ قام بأمرٍ لن يقبل أن يُعذل عليه، إنَّه في غاية معاني التبرير والتعذُّر.

حوَّل نظره عن صراخ قيس للحظة تمتَّع فيها بِأَلَقِ السَّمَاءِ ومُزْنِهَا وحجابِ قَمَرِهَا، متجاهلًا جلجلة البحر الهادر أمامه، ثمَّ ثاب إلى رشده ونزع من جيبه ورقة، وتقدَّم من شقيقه المتقلّب هناك، حتَّى استطاع أن يسمعه يُدَمدِمُ وهو يحتضر الموت:

- لديَّ... عائلة، على العكس.. منك.. يا نذل!

لم ينبس عَبْدًالغَفُور ببنت شَفَةٍ، وارتكنَ إلى السكوت مُذعِنًا لتجلِّةِ هذا المشهد حيث يحومُ مَلَك الموت فوقهما يتحيَّن فرصةَ قبض روح هذا الرجل الضخم، والدماء تندلق على رمال الشاطئ البريئة، والموج يلطم بعضه بهولٍ وجنونٍ كأنَّما هو زوجة قيس تَعْوَلُ وتنوح نواحًا يخرق طبل الآذان. كان عبدالغَفور يتأمّل هذه الملحمة، حتّى رمى الورقة مفتوحةً على وجه قيس، فحاول تبيّن ما فيها بمشقّة، ولم يفاجئه المكتوب بقدر ما فاجأه خطُّ الكاتب. عاد قيس يقول في آخر أنفاسه كواحدٍ من البَرِيَّة:

- أنا.. آسف.. لم أرد هذا.. اغفر لي.. أنا آسف.. كنتُ أعلم.. أنِّي لن أفرَّ.. من دفع الثمن.. ولكنِّي أخوك الأكبر.. لم أتخيَّل أنَّك..

آه!

سأله عبدالغَفور بصرامة:

- هل تقرّ بهذه الحقيقة؟

- نعم.. أُقرّ بها.

قال ذلك وهو يَعتجن غيظًا ويرعف دمًا، غير راضٍ بموته، ناقمًا على هذه الليلة، وعلى ليلة موت والده، وعلى ليلة مقابلته كليب، وعلى ليلة ولادته أيضًا.

انتفضت جثته والدماء تسيل وتنداح، والأمواجُ تثبُ كالأُسُدِ أيُّها يظفر بالجاني والمُدان، والسماء تخجل من إظهار مصباحها، والقمر بنفسه استحى وعاف الظهور فعمَدَ إلى الاختباء خلفها. ومع سقوط موجةٍ عظيمة، دُقَّت قائمتا عَبْدالغَفُور وأسقطتاه بلا قوَّةٍ فيهما على حمله، وتمرَّغ بالرمال وجهه، ثم استدار على ظهره، يتشهَّق الهواء النَّدي، بجانب جثمان شقيقه الوحيد.

هناك أحسَّ بحرارة الدماء لمَّا سالت حتَّى لامست يده اليسرى. ونظر إلى سقف السماء المحجوب بالغيوم وهي تُبرقِل. هل من عاصفة آتية؟ ولكنَّ العاصفة قائمة هنا، في اليابسة، بين شقيقين من دم واحد.

ظلَّ مستلقيًا بجانبه، بذهنٍ فارغٍ لا يَقِرُّ على شيءٍ، وجرت الدقائق، وسُمِع هزيم الرعد، والغَمامُ تطوي بعضها وتجرُّ أخراها لأوَّلها علَّها تلحق المشهد وتعصف فوقه كلَّها، إلى أنْ بكت السماءُ بكاءً مُرًّا خالطه الغضب في

رعودها. "ولماذا تبكي هذه السماء؟ علام هي غاضبة؟ من هذا الذي يستحق ذلك؟" كذلك برقت الأفكار في بال عَبْدالغفور تعصف به وتؤلمه كلَّ الإيلام، وانتهى من ذلك بأنْ صرخ صرخةً أوجف لها صدره، وإذ به يصيح بكلماته:

- والآن أيّها العالم.. أخبرني، هل ما زلتُ محبوسًا، أمْ أنِّي حُرّ؟

كان يعتقد وهو يرى جثة أخيه أنَّه دُفِعَ إلى هذا العمل دفعًا بغير قدرةٍ على قمعه.

اشتدت العاصفة، وانطفأتِ الكهرباء وأعمدة الضوء، وخيَّم الظلام مخيفًا باردًا، وبدا البحر مَسجُورًا هَادرًا يَشجُبُ ما حصل أمامه، والسماء ترمي دمُوعَها... انقضت خمس دقائق أو نحوها، والشقيقان يبدوان نائمان قرب بعضهما، عندئذٍ، عَبَر بهما الرجلان اللذان كانا جالسين أمام المِنَصَّة، وهما يهرولان ويتجاذبان أطراف الحديث وسط اندلاق المطر، مِن ثَمَّ لم يفصلهم شيء سوى بِضع أمتار حالكة كالفضاء. وسط ذلك، حاولا استراق بعض النظرات، بداعي الفضول، لكنَّ المنظر لم يعجبهما، فخافا، وأكملا ثرثرتهما تحت سماء راعدة مهتاجة، دون أن يكترث أحدهما على الأقل لما حَدَثَ في شاطئ المدينة، هناك قرب نصبِ الجندي الذي يذكِّرُ بمناقبَ بطوليَّة، وعلى شاطئهم الآمن المستكين، وحدَهَا السماءُ من اهتمَّت وعالجَ سويداءها الأسى على ما سطَّرته يدُ عبْدالغَفور.

كانَ يحسُّ بأنَّه سيتعرَّض لنزلة برد، وها هي موجة حمَّى حامية تصطلي

بها جبينه، وأحشاؤه تتقلَّبُ في اضطراب وتوعُّك، وشعر بأنه مقلوبٌ رأسًا على عقب، وها إنَّه يتذوق دمًا في فمه جعله يتقزَّز ويَحُسُّ بالغثيان، وإذْ بِهِ يبصُقُ بُصاقًا غير لزج مائيًا، ويوشك أن يتقيَّأ. خارت مفاصل عبدالغفُور وتقيَّأ ماءً أصفرًا، تخيَّلُ بأحاسيسَ حادَّة محمومة أنَّ شيئًا من قلبه صار بين يديه انزلق كالبُلغم من فمه النتن. عاد يصرخ من جديد باهتياج أعصاب. وولَّت الدقائق، وهدأ المطر قليلًا، وقلَّ حبُّه، فعادَ إلى عبدالغفُور شيء من التفكير السليم، حتَّى بالنسبة إليه، فالحاجة إلى التفكير هامٌ في مثل تلك المواقف.

انقلب بالكامل على أخيه، يفتِّشُ جثمانه، وحزامه الجلدي، بحركةٍ مرتبكة مرتعبة، وها هو يتوقَّف فجأةً، ويمسك رأسه بقوة ويشدُّ عليه؛ أراد لو يقدر على نزعه، ليحيا بلا رأس، ولكن ذلك من المستحيلات. وما جدوى الهذيان الآن؟ إنَّه مريض، مريضٌ جدًّا، وإنَّما هو يتجلَّد الآن، ويغالِبُ نفسه التي جرَّتهُ إلى ما هو فيه، وكان يحسب أنَّه سيرتاح إذا ما انتصت لكلماتها ونفَّذ مخططاتها. ومع تناقض الواقع مع مخيلته، وانسحاب كل شيء عنه، انهار جهاز عبدالغفُور العصبي، وظلَّ كذا مرَّة يصرخ في العراء، ولا أحد يقربه، فالكلُّ قد فرَّ من الودق المنهمر، بيدَ أن عواطفه حكت له حقيقة أخرى. قالت له: الجميع، حتَّى السماء، تركوك وحدك! واحمرّت عيناه من فرط هتونها، حتَّى خلا باله من الأفكار، وصار هامدًا بشكل مرعب، عاد يقلُبُ جثَّة قيس، وإذ بشيءٍ يلمع قد سقط من حزامه، إنَّها المفاتيح. التقفها

من الرمال اللازبة المبتلّة، وضـمَّها إلى صـدره، وناظر في الرصـيف، إنَّ درّاجته هناك، قد افتقدته، وهي الآن وحدها من سـتضـمُّه. فما لَهُ لا يهرع إليها، فيقبِّلَها، ويفرُكُ خزَّانها بحبّ، ويتحسَّسُ إطارَيْهَا باشـتياقِ طفلٍ لِلُعبة، لقد فكَّر بأن يفعل ذلك، ولكنَّه ألِفَ عجزًا في بدنه، وحاول حمله إلى الدرَّاجة، وخطى بترنُّحٍ بعض الخُطوات، وأخيرًا ثاب إلى رشده، وهذا وهو مريض مقبلٌ على أن يشقَّ رأسه بتلك السكين، فانتبه إلى بقاء جثَّة أخيه على الشـاطئ، كأنَّها حوتٌ قذفه البحر. قال لنفسـه في تلك اللحظة وصـوته يُهَمْهِمُ ويتهدَّج:

- عليَّ.. رميه.. إلى هناك...

رجع يمشـي بهوادة نحو أخيه، فبَلَغَه، وجرَّه بصـعوبة من قدميه إلى الخضـمّ المسـجَّر، والموج أمامه يتكسَّـر كقطع الزجاج الضـخمة، والرذاذ يفحُّ منه على وجهه البليل، لغايةِ ما وجَدَ أنَّه قد قطع عمقًا كافيًا، فرمى قدمي شقيقه، فغطَّاه البحر. وهكذا وارى عبْدالغفور سوءة أخيه، ولكن هل أصبح من النادمين؟ في تلك اللحظة، لم يكن يفكِّرُ بشـيءٍ بتاتًا، كان فارغ اللب، مأخوذًا بما تراه عيناه وما يحسـه جسـده من خوار وانهيار. أنظر إليه: يتثاقل على كثبان رمل، يتمايل عليها، يتنهَّد مهمومًا كما لو أسـقطت شـئون الدنيا كلها في يديه، يبحلِقُ في عالمه ويصـرخ، يريه عقله أنَّ عليه أكبالًا تقبض معصـميه، ويسـمع هَوِيَّ موجة عظيمة على سـاحل البحر المحتقن غضـبًا، وصـوت انفجار الماء قد هزَّ له قوائمه، فخرَّ أرضًـا، متصـدِّعَ المفاصـل، ثمَّ

عاد يبكي، ثمَّ نهض يسعى ليغادر، وكلح وجهه فرسمَ صُورةً غضبى، وغالبه الكرى، فصار ينعَسُ ويتثاءب. نظر إلى درّاجته، فهرع إليها، والتفَّ حولها، وفعل ما نوى، وامتطاها، تحت سماءٍ ملبَّدة بالغيوم المدرارة، ورغم أنَّه المساء، أحسَّ في داخله بتوعُّكٍ فائر، وشعر بضغطه ينخفض كما لو كان في عشيّ غائم.

إنَّ أفضلَ وقتٍ للشعور بعدم الاتزان واختلال الكيان مع تداعي القيم والتعاليم في قلب الإنسان، وتلظِّي الحمَّى وانعتاق السلوكيات الشاذة العنيفة والغريبة، هو حينما تكون السماء ملبَّدةُ بالغيوم، صامتةً تحبس ماءها إبَّان الغروب، تاركةً العالم تحتها في ظلمةٍ رمادية المعالم، وعلى ذلك اغتسال طفيف ورطوبة خانقة جدًا وإحساسٌ بالتقزُّزِ والرغبة في البصق والامتناع عن أيِّ سلوكٍ حيوي، مع كونك، أساسًا، لم تنل قسطًا كافيًا من الراحة، إنما نمتَ لسويعات، وأنت أيضًا منشغل البال مهمومه، لم تسطع قضاء حوائجك، سخريةٌ على وضعك من العَوام والسواد الأعظم من الكائنات تحسبهم ينكِّتون عليك. تشعر بأنك ستفقد صوابك وشخصيتك فتبدأ بالهروب منك لِأنَّك دخلتَ مناطق غير مأهولة، غريبة... لم تغتسل، كلُّك قذر، تشعر بالقلق والتطلُّب من حولك شاقٌّ مؤذٍ. تريد قتل نفسك، ولكن، تشعر بالدماء تتدفَّق غزيرةً داخل رأسك ومن حولك، هل أنتَ وسَطَ بركةٍ من دم؟

كذلك شَعَرَ عَبْدُالغفور طيلة يومه، لكنَّه ترجَّل الآن، وأدار المفتاح،

بعد أخطاءٍ من يده المرتجفة في إقحامه، واتَّجهَ غربًا إلى شـارع مسـجد (برِّ الوالدين). هناك رأى تحت عمود إنارة معطَّل رجلًا نائمًا في العراء، يصـطبر على العاصـفة والظلام والناموس وأصـناف المؤذيات، فضـحك منه، لكنه شـعر بالغثيان، فحجمَ عن إكمال درب الضـحك، وقرَّع نفسـه بشـدة، وقال ينادي في الظلمات المتطابقة على الشارع:

- يكفي! يكفي تفاهات!

وأحسَّ مِن ثَـــمَّ برغبة في التمتّع والطعام، لكنَّهُ مفلس، وفاته أن يأخذ نقود شـقيقه، ولعلّ ذلك شـيءٌ تمنَّع عليه بسـبب الظروف، لكنَّه لم يعضَّ أصـابعه حسـرةً على ذلك، وها هو يلمح فتى شـابًا، أسـمرًا بُحتُري، يُلاحقُ خطواته، على أنفه البارزة نظَّارة، وعليه بدلةٌ من قميص رياضـي أحمر وبنطلون جينز، اعترضـه عَبْدالغفور مسـتخدمًا درّاجته لحجزه، وقال له مهدِّدًا:

- أعطني فلوسك وإلّا!

لم يفهم الفتى شـيئًا. كان ينظر إلى يده، لكنّها كانت مغسـولةً من كل شيء.

- ها؟ هل أنت مجنون؟

فضربه عَبْدُالغفور، سقط الفتى أرضًا، عاد يكرّر:

- أعطني فلوس، أسرع هيَّا!

هلع الفتى، وأخرج من جيبه ورقتان صـنف ألف ريال، ورماها على

الإسفلت والظلام يحاوطهما ويلفهما، وعندما انحنى عبْدُالغفور لالتقاطها، هوت على رأسه ضربة من الفتى، فسقط أرضًا، لكنَّه زمَّ يديه على النقود، وطمَرَ الفتى مذعورًا ليركض بعيدًا. وعلى وجل، وتخافت في الحركة، صَعَدَ عَبْدُالغَفُور درّاجته، وهمَّ يقودُ بسرعة كبيرة، مرَّ على رجلٍ يلوِّح فوق مطبٍّ فتجاهله، في السابق كان يخجل من الملوِّحين بأياديهم في الطريق فيرضخ لهم ويذعن لطلبهم بالصعود معه، أما الآن، فلقد صار عنيدًا وأكثر حريَّة. منفتحًا لكلِّ الاحتمالات والفرص.

دخل حَيِّ المساكن الرّاقي، الذي لم يكن قد زاره قط في حياته، أمَّا الآن فقد رغب في زيارته والمرور به ليتذوق أكلات مطاعمه. كم من مرَّةٍ سيتذكر عبْدالغفور أحداث هذه الليلة الصاخبة معَ وَجيْبِ قلبه، إنَّه في النهاية راضٍ جدًّا عن نفسه. وعلى مدخل المساكن، بعد الحديقة القاحل بعضها والمورق بعضها في أسيجةِ شباكٍ تحمي وتعزل الآخر، وبعد رؤيته لِأنقاضِ ملاهي ترفيه صغيرة في ركن الحديقة المجاور للمدخل المفتوح على مصرعيه، وإحساسه بوحدة الملهى واشتياقه لعنفوان الأطفال وصرير المراجيح وثقل الأحذية على أرضه التي صارت سوداء مجدبة، كأن المكان قد فقد ناسه ولكن لم يفقد ذاكرته وبريقها الدافئ. بعد مروره بكلِّ ذلك وأكثر؛ فهذا سور (جامعةِ حضرموت) عن يمينه يقبع منتصبًا في حالةِ تقاعس وفتور، كأنَّ في أعينها قذًى وَوَرمًا يجعلها تُخمَةً بالشجن، ومطعم (المَعَاري) في الجانب الآخر للحديقة بعد الشارعين الصاعد والنازل يضجُّ بزبائنه

الشـــماليين وغيرهم، بعد أن حاذاه عبدُالغفُور، ونَحَمَ بتعب ظاهر عليه، ردَّد جملة من أغنية أجنبية مع تحوير منه طفيف:

"Let the sky fall! I will stand tall!"

"دعِ السماء لتسقط! سأبقى واقفًا بشموخ!"

تنهَّدَ بعمق، وابتسم من قلبه لِأوَّل مرَّةٍ منذ أن زُجَّ في السجن.

نزَلَ في مطعم يدعى (أجواء طيِّبة) يطلُّ على منتصـف الشـارع، لهُ دوَّار شـاورما تطهى على الفحم المتوهّج، رصـيفه مبلَّط نظيف، والخدمة حيوية مشـتعلة. قصـد الكاشـير وعقله يريد فقط أن يأكل، ويمرح، ويغنِّي. لم يعر أعين الناس التي حدّقت فيه لمنظره المبتل اهتمامًا، أفزعه ذلك بالتأكيد، لكنَّ جوعه طغى على جزعه وتوجسه، وقال للمحاسب بلهجة هشَّة:

- أريد حبّة.. شاورما.. أو لا، اجعلها حبّتان.
- طيب، شيء ثانٍ؟
- نعم.. طُوب حليب بالموز.. عفوًا كوب..
- طيّب، حسابك ألفين.

واستلم الإيصال، وبطرفة عين أعطاه للنادل، ولم يصدِّق عَبدُالغَفُور أنَّه بإمكانه الجلوس لينتظر شيئًا ليس بيده في سكونٍ أخيرًا!

هَبْ أنَّه نهض الآن، وحاول غسـل بقايا بقع الدم، التي دعكها بماء البحر والمطر، ولكنه لم يزلها تمامًا، فهل سـيرقبه أحد ويشـكُّ به؟ المطعم ليس به زبائن كثر الآن، وعجلة الشـاورما توشـك أن تنفد، والليل يطوي في

طيّته الخليقة يحثّهم على النوم. ليس بوسع عبدالغَفور أنْ يرهق عقله بقليلٍ من التفكير، وسرعان ما فزَّ من مكانه وقصد المغسلة، وأخذ بيمينه غُرفةً من الصابون، وطفق يدعك كفَّيه بقوةٍ حتى اغتمرتا بالرغوة، وكان من فرط تعبه واختلاله أنْ سَفَهَ كلَّ عين ترمقه من داخل المطعم أو من خارجه، بينما كانت كتفاه لا تطيقان حمل رأسه. إنَّه يحاول التمتّعَ والشعور بالقوَّةِ والتماسك بعد الواقعة التي تخطَّت توقعاته. وعاد إلى مقعده، داخل غرفة المطعم بجدرانها الصفراء، ورمى جسده بتثاقل على الكرسي الأبيض المصنوع من العاج. ولَّت الدقائق هاربةً من يد الزمان، وجيء بالطعام، فالتهمه عبدُالغفور باستمتاع، كأنَّها أوَّلُ وجبة له في حياته. ومن شدة سعادته ومرحه، وبعد أن أكل أول شطيرة، قام ينادي النادل فهبَّ إليه، وقال له:

- هذه الشاورما لذيذة!

تفاجأ النادل، ثم تضاحك وقال:

- بالهناء والعافية. شرَّفتنا!

لكنَّ عبْدَالغَفُورِ أردفَ بردٍّ غريب:

- لا توقفني الآن! أنا خارجُ السيطرة!

رفع النادل حاجبًا، وافترَّ ثغره، أهذه نزوة من نزوات زبونٍ ليلي متأخِّر؟ ربَّما. لكنَّ الأكول ههنا بدأ يترنَّم ويدندن، إنَّ الأغاني الأجنبية عادت لتستهويه مذْ دخل السجن. وابتعد النادل، وقضم عَبْدالغفور شطيرته الثانية، وأعقبها بِكَرْعِهِ للعصير، وانتهى ذلك. عاد إلى درّاجته، وهمس لها: "أنا

معك الليلة". وجالَ في حي المساكن، كأنَّه في موعد غرامي، والأشياء من حوله، على رغم بساطتها، تستميله بفتنة ومتعة. لمح طاولات البلياردو عن يمينه تربَعُ على الرصيف المعبَّدِ بالحجر، فركن إليها، وطالَبَ باللعب، وهو يتبسّم صامتًا في نشاط وانتعاش لم يعهدهما من قبل. ولمَّا حان دوره، فتل العود وضرب الكرات ضربة قوية أنجمت عن دخول ثلاث كرات في حُفر متفرِّقة. فصاح في نفسه: "نعم! نعم! هكذا!" ولعب الثانية، فأفلح في ضرب الحجرة الرابعة في حفرتها، ومن فرط اغتباطه طفق يغنِّي بصوت منخفض أقرب للدندنة:

"Don't stop me now! Cause I am having a good time, having a good time!... I am goanna go, go, go... There's no stopping me!"

"لا تتجرّأ على إيقافي الآن! لأنني أحظى بوقت طيب، وقت سعيد! إنّي ذاهبٌ، سأذهب، سأنطلق... آه! لا شيء بإمكانه إيقافي!".

كان يكمل كلَّ كلمات الأغنية، وهو يلعب دورًا خلف دور حتَّى أنهى الأحجار كلَّها دون أن يلمس خصمه عود اللعب. فصفَّق راعي الطاولة وأُعجب بعبدالغفور، الذي قابل ذلك بابتسامةٍ، وراح يبارز الثاني، فينتصر، والثالث بعده، فيغلبه، حتَّى خسر في اللعبة الرابعة، وترك اللعب منزعجًا على حين غرَّة، إنَّما هو يريد الفوز والاستمتاع فقط، فلمَّا مُنِيَ بالهزيمة شعر بالضيق والاختناق، فغادر.

من فوق درّاجته، على طريق حارة ١٩٦ شَقَّة، والسحاب سبق

وانقشعت، غنَّى تحت أضواء بيضاء ساطعة، كأنَّ القمر فوقه بذراع واحدة. وأخذ يرنّم بانتشـــاء شـــاعرًا بتمثُّل كلمات الأغنية في حياته، ومطعم (بيت البيتزا) أمامه بالضـــبط، برصـــيفه العالي ككعب امرأةٍ نبيلة في عرس، يلمع ببياض ويبرز بنعومة بشـــرتها، والجميع يتَّخذ له مِقعدًا، ولعلَّ طفلًا ما كان يَشْرَئِبُّ بعنقه ناحية عبْدالغفور، ويصيخ السمع إليه، فلا يفهم ما كلماته التي بدت في ذلك المكان بوهيمية تمامًا:

"Is this real life? Is this just fantasy? Caught in a land side, No escape from reality!"

"أهذه حياة حقيقية؟ أم هي مجرد وهم وخيال جامح؟ أبدو عالقًا في هامش الأرض، لا مفرّ من الواقع!"

"I am just a poor boy; I need no sympathy... Because I am easy come, easy go... Any way the wind blows doesn't really matter to me... to me!"

"إنني مجرد فتى فقير، لســـت بحاجة إلى مواســـاة... فأنا آتي خفيفًا، وأرحل خفيفًا... مهما ظلت الرياح تهب، فلا يوجد شيءٌ يعنيني حقًّا..."

مَدّ صَـــوته مع نهاية المقطع، وطفق يغمض عينيه، يتخيل نفســـه على مسـرحٍ كبير، ليواجه الحقيقة. مشـاعره قد تبلورت الآن ورسـخت في قمقم نفسه، ظلَّ يغني حتَّى آخر الليل، بكلمات حسَّاسة تلامس أعماقه.

كالعذراء، كان حي المســـاكن يختبئ في خدره، يزدان بعفّته وهدوئه، ويُرســـل نِيرًا مزخرفًا من كلِّ لافتةٍ تســـاند نور القمر الناعم اللطيف. كانت

بؤرة الحي عند مسجد الصديق، وهناك، يشدُّك بصرك للتمعُّن في الأشجار الباسقة تعلو مع صرح المسجد ومنارته الوحيدة، ولو كان الوقت مغرِبًا، فسترى الشمس تدلُكُ وتذوب خلف المسجد تاركةً يدها كأميرة تودِّعُ فارسها في ليلة حفلٍ راقص، مع نظرة الشفق الوادعة حيث يخبرنا أنَّ الشمس الآن ستخلد للنوم ملءَ جفنيها.

عَسَسَ عبْدالغفور مارًّا بهذا الحي الراقي، وهو يطوف عليه بنظرات حماسية منبهرة، ويتبسّم لأجل قطَّة هرَّت أو جملٍ أرغى في مذبحة بالقرب، وفي (حَارةِ بَانَاجَةَ)، ثمة طاولات لعب أخرى، والشباب حولها. تحدّث عَبْدُالغَفُور عنهم في قوله بنبرة محتقرة:

- مقاهي النت، النميمة، الإباحية والعادة السرية، التنمّر والاستهزاء بالآخرين، الفضول، البلياردو، التعصّب وكرة القدم، وألعاب الفيديو؛ كلُّ هذه الأمور هي أفيون وكوكايين هؤلاء.

ساقَ عَبْدَالغَفُورِ دراجته إلى أماكن عدَّة، فشَرَف على ملاعب (الستين) لنصف ساعة يتفرَّج في اللاعبين، ثمَّ غادر إلى (الديس)، تحديدًا عند (محطَّة المنوَّرة) الكهربائية، خلف المؤسسة الاقتصادية، وأمام (ملعب بارادم)، هناك على دوَّار جادة الطريق، لمح متسوِّلتان بشرتهما صفراء رقيقة، فركَّن إليهما، وأخذ يتحدَّثُ إليهما:

- الوقت متأخر، ماذا تفعلان هنا؟
- نطلب الله، حتَّى التسوُّل يحتاج صبر!

- آها! ولكن، يمكنكما الاسترزاق بطريقة ثانية.

- ها؟ ما معنى كلامك؟

ورفع حاجبيه وغمز لهنَّ. كان قد طاش صوابه تمامًا. "انقلِعْ يا مجنون!" قالت الأولى وهِيَ تَبْدُو أَسَنَّ. أما الثانية فقد اكتفت بأن أصدرت طَخْطَخَةً حَتَّى سال لعابها.

وتبسَّم عَبْدُالغفور، ثمَّ أخذ يُصرِّحُ ويكاشفهما بحكاية ليلته المجنونة، ويقول بنبرة راضية مرتجفة:

- أنا سفحت دمًا في هذا المساء.

أعولت المرأة الأولى الكبيرة دون أن تفهم:

- ماذا تريد منَّا! اذهب في شأنك!

بسط عبْدالغفور يداه وقال غاضبًا:

- أُص! أنا فقط لا أستطيع التوقُّف. يدي تتصرَّف من تلقاء نفسها، تمعَّني! أليست ترتجف أمامك؟ آه...

وتبرَّمت الأنثى الكبرى، أما الثانية، فكان عَبدَالغفور يستهويها، فداعبت يده ونظرت في عينيه نظرةً مفتونة. شعر عَبْدُالغَفُور بالشهوة، ولكنه يئس سريعًا من الفتاتين، فتركهما وشأنهما، وتمشَّى في الشرج، حتى ضَجِر.

لقد تفاجأ وصُدِم، رغم علمه المسبق بذلك، حينما دخل بيته مستخدمًا مفاتيح قيس، بأنَّ غرفته قد صارت واحدة مع غرفة شقيقه، وفيها زوجته نائمة. أوقعه ذلك في مأزق، لكنّ نفسه استهلَّت بحياكة الأفكار، وكانت

توَّاقةً لكلِّ شيءٍ، بيدَ أنَّ حركته المضطربة جعلته يتعثر بطاولة بالقرب، فإذا بغرفة قيس تفتح، فاختبأ عبْدالغفور، كأنَّه لص، كأنَّ هذا ليس بيته، اختبأ وقلبه قد أخذ منه الرَّوعُ كلَّ مأخذ، من ثمَّ التاع فؤاده بسبب خوفه وفزعه من أهله، وكابدته المشاعر المتناقضة التي ضاق بها ذرعًا. عندما أحسَّ أنّ زوجة قيس عادت إلى حجرتها، دخل الخزانة، واجتذب مخدة من الديوان المحدود، وخرَّ عليها طالبًا النوم.

إنَّهُ في النهاية، قد عادَ إلى منزلِ والده، الوحيد الذي لم يتبرَّأ منه، وغاب في نومةٍ عميقة مَرَضيَّة، وفي الصباح صعق أهل الدار بوجوده مرميًا، وحاولوا إيقاظه، غيرَ أنَّه واصلَ النوم حتى أذان المغرب.

❊ ❊ ❊

شِبهُ نِهايةٍ

نُميَ إلى أهلِ قيس، في السـاعة التاسـعة ليلًا، أنَّ ابنهم الأكبر مفقود. وزارهم المفتِّشُ لَبيد، وكَانَ عَبْدُالغفور حينها في الحَمَّامِ يَستَحِمُّ. كان صدر لَبيد يعجُّ بالشـكوك، ولمَّا يصـل إلى نتيجة تُبرّر دواعي الاتِّهام لِأحد، ظلَّ ريَّابًا يتربَّصُ ويتخيَّلُ أحداثًا عَدَّها ممكنةُ الحدوث. قابلَ بعد دقائق الرجل الذي غادر السجن بالأمس. كان قد تيقَّن من براءته، ورسم في خياله صورة خلقِ شـقيقه المفقود لِمكيدةٍ تُوقِعُ عبْدَالغفُور في شِـراكِها، والشـائعات قد تنامت بعد سـجنه، وقيل لِلَبيد أنَّ قيس رجلُ عِصـابة يعمل تحتها؛ وذلك جعله يؤمن أكثر بحقيقة خياله المرسـوم. كان على إحاطةٍ بوضـع الأسـرة المالي، فلمَّا وجد قيس قد تزوَّج، وامتهن مهنةً لا يعلمها أحد، وصـار كالشيوخ الكبار في مجالس القات الخانقة، ظلَّ في خياله ظنينًا يحلُمُ بالإيقاع به. وهذه رغبات المفتّش الاعتيادية؛ فما إن يشـكَّ في أحدٍ من الناس، ينقلبْ عليه بجهده وجهاده كي يصدُقَ تحرُّزه ويثبت حدسه ويميط اللثام عن غبش رؤيته، فلا يعود هناك طَشاشٌ ولا عمى، بل بصيرة صائبة حقَّة.

بدأ لَبيد محاورة المتّهم الأقرب والأبعد على سواء:

- يبدو عليك الانتعاش.
- ما تزال رأسي تقطر.

وافترَّ باسمًا في وجهه.

- هلَّا جلسنا لنعدَّ بعض الأسئلة ونحاول معًا حلَّها؟

- طبعًا، تفضَّل.

كانت لهجة عَبْدالغَفُورِ قوية حازمة، لم يبدُ عليه تعب ليلةِ أمس المجنونة، لكنَّه فوَّت شيئًا، إنَّ عقله لا زال يفكِّرُ في جريمته، ونفسه تتقلقل خائفة من العودة إلى السجن. وجلسا. سأل عَبْدُالغَفُور:

- هل يمكنكم إيجاد أخي؟

- يعتمد الأمر على عوامل... لكن ربما نجده.

هزَّ رأسه، وحوَّل بصره إلى مشمَّع الأرض المثقّب.

- ماذا فعلت بالأمس؟

وُخِزَ قلب عَبْدالغفور، وبدأ يشعر بالقلق، وطفق الصداع يناكده كرَّة أخرى، ولو أنَّ لَبيد استخدم السيكو جِلفانومتر [1] لأوعز له ذلك أنهُ يُجانب الصدق.

- لا شيء مهم، تسكعت، شممت هواء المكلا، والبحر.

وعاد لَبيد بفطنته وحنكته يسأل:

- البحر في الليل! همم... ألم تقابل شقيقك؟

- لا، دخلت البيت ولم أجده، وكنت متعبا، فنمت.

---

(١) جهاز يستخدم في عمليات التحقيق، يكشف الكذب باستقراء انفعالات المتهم من قياس نبضات قلبه، وسرعة تنفسه، وضغط دمه، ونشاط الجلد الكهربائي وتعرق باطن يده.

- هكذا! طيّب، تبدو متوتِّرًا! لكن لديَّ معرفة مسبَّقة بك، أنت هكذا، تتراءى لي كالمريض، حتَّى في السجن، شممت فيك رائحتان، البراءة والجنون. ها! ما رأيك؟
- لا أعرف.. ربما..
- هل لديك ما تودّ إخباري به؟
- كلّا... لقد نَفَدَ حبري...

وتحمَّس لبيد لسبب، فضرب كتف كليمه وبحماسةٍ في صوته قال:

- أنتَ كثيرُ القلق والهيجان! لقد قيل لي أنَّك زرتَ أطباء نفسانيين، هلَّا تسمح لنفسك بمصادقة قولي؟

بلغ توتُّر عبْدالغفور منتهاه، وأظلمت عيناه، شدَّ على قبضتيه حتَّى ارتجفتا حَنَقًا بيّنًا، حنقُ طفلٍ بلا قيود، أسرع لبيد يربِّت على كتفيه، ويخبره بنبرة سلمية:

- حسبُك، حسبُك! لا بأس، أنا أعتذر!
- أنت فضولي للغاية يا لبيد.

قالها بنبرة حادَّة عدائية جدًّا وهو يزفر أنفاسه. لقد غزت مشاعر العار والغضب والاستياء وجدانه، وطغت على رأسه ذكرياته مع الأطباء، ومحاولاتهم الفاشلة في علاجه من صداعه وقلقه وعقده، كما يعرف أنَّ الحال قد استفحل به حتَّى تلِفَ جهازه العصبي في غياهب السجون. ضرب بمجمع قبضتيه على ركبتيه، في حركة مضطربة ورجفان، وتقبَّضت ملامح

وجهه، وصـار مكفهرًّا عليه قترة سـخط وهيجان، فمسَّ لبيد قلبه، وضـغط عليه، بالطبع قد ألِفه يدقُّ بجنون، ولئن وجد ذلك فيه فإنَّه خاف أن يغيب عن الوعي لفرط أعراض مرضه المتداعية أمامه. فنادى أهله ليأتوا بماء بارد، لكنَّ عَبْدَالغفور ههنا قد ضجَّ مرعوبًا وارتعدت عظامه وشرع في نوبة صياحٍ كأنّه ناقة على وشك أن تُذبح. أسرعت توأمه سارَّة ودخلت بقميص صلاتها تحملُ سـطل ماء وكُوز، بدت كالحة الوجه بنظرة باسـرة غير معتادة، أمَّا أمُّه فقد بدأت تشكي بصوت صارخ، وتزعزع البيت الكئيب مرةً أخرى.

- المعذرة، المعذرة.

قال لبيد بنبرة وَجِلة.

- يا ملعون، أخرج من بيتي! ولا ترجع إلا بولدي!

صـاحت به فَوزِيَّة بكلّ صـوتها. وأُغلق الباب. هرعت سـارة تحتضـن شقيقها المسكين، ووضعت رأسه في حِجْرِها، مسَّدت شعره كطفل، وحنَّت عليه، ووشوشت له بصوتها المألوف الأليف لروحه، حتَّى هدأ قليلًا، وطفق يتنهَّد بعمق، وصدره يرتفع ويهبط من فرط الهيجان.

- لن ينفعنا في إيجاد قرينة ما، لكنني لا زلت أشـكُّ فيه. إنَّه يظهرُ عداوةً لشقيقه، هذا حق.

قال لَبيد للمأمور على الهاتف يكاشفه بما حصل معه. وبعد ساعات، انتشـلت قوات خفر السـواحل جثَّة ضـخمة لرجل يناهز الثلاثين ونيف، ونقلت إدارات الشرطة الخبر إلى بعضها البعض، وكان المأمور قد هبَّ مع

مـدير الأمن إلى موقع الجثَّة، ولمَّـا سـألوا عن هُويتـه في دوائر معـارفهم، وأخذوا بصماته، علموا أنَّه هو الرجل المفقود، قيس جهاد.

- إنَّه ميت يا حضرة المفتِش!

قال الشرطي من مخدع الشرطة.

- ميِّت؟ قلت ميت؟ أين أنت الآن؟ أين الجثّة؟

- وجـدتـه قوات خفر السـواحـل في بحر السـتين قُـدَّامَ محطَّـة الكورنيش، مُلقًى على شاطئها، ولقد أفزع ذلك الأهالي والأطفال في الملاهي هناك!

هبُّوا جميعهم إلى مركز الشـرطة الرئيس في حي بلقيس أمام مدرسـة الجماهير التاريخية، وعندما تبيّن لهم أنَّ الجثة والتحاليل والتقارير تشير إلى هويتها حقًّا، ذهبوا يرونها في مغسـلة مشـفى ابن سـيناء المركزي بمنطقة فوّه، وتأكَّد لَبيد من موت شـقيق عبْدالغفور قتلًا على يد شـخصٍ ما؛ فلقد وجدوا آثار طعنةٍ في وسـط صـدره، وهنا كانت الطامة. فكَّر لبيد وهو يرتعش من الحماسة:

"ظنوني أكيدة! لقد قُتل، أنتشـل من البحر، البحر! هناك ظنينٌ في يدي! هذا رجلٌ أنا متأكدٌ أنَّه عضـوٌ في عصـابة الشـبو الرائجة، كيف سـيردُّون على هـذا الآن؟ أحتـاج لأدلّة أكثر قبـل أن أعود لـذاك.. ولكن هـل حقًّا ظني بـه صائب، أم إنها مصادفة وقدر؟ في النهاية، عليَّ العمل، وقيس هذا رجل عمله محفوف بالمخاطر، ولا غلو في الاعتقاد بأنه اشتبك مع أحد زبائنه، فصرعه!

كل الأمور الآن واردة جدًّا."

بعد أخذ تصـريح من المحافظ والمجلس المحلي للسـلطة، أنشـئت فرقة بحثٍ وتحقيق يترأسـها لَبيد لأجل اسـتئصـال المجرم والعصـابة ومنع اتساعها. وذيعَ الخبر في الإذاعة، وكرِّر في النهار التالي، حتَّى يعلمه المجتمع كلُّه. وهمَّ الناس يتحاكون ويتبادلون الآراء في شـأن هذه القضـية، وكلٌّ يزايد في الخبر من عنده، ويبالغ، ويقول زورًا، ويتَّهم فلان وعِلّان، والمرج قد حلَّ في أوساط المجتمع الحضرمي.

كان صـديق لَبيد، ياسـين عَبدِالحكيم، قد هاتفه بشـأن هذه القضـية المنقولة عبر الأثير، ثمَّ زوَّده بمعلومات عن العصـابة، ففرح بها، وتلاقيا بسرعة، حتَّى أنَّ لَبيد دعا رجلًا مهمًّا من الفرقة حديثةِ الإنشاء، وأشهده على أنَّ ياسين سيكون جُزءًا منهم، يزوّدهم بالمعلومات والمخابرات.

- هل تعرف من دفع كفالةَ عبدالغفُور؟ أنا مذهولٌ جدًّا لما يحدث!

فردَّ لَبيد:

- قيل لي أنَّه أحدُ معارف والده الموسرين، ظلّ الرجل في سريةٍ تامَّة، لا يريد التعريف بنفسه، لكنني أجزم لكَ أنهُ على علاقة بالعصابة!

تساءل ياسين:

- ولمَ تذكر العصابة في خضم هذا الحديث؟

نظر لبيد حوله ثم قال:

- إنَّ شقيق عبدَالغفُور المقتول، عضوٌ كبير فيها.

- ماذا!

- هذا مؤكَّد من التحقيقات. لقد لفَّق التهمة على شـقيقه، وخدعنا جميعنا.

- هذا جنون... غير معقول!

وضـع ياسـين يدا بيد على غرة شـعره، وظلَّ ينظر مصـعوقًا في وجه الأرض. فكّر لبيد بأنه ليس مستحسنًا أن يُشارك جميع ظنونه مع ياسين، ولا غيره، بالرغم من أنّه يحاول تكذيب حدسـه الذي يقول له بأنّ القاتل هو سجينه المُسرّح البارحة، والذي يؤمن أيضًا بأنّه كان مظلومًا.. قال أخيرًا بعد صمت:

- لكن الآن، لدينا شأنان: الأول يخصُ قاتِلَ الأخ الكبير، والثاني هو صلته ومداها بالعصابة. نريد الوصول إلى حقيقة كلِّ شيء في هذه القضية.

- حسنًا، إنما...

أمسك ياسين لحظةً عن الكلام، فاستحثه لبيد حتى قال:

- هناك حاجةٌ في نفسي أودُّ طلبها منك خصيصًا.

رفع لبيد حاجبيه وبسط يده.

- على انفراد لو سمحت.

فأمر لبيد الرجل الهامَّ الآخر بتركهما بمفردهما، وكان اجتماعهما على درج عمارة نقابة المهن التربوية أمام بؤرة السـوق وسـط لغط الباعة وتدفّق المواطنين المسال.

- ثمَّة رجلٌ أعرفه في العصابة، عرفته صدفةً، يمكننا تتبعه والإمساك بهم. لكني أريد إنقاذه من حكمهم. هل يمكنك تقديم هذه الخدمة لي؟
- تقصد أن نمسك بكلِّ السمك في الحوض، ونعفو عن واحدة؟
- شيء كهذا، نعم.
- وهل أنت متأكدٌ من ظنِّك؟

أومأ ياسين عَبْدالحكيم بالإيجاب.

- حسنًا، أخبرني التفاصيل.

وحكى ياسين قصته مع صفاء، ومواعدته لها بإنقاذ شقيقها، الذي انصهر في بوتقة الفساد والجريمة. كان حارَّ اللهجة في قصته تلك، ثمَّ استشفَّ لبيد من خطابه أنَّه منهومٌ بأمر تلك الفتاة.

ولكن من هي صفاء؟ فتاةٌ حضرميةٌ لها زَهاءَ خمسٍ وعشرين عامًا، لونها حنطي أغبر، قامتها مربوعة، تصغر ياسين بسبعة سُنون. عملت منذ نموّ أظفارها، وراحت بعد أن تنازلت عن عزّتها كأيّ فتاة حرة، تطرُقُ الأعمال باخعةً نفسها كي تحمي أسرتها من ذلِّ المسألة وهوان التسوُّل. كانت تدرس في ثانوية بالمكلا القديمة، وتخالط زميلاتها بشيءٍ من الخجل والتستُّر، خائفة من هتك سرها، وهنَّ في الأساس لم يقابلنها بصداقة سمحة صدوقة، فلمْ يعرنها أهمية، ونظرن إليها نظرة صاغرة، وعدَّنَّها فتاةً كئيبة تافهة عقلها بيد أهلها. وكان أبوها قد توفَّى وهي في الصفِّ التاسع الأساسي، وتركهم

بلا راتب معاش لبراثن الإملاق، تخدشـــهم كيف تشـــاء. كانت تعمل في تنظيف الشـقق والمكاتب، وأحيانًا في تربية أطفال الحي مع أختها. كلُّ ذلك في سبيل رزقٍ كفاف يعفيهم من الاستجداء وطلب أيدي الناس. كانت أسوأ أيامها في مرحلة الثانوية، حيث اضطروا ذات يومٍ إلى الخروج للاستجداء في المسـجد، كعائلة واحدة، وبرفقتهم شـقيقها مغصـوبًا، وكان في عمر الزهور، اثنا عشـرة ربيعًا، وهو حانق على أسـرته، ناقم على العالم الذي تركه فريسـة لمهنة ذميمة حقيرة. إنَّ أبلغ ما حيق بصفاء هو نظرات العابرين لها ولعائلتها، عند باب المسجد، وهم يُصَعِّرُون خَدَّهُم، قافلين عنهم بنظراتٍ صلدة ناشفة من العاطفة، وإذا ما رأف بحالهم أحد، تصـــدَّق عليهم ووجهه صـــامت خاشـع، متصـلِّب فاقدٌ للبشَّـة والحَبور، مع أنَّ في صـدقته سـلوى له وأجر مكتوب من الله، ألِفت صـفاء اسـتكثارًا واسـتحقارًا من الناس عليهم، وفي عملها كانت تشـعر رغم شـرف العمل أنَّ أربابها يمنُّون عليها، وأنَّها عرضـة للتقليل والتذليل والمهانة في كل حركة تصـدر عنها أمامهم. كانت تسـمع أقوالًا بنبرات ساخرة نمّامة:

خادمة!

عديمة الأصل! شحاذة!

ما هي أصلًا من طبقة الخدم!

بلا قيمة، حتَّى التنظيف لا تتقنه!

نكرة! لا جذر ولا فخذ لها!

وهلمَّ جرًّا.

لقد يئس قلبها من الناس، وفقدت ثقتهم، لكنَّ ياسين أشعل في جناحيها شيئًا جديدًا، جذوة نار حبٍّ منسي، وشعلة إيمان خمد لسنين. كان يقابلها كلَّ ليلة، بعد عملهما، إذ كانت تعمل بالقرب في الشارع الثاني. وتناقشا في شأن أخيها، وكيف أنَّه أظهر عدوانيةً وطبعًا قاسيًا ينحو للعنف والأساليب الملتوية لكسب المال. وحكت له عن قرارها بمقاومة الواقع المعيش المؤسف لعائلتهم المغرَمة، والمضي في دراسة عالم الأعمال وريادتها، نعم لقد حصلت على شهادة جامعية، ولكنَّها لم تعلُ مَرتبَةً على سِكرتيرة في مكتب ما في الشارع الثاني.

لم يشفق ياسين عَبدِالحكيم على صفاء، بل أُعجبَ بها، وأحبَّ تقديرها لمعروف الناس ولو كان معشارا طفيفًا، وبدأ يتعلَّقُ بها، وبهيئتها، ثمَّ صار يسألها عن وضعها وأصلها، فتخبره أنَّها عذراء لم تذق حلاوة الزواج، وأنَّها من عائلة كريمة حضرمية لا كما يشاع عنها، وهبَّ قلبه يطمع في أكثر من مساعدتها على إنقاذ أخيها، لكنَّ عاطفته لم يحن دورها لتبرز، عليه أوَّلًا أن يقدِّمَ صلاح أخيها، رغم أنَّه ليس بيده ذلك قطعًا، كمَهرٍ معنويٍّ لها.

أخذَ العزم ينتشي في جسده، لأجل غايةٍ عدَّها نبيلةً وذات معنًى، ولأجل قول إيميل عن الحياة بأنها فرصة كبيرة واحدة يمكن جعلها أفضل بالانتهاز الساحق.. وتتالت الأيام، وهما يلتقيان، ونما الحب بينهما، كما ينمو الزهر في ساحات الحروب والمعارك الدامية. تقع في الحب مع شخص تجد فيه شيئًا لا تملكه، ربما فقط، يحب المرء من له قدرةُ تكميلِ نقصه.

ولَّت الأيام بغثِّها وسمينها، ولبيد يراقب شقيق صفاء المدعو أصيل، ويتقفَّى أثره، رغم محاذرته وحيطته. وفي منتصف ليلةٍ لم يذق فيها لبيد قِيلَةً أو غفوة، نوى القيام بمداهمة مكانٍ تردَّدَ عليه أصيل كثيرًا، في الشارع الثاني في عمارة في دكاكينها متجر (باحبارة) للحلويات، فجمع الفرقة، وأعدَّ العُدَّة مع نيابة العميد، ومدَّهُ بشرطيين مسلَّحين. بدأت المداهمة، ونيَّةُ لَبيد فضح العصابة وتخويفهم، وإلقاء القبض على أطراف الصفقة واستجوابهم. لقد كان ياسين معه، وقد وعده بإفلات أصيل وعدم القبض عليه. وكان ياسين قد عمَدَ إلى إيصال شائعات إلى مجالس أصيل لِتخطره بأن العيون عليه مسلَّطة، وفهم أنَّ المجرم، لمَّا يسمع بحشود الشرطة والمفتّشين والقضاة وغيرهم، يرتاع قلبه ويخاف من الفضيحة، ويحاذر، ويتَّقي إعمال عمله الكبير ويبطئه. ومن ذلك، نجم أنَّ أصيلًا أوقف تحركاته الكثيرة إلى مرابيع العصابة، وعنَّى بواحد فقط هو المذكور آنفًا، وحصر معاملاته هناك، وتجمَّع أعضاءٌ كثرٌ في تلك الشقة.

كان المساء رطبًا قارًّا، والقوة الراجلة قد خفَّت في سوق الشارع الثاني، وباعة التمور قد ولَّوا، وبساط الخضار قد انطوت ورحلت، واللحم المجفف قد كُيِّسَ وغادر طاولاته، وغناء الساهرين في (المخادر) وسهرات العرسان يتناهى إلى المسامع، والناس منهم نائمٌ، ومنهم لاهيٌ، والسوادُ على دواهي الهاتف ساهر.

لم يأتِ من الفرقة إلا رجلين، اعتذر الآخرون، زد عليهم الشرطيين

ولبيد وياسين، إنَّ منهم ستّة الآن. جلسوا في أماكن متفرّقة، على أزقةٍ متوازية، اتَّخذَ لَبيد عربة خشبية يتلهَّى بهاتفه لتغطية أمره، يرقب الشارع شبه الصموت الفارغ. وعلى حين بغتةٍ، لفظَ الزقاق رجلًا أسمرًا طويلًا، شعره أشعث كثيف، وعيناه واسعتان تشتدّان بياضًا، وكان طرفه كليلًا مؤرَّقًا، هرع بخطوات واثبة إلى العمارة حتى ولجها.

غفا الشارع، وإذا برجلٍ كهلٍ باسق القامة هزيل البِنية يتعرَّج خارجًا من العمارة، وكان يهتزُّ كما لو أنَّ ماكينة تعمل تحت قدميه. عدَّ لبيدٌ هذا الرجل مشبوهًا، لكنَّه تركَ ظنونه المتشابكة، وفرَّت الدقائق من يد الزمان. كان ياسين يفحص المكان بناظريه، ولقد عَرَتْهُ الدهشة لمَّا رأى رجلًا رمليَّ البشرة بدينَ القوام يَقْذِفُ بِهِ الزُّقاق المجاور إلى الشارع الواسع، وبيده يمسك غلامًا بارعَ الجمال بشرته صفراء ولحمُهُ أملسٌ عبلٌ مع شعرٍ سبطٍ طويل يتدلّى على قفا عنقه وجبينه المحدَّدِ المرسوم. كان الرجل يلتصقُ بالغُلام ويترنَّح في مشيته، وينفخ صدره كأنَّ به نوبة توتر. أمعن ياسين عَبدِالحكِيم في سحنة الرجل حتَّى عرف أين قابله وما هي هويته. وتمتم لنفسه:

- كمال! ماذا يفعل في هذه الساعة؟

تسمّرت عينا ياسين بكمال وبُهت حينما دلف إلى العمارة، حيث تتواجد العصابة. استذكر ياسين لقاءَهُ مع كمال في مكتبه، وما جرى بينهما في يومٍ خريفي داست عليه الأشهر المتعاقبة... كانت السماء مسقوفةً

بالسحاب، والرطوبة تعلو مع كلِّ قرعٍ لحذاءٍ على الشوارع الخمسة في الشرج، اتَّسمَ الجو بالخناق، ولم تهب نمسةٌ واحدة، فسكنَ الطين على الإسفلت والدِّكَاك، وغاب عويل الرياح وصفيرها، وحَمَى المناخ وتصبّب الناس من جباههم وآباطهم عرقًا مخلَّلًا مقززًا، وكان التّيار الكهربائي مقطوعًا في تلك الساعة من العصر. لم يرحِّب ياسين عبْدِالحَكِيم بزبونه في البداية، واكتفى بلمحة سريعة فحص فيها هيئته من ثمَّ عاد يدير حدقتيه على كومة من الأوراق. وشرع كمال يقول:

- آهٍ من هذا الطقس! تخيَّل أنني مشيت من ثانويَّة (الحدَّاد) إلى هُنا خلال هذه الرطوبة!

تبسّمَ ياسين بتثاقل دونَ أنْ يضيف شيئًا.

- معي هذه التقارير، يودُّون إرسالها إلى التربية، ولقد اختاروني لأجل هذه المهمَّة، أترى؟ لقد صرت مهمًّا في أعينهم!

سلَّمه الأوراق، ثم طَفِقَ كمال بالثرثرة، وجسده يرجرج وكِرشه تنتفخ، وأوداجه تتشبّح وتحمرُّ، إلى أن قال كلامًا استأثر بانتباه ياسين:

- إنَّ لي حلمًا أيها الرجل الطيب، ما اسمك؟
- ياسين.
- نعم يا ياسين، لي حلمٌ طيّب، أنا اسمي كمال، مدرِّسُ أحياءٍ في ثانوية الحدَّاد (رحمه الله). لست متزوِّجًا، لكن إن شاء الله سأفعل يومًا ما... عمري ثمانية وعشرين ربيعًا. مثيرٌ للسخرية أن نقول

ربيعًا وبلادنا بلا موسم ربيع، هه! لكن لا ضَير، إنما حلمي هو أن أكون شخصًا معروفًا في أوساط المجتمع، شخصًا له هَيبةٌ ومقدار لا يستهان به ولا ينتقص منه أحد. لذلك سلكت سبيل التدريس، ولئن ظننتَ أنَّ التدريس راتبه بخس زهيد لا يفتح لك بيت فأنت على حقٍّ، إنما هدفي مختلف، آه... أصدقني القول يا ياسين؛ أليس مخيفًا أن تموت دون أن يذكرك أحد؟! أن تلتهمك الأرض ولا أحد فوقها يدعو لك أَوَ يذكُرُ أيامك الخوالي؟ إنَّما هذا هو كابوسي الأعظم! لقد هممتُ بالتدريس لأجل أن أحفر لي مكانةً في قلوب الطلَّاب وأولياء أمورهم، فأنا أحرص على مقابلتهم بعد الدروس، والاستماع لمجالسهم، واستدعاء أولياء أمورهم بغرض النذير أو البشير... إن كنا سنحزن، فلنحزن مع بعض، وإن غضبنا فسنغضب عَيانًا، ومع الفرح سنستدعي الجميع ونمرح... هكذا كنتُ ولا زلتُ يا ياسين! لكنَّ الخيال أبهى من الواقع، فلم يحدث كما أمَّلت.

مدَّ ياسين عنقه وسلَّط بؤبؤي عينيه على كليمه ثم استزاده:

- هيهِ... كيف ذلك؟

سعَلَ كمال، وانحنى حتى احدودب ظهره، كان وجهه يلتمع بالعرق، ومع كلِّ جملةٍ تخرج من فَيْهِهِ يمسكُ عمامته ويمسح وجهه بها محرجًا من ذلك أشدَّ الحرج.

- الطلَّاب يتجاهلونني، ينامون في حصَّتي، ولا ينادونني بأستاذ، بل إنَّ بعضهم ناداني (إي!) كأنِّي زميله! ووالديهم كذلك، إن استدعيتهم لا يأتون، وإن بشَّرتهم بتفوُّقِ أولادهم يردُّون ببرود جافٍّ، كأنهم يخرجون زفرات برد قارس رخيم آتٍ من الوديان! وفي حارتي، الناس كالعصابات، كلٌّ مع صحبه وعصبته منعزل، ناءٍ عن بعضه، وأنا أمسيتُ وحيدًا، يجْهَلُ عليَّ، بلا سمعة طيبة، عدا أن يقولوا عنِّي: "مسكين!"... أنا حالي رقيق، لست غنيًا ورزقي بالكاد يكفيني مع أمي وأخواتي... وأشعر مع كلِّ هذه الهموم بالفراغ الروحي وهزال القيمة يا ياسين... لقد سئمت من حياتي، وأنا... خائف من أن أموت ويصلي عليَّ عشرة رجال أو دونهم! مرعوبٌ من حقيقة عدم تقديري وتسفيه قيمتي من كلِّ الزملاء والطلاب والناس! لقد تعبت حقًّا... تعبت من الحيل التي يمكن أن تجعل لي اسمًا طيِّبًا يذكرني به الناس بعد مماتي، رغم أنِّي شابٌّ، لكنِّي قلِقٌ يا ياسين.. وهل سنعقد صداقات حينما تشيب الأذقان وينحسر الشعر؟ لا أعتقد ذلك.. سنظلُّ وحيدين بلا أنيس أو مزامل.. أنا خائفٌ يا ياسين، خائفٌ من موتي القريب حيث سيعقبه نسيان الناس لي.. هذا مزعج والله! أليس ابن آدمٍ في أمسِّ الحاجةِ إلى دعوات نظراءه ومناجاتهم إلى ربهم القدير بأن يغفر لهذا العبد الأثيم المسكين؟! بلى والله... لكنني ضعيف، خالي

اليدين، لا مَالَ يرفعني، ولا خُلُقَ يرسِّخُ صورتي واسمي في نفوس الآخرين من البشر...

انقطعت أنفاسه فجأة وزفر بصعوبة، كان قد رمى يديه على الطاولة ونكَّس رأسه، حين قال بصوت يائس:

- قل لي يا ياسين، بربِّك، لماذا نحن هُنا هكذا؟

كانت علائم وجه ياسين عبْدِالحَكيم مجمَّدةً لا تفترّ ولا تعلوها خلجة واحدة. وصبَّ اهتمامه بهذا الرجل الشاب فأخبره بصوتٍ جادٍّ وتعبيرٍ حادٍّ:

- إنَّنا هُنا لكي نحاول أن نحيا.

صفق كمال المكتب بيديه منفعلًا وانحنى على ياسين.

- وهل في هذا البلد حياةٌ حقًّا!

صمت ياسين، ثمَّ أدار رأسه إلى الجدار وتمتمَ:

- ليس تمامًا، إنَّها قطعةٌ مفقودة لأحجية قديمة.

اهتاج كمال وأحسَّ برغبةٍ في الصراخ:

- قل لي، كن أخي يا ياسين وارفق بحالي! قل لي كيف أعيش بهذه الحال، وهذا الطبع الراسخ فيَّ، وأنا مجهولٌ لا إنسان يهتمُّ بي! حتَّى أمي، أخواتي... كل ما يريدونه مني هو المال! قيمتي ماديّة! لو تقاعست عن العمل، واستقلت منه، لرموني في الشارع ونسوني! ماذا أنا؟ لماذا خُلقتُ مع كلِّ هذا العذاب!

- لا بأس عليك. هلَّا حاولت أن تهدأ قليلًا.

تأفَّفَ كمال، لقد صــبَّ حِرَّته على رجلٍ لم يعرفه إلا في هذه اللحظة، ولقد نَدِمَ على ذلك أشــدَّ الندم حتى شــعر بنفســه تتقلقل في أحشــائه بنار الكراهية للنفس ومقت الذات. وحدَّث نفســه في ســريرته، بعد أن تفتَّقت ســويداءه ندمًا وحَزَنًا: «فهمت، هذا الانطباع هو الذي أرسِّــخه في أذهان الناس عنِّي... رجلٌ مثير للشــفقة، مثير للمســكنة والرثاء.. لكن لا أحد ســيرثيني، ولن يحبني أحدًا فضــلًا عن أن يكرهني.. لا أســتحقُّ الحب ولا الكره.. ولكن ما أســهل أن يُكره الإنســان.. أبدو نكرة وحثالة.. ليس لي من هذه الحياة شــيء!». ودخل كمال في نوبة صــمتٍ أحرقت له شــراع صــدره وخرقت سطح قلبه حتَّى أظلمَ واسودَّ يأسًا.

في خضــمِّ ظلام اللحظة الحالية، ترنَّحَ كمال مع الغُلام وصعد العمارة، والمراقبون في شــكٍّ مما يرون. أشــار لَبيد لأصــحابه بالدخول، ليداهموا المكان حالًا، فالخطَّة اقتضت وصول أصيل ومن ثمَّ السطو على المكان، مع بعض التراخي كي يفرَّ أصيل. واتّصل بعضهم ببعضٍ يجرونَ ويصعدون سُــلَّمَ البناية. كان الجو خانقًا حفيًا بالروائح النتنة، وتســمَّروا جميعهم قربَ مدخل الشــقَّة الأولى، وأرهفوا الســمع، فلم يســمعوا شــيئًا، وصــعدوا ببطءٍ للطابق الثاني، وفعلوا بالمثل كذلك، ولم يجدوا إشــارةً على وجود أحد، حتَّى ارتقوا فُســحةَ الطابق الثالث، وعبروا دهليزه ووصــلوا إلى شَــقَّةٍ تضــجُّ بالأصوات الصارخة والمُهيبة. أومأ الشرطيُّ إلى لبيد، فرفع الأخير سبَّابته لثانيتين، ثمَّ جمع قبضــة يده وأشــار بها ثلاثًا. كان الباب قديمًا، متآكلًا

بالأرضــة وخشــبه منفوش ناتئ، وكان ذا قفلٍ قديم ولَّى عليه الزمن الغابر. ركلَهُ الشــرطيُّ، فانكســر وســقط على القاع، ودخلت الفرقة واحدًا واحدًا، والكلُّ مسلَّحٌ بمسدسات وبنادق، حتَّى ياسين خوَّلوه بذلك، وهو الذي ولجَ الشقة أخيرًا.

في الغرفة المطلَّة على الصالة، شدَّ مسمع أصيل إيَّاه إلى الصالة بسبب انكسار الباب ومعه رجلان آخران يعتجرون بالعمائم ويرتدون أزياءً تقليدية شــعبية. فلمَّا أدرك الخطر الذي هم فيه، صــاح في أصــحابه بأن يهربوا، فتدافعوا جميعًا نحو الباب، وضيَّقوا الخناق على الفرقة حتَّى لا يقدروا على استخدام مسدساتهم، واستخدموا ركلاتهم ولكماتهم للفرار، لكنَّ الشرطيانِ ورفيقي لَبيدِ كانوا على أهبة واســتعداد للانقضــاض عليهم، فنكزوا بحرفيَّةٍ متناهيةٍ بَعضــهم ليسقطوا أرضًــا، وأمسكوا بآخرين وضــربوا أعناقهم ليغيبوا عن الوعي ويبرحوا مكانهم، وفي خضــم اللغط والجلبة الســريعة، انســلَّ من بينهم أصــيل، بعد أن همَّ بدفع ياســين، المتراخي أمامه عمدًا، ورماه بعيدًا في باحة الشــقَّة. غذَّ الخطى على الدرج نازلًا، فلحقه أحد الشــرطيين بســرعة، بارتجالٍ وحسٍّ غرائزي، لم يكن هذا من ضــمن الخطَّة أبدًا، لكنَّ الحسَّ الغريب بالعدالة لدى الشرطي جعله يتبع أصيلًا العقب بالعقب.

خاف ياســين مما قد يفعله هذا الشــرطي بأصــيل، العدائي والمتهوّر في طبعه، لكنَّه آثر أوَّلًا تفقُّدَ سلامةِ فرقته، وعندما دخل وجدهم سليمين، اللهم إلا من بعض الكدمات. وأوثقوا أيادي رجال العُصــبة. كانت هناك غرفة

مؤصـدة، لم يخرج منها أحد، فكسـروا قفلها، وانفتح الباب على مصـرعه، فصدموا لما رأوه.

كان الأسـتاذ كمال، الشـابّ الحزين والحالِم، عاريًا تمامًا، هو والغُلام الشـبيه بالإناث. ركل الشـرطيُّ وجهَ كمالٍ من مقدمة أسـنانه، وأرسـله بعيدًا من فوق الغلام. كان مشهدًا مقرفًا، الغلام يبكي ويتأوَّه، ويصرخ باكيًا:

- خدعني! قال لي جائزة ومال، كنت أريد الشبو فقط... لكنَّه ابتزني، ثمَّ عاونوه على تهديدي أولئك المسوخ!

أجفل ياسـين لمَّا رأى ذلك المشـهد، وصـاحَ غيرَ مصـدِّقٍ لما تبصـره وتحكيه له عيناه:

- ما هذا الذي تفعله يا كمال!

وبسط يديه، أمَّا كمال فكان شبه ميِّت.

- عليك العار وسبَّةُ الدهر يا نجس!

قالها لبيد وأخذ يقترب بخطى واسعة من كمال، وإذا به يركله، ويفحمه بلكمة من قبضته، ويبصق عليه ويقول:

- خسيس، نذل، والله سأفضحك لترى ذلّ عملك!

سـقط كمال، وها هم الرجال يدثِّرون الغلام بِمَلَاءة وجدوها، ثمَّ بحثوا عن ملابسه، وألبسـوه إياها. بعد دقائق من صـمتٍ حاول فيه كمال استيعاب ما حدث، قال وصوته يرتجف:

- أنت... ستفضحني؟

لم يعر لَبيد وجهه له واكتفى بردٍّ عظيم الصوت عالٍ:

- نعم! سأجعلك عبرةً لمن خلفك!

الغريبُ أنَّ كمال أخذ يقهقه، ثمَّ انفجر بضحكة هستيرية، فحدَّق الرجال فيه، كمن ينظر إلى حشرة مجاري.

- بمعنى أنَّني سأصيرُ معروفًا!

استغرب لَبيد من هذا الرد، لكنَّ ياسين فهمه وصُعِق على إثره.

- سأكون جاريًا على حديث كلِّ إنسان في المكلا، سأكون جوهر كلام المدينة! قصة لن تنسى! يا لَحظي السعيد! هَعْ هِيْئ!

نهره الشرطي وأمره بالصمت، وهمَّ بتوثيقه، فعَصَبَ قطعة من ملابسه في فمه مع أنَّ كمال لم يتوقف من الضحك والاحمرار. كان جسده الممتلئ والقبيح في تفاصيله وهو عارٍ يتململ ويهتزّ، فاشمئز لذلك الشرطي، وأسرع يلبسه ثيابه ويستره. سجت الشقة، والهمُّ في ذهن ياسين يتعلَّق بما سيحدث مع الشرطي الآخر الذي يطارد أصيل، وفي عين اللحظة، ذكر ياسين للمفتّش موضوع العصابة ومقتل شقيق عبدالغَفور، ففزَّ لبيد من فوره واقترب من كلِّ رجل لا زال بوعيه، وصرخ فيهم إذ كان منفلت الأعصاب:

- من قتل قيس؟ أخبرني!

- من هو هذا؟

وكان يدور بينهم حتى وجد في جيب أحدهم بطاقة غريبة، مسجّل عليها كلام أغرب:

- " أنا كلب جائع"... ما معنى هذا؟

كان الرجل حامل البطاقة يضحك بخفوت، فهزّه لبيد ولكمه في وجهه لكمات عديدة، حتى انتزعه ياسين عنه.. حينها قال الرجل:

- لقد سمعته صدفة يقول... "الكلاب الجائعة لا يجب أن تشبع أبدًا"... هه! الرجل الذي مات أمس، مات لأنه كلب شبعان... بطر على ولي نعمته! هه!

بدأ لبيد يهدأ ويفكّر، وكان يبدو عليه الرعب من صوت وملامح هذا الرجل:

- من هذا الذي سمعته؟ ومن هو ولي نعمته؟
- هه! كأنّي سأخبرك.. حتى لو أخبرتك، فهو بعيد المنال، عصي والله! هه!

وجَّه الشرطي مسدسه إليه، وألقى عليه نظرة باردة.

- الموت لا يعني لي شيئًا.. لقد اكتشفني، وساعدني.. أنا عرفت حقيقتي يا جماعة! أنا كلب لا ينبغي له أن يشبع! هكذا هو الإنسان يا جماعة! تسألني عن.. ما اسمه قلت؟
- قيس، أخبرني عن قيس!
- هه! مساكين أنتم! ملعوب بكم كلكم! قيس هذا تلقّى عقوبة لن تتخيلوها، قيس طاح وهوى من السبب نفسه الذي رفعه وأعلى شأنه! كل شيء مدبّر.. الزعيم مستحيل أن يجعل كلب شبعان

خائن بقربه!

استفزّ ذلك ياسين، فراح يسأله عن قصده، كيف لقيس أن يكون شبعًا وخائنًا لزعيمهم؟ فأجابه ببساطة:

- باب الدخول مختلف عن باب الخروج، يا فهيم!
- اسمع يا تافه، لا يهمّني إن كان قيس نوى ترك العصابة، أو نوى خيانة زعيمه، ما يهمّني هو الإجابة عن سؤالي مباشرة؛ من قتل قيس؟

هكذا سأل لَبيد، ولكنّ الرجل أخذ يقهقه ويعلي صوته بشدة أكثر هيستيريا من كمال سابقًا، وحينها تقدّم منه الشرطي وضربه مرارًا، بينما تراجع ياسين برفقة لبيد وقال له بنظرة ذابلة تمامًا:

- لقد فهمت، زعيم العصابة، هو نفسه من دفع كفالة عبدالغَفور، هو نفسه يا لبيد...

عندئذ، أسقط في أيديهم، ونصب الصمت الحارق الحزين خيمته عليهما، انتظر ياسين بصيص الأمل وهو يفكّر في مصير أصيل الآن، وفي صفاء...

كانا قد نزلا من الدرج تحت صراخ من الضابط ومسدسه في يده، وأمام مدخل العمارة ذو الدرج المكشوف، انعطف أصيل راكضًا نحو الشارع الأول، فتعقَّبه الضابط، وسطا بصوته، علَّ أحدًا يتواجدُ ليساعده على إمساكه، لكنْ عبثًا يحاول؛ رجلان يناهزان الخمسين من عمريهما الدنيوي

قد لمحا أصيل قبل أن يمرُّ من الزقاق الذي يجلسان فيه، وسمعا صوت الضابط يحرّض على القبض عليه، لكنَّهما تكاسلا، ولم يتدخَّلا.. استمرت المطاردة، حتَّى دخل أصيل في شارع الخياطين والمعاصر، وركض على طوله، ثمَّ التفت فلم يجد أحدًا، فتهاون قليلًا، وهو ينظر، وإذا بالضابط قد قذفته أَحَدُ الأزقَّة البَيْنِيَّة، فعاد أصيل يركض، ودخلَ دهليزًا عن شماله، إلى جهة الخور، وكان مضاءً بقنديلٍ عسلي، ومن فوقه، في منتصف الدهليز، رأى سقيفةً كالجسر المعلَّق يوصل البيتان من جهتي اليمين واليسار، فارتقاها، واختبأ فيها، يتربَّص بالضابط أن يمرَّ خلالها، وكانت واطئةً جدًا، والضابط طويلٌ جسيم، وبعد ثوانٍ بلغ ذلك الدهليز، وهمَّ بعبوره ليصل إلى قنطرة ممرات أخرى ومتاهة من شبكة الدهاليز الباهتة، ولكنَّه أُرغِمَ على الاحْدِيْدَابِ تحت السقيفة، وما إن أخرج نصف ظهره، قفز عليه أصيل ووكز رأسه بضربة، واشتبكا بالأيدي وصدرت عنهما أصوات تنفُّسٍ متسارع. أراد أصيل تجريد الضابط من سلاحه، فأمسك به، وتنازعا على حيازته، وإذا بأصيل يركل الضابط بين فخذيه، فانكمش على بطنه ويده ممدودة، شارف أصيل على حيازة المسدس، وفي طرفة عين، وجَّه الضابط المسدس على صدر أصيل، وأطلق رصاصة دوَّت، تحت أشعة عسليَّةٍ فَاتِرة.

أهرقت الدماء من ثقبٍ في صدر أصيل، وهو يضطرب على قاع الدهليز لا يملك لنفسه نفعًا لنجدته، وغدت الثواني المتلاشية المشوَّشة كآخر ما قد يمكنه رؤيته في حياته، كانت مأساته الوحيدة هي أنّه وُلِدَ يتيمًا، تحسَّر على

ترك أسـرته وحيدةً في هذا العالم الجلف القاسـي، ثمَّ همَّ يُتمتم في آخر أنفاسه:

- أنت... عليك... اللعنة!

زفر زفرة الوداع، ثمَّ أخذه الموت على مضض.

كان قنديل الدهليز يزنُّ ويصـدر أزيزًا كنحلةٍ ضـائعة، وبدا كما لو أنَّه يتعاطف مع هذه القِتلة المباغتة التي تعرَّض لها أصيل، في ظرفٍ قاهر.

هاتَفَ الضـابط لَبيدًا، وأخبره بما حصـل، فانفعل فيه لَبيد، وقرَّعه بصوتٍ عالٍ، لكن من دون جدوى... تحطَّمت آمال ياسين عَبْدالحكيم لمَّا سـمع القصـة، اكتنفه الأسـى والتهاب الردى في ثنايا قلبه، والوخز في نفسـه صـار أكثر حدَّة وتمزيقًا، كيف سيخبر صفاءً بما حدث؟ إنَّه عدَّ نفسَه الآن، قاتِلَ أصـيل الأوحد، والمذنب في كلِّ ما جرى، التهم كيانه ندمٌ حارق مضـاعف، وشـعر بأنَّه في تيماء المحيط المائية، لا جزيرة ولا مرفأ بالقرب، معزولًا ينتظر موته في وحدةٍ عاتية.

أمَّا عَبدُالغَفُور، في تلك الليلة، فقد خرجَ على صـراخ وعويل من بيته، نمَّ عن أمِّه التي احتدَّت أعراض أمراضـها- الرُّعاف، السـكر، الفتق الإربي والسُّـل الرئوي- لمَّا نُعي إليها ابنها البكر، فبكته وناحت بجنون، وأظلمت الحياة في عينيها تمامًا. شـعرت بأنها خسـرت كل شـيء، ولم تعد تعبأ بعودة ابنها الآخر. لقد ازداد حبها لقيس بعد سـجن عبدالغَفُور، والحقُّ أنَّه تغيَّرَ لمَّا وجدَ في يده إمكان التغيير. تركها عَبْدالغَفُور وهو في حالةِ اضـطراب شـديد. لن يمكنه أبدًا أن يخبرها باقتتاله مع شـقيقه، ولو علمت بذلك، لشـنقت

نفسها. خرج يذرع الشارع، حتى لفظه كالبلغم في سوق العلف والتنانير، الخالي من الإنارة، والقمر قد دخل طور المحاق، لكنَّه لا يزال يرسل نظراته الآيسة والحزناء الكاسفة على بني البشر وأرضهم، التي ضمَّت كثيرًا من المجريات الغريبة.

في عينِ هذه الليلة التي قَبضت نَفسًا ربُّما تعدُّ مُدانة، وربَّما الدنيا ستكون لها مَدينة. عرج عبْدُالغَفُور على مقهًى معزول خلفَ مسجد (ورسما) يطلُّ على الخَور بصفحته المتموِّجة الخرساء ولونها المسودِّ كالمستنقع الحمئ تحت جسر المكلا الكبير. على طاولته، وهو يشرب شاي أحمرًا ويأكل كعكًا محلًّى ويشاهد في شاشة التلفاز الصغيرة مباراة ما، والسامرون على قلَّتهم يُحيُونَ هذه الليلة بضحكاتهم وزفراتهم الحيوية وأقاصيصهم عن هذا وذاك، على ذلك المكان وفي خضمِّ تناسيه لما سبق وتمتُّعه باللحظة، تناهى إلى سمعه، وهو في غفلة من ذلك، حديثًا من طاولةٍ أخرى سيقلبُ مصيره تمامًا. كان يدور بين رجلين عليهما أمائر الشؤم، لون أحدهما كالكلس والآخر كالصخر، ولهما بِنية متفاوتة مستوية، ويطيلان رشف الدُّخَانِ من أقماع السجائر، وبطبيعة الحال، كانا يتعاطيان (القات) ويتورَّمُ به خدَّيْهِمَا... أوَّلُ ما اجتذب كيان عبْدالغَفور إليهما، قولُ الكَلَسِيّ بنبرة لعوب:

- قلت لك اسمها هَنُوف، ويا لها من امرأة! والله جميلة وقويمة وتجعل ليلتك ليلة عظيمة!

ضحك الصخري بوجهِهِ المُفَلطَحِ ثُمَّ سَألَه:

- هل هي مع العصابة أيضًا؟
- نعم، تعمل معهم، قلت لك المَاخُور حياة!

قهقه مجددًا ثمّ قال:

- حيلة مجنونة لاجتذاب الشباب الذي كلُّ همه إشباع نقصه والفرار من أخطائه!

استنكره الكَلَسي وقالَ مجادلًا:

- كأنَّك لست مثلهم! أنت عبد منحرف ناقص! اعترف!
- لا تُحدِّثني وكأنَّك تتحدثُ عن نفسك يا مُخنّث! أنا سأتزوَّج قريبًا!
- الزواج؟ ها، تبًّا له! إنَّه مرض زمننا هذا...

تعجَّب الصخري وقال ساخرًا:

- على أساس أنَّ عيش حياة الدعارة فيها صحَّة!

وضرب الكلسي على الطاولة، وصات بصوتٍ عالٍ:

- بل هي نعمة عظيمة! اذهب وعش اللحظة! أتعرف؟ سأخبرك بمكانه، أنا أعلم حالتك الآن، أنت تهلوس بسبب القات! اذهب إلى الماخور وجرّب! إنَّه في حي بلقيس، ستصعد دَرَجَ التلة العظيم، ثم سيحاذيك المسجد، من هناك اتَّجه يسارًا، ثمَّة بيت من طوبٍ أحمر ذا طابقين، أطرقه ثلاث طرقات واعطهم رمزك الرقمي.

وبشيءٍ من انفعال غريب مريب، سأل الصخري:

- أيُّ رمز؟
- هيء! الآن صرت مهتمًّا!
- أص.. فلتنسَ.
- الرمز الرقمي تجده في مكتب بالشارع الأوَّل، تابع للعصابة، في بناية حقيرة خلفَ عمارة شاهقة. هناك ستجد القوَّاد كعب، اسمه كعب. وهذا رجل عفريت لا يخطئ أهدافه! قل له أريد الخدمة ج، أتعرف عن الخدمات؟

تأفَّف الصخري وأجاب وهو يزفر بشيء من العنت:

- كلَّا... لا خبرة لي في أمور الدعارة خاصَّتك.
- على مهلك! خفف من صوتك، ولتسمع: الخدمة أ تخصُّ الحشيش والمخدرات والشبو، يدلُّونَك على شقَّةٍ في الشارع الثاني، عند محلات الحلويات، ويعطونك رمزًا أيضًا. والخدمة ب تُعنى بالقات والخمر المحلي، والخدمة ج بالماخور والمتعة، والخدمة د ...
- يكفي يا حثالة، يكفي!

أوقفه عند هذا الحد، وكان الكَلَسي يفرِّغ ضحكه المسعور عن ملء شدقيه ويتململ بجنون. كانت تلك المحادثة تغزو عقل ونفس عبْدالغفور وتستولي على أطواق أحاسيسه. مع منتصف الليل، فرغ من المقهى، وسار إلى دوَّار مدرسة (سُميَّة) عند جولة (بنِ عزُّون) مارًّا على رصيف قناة الخَور، تحت كشَّاف إنارة عظيم يسطَع كقمرٍ من مسافة أمتار، كان

عَبْدالغفور يقف وحيدًا في هدأة السوق وخلاءه من الراجلين، ومعه هاتفٌ وسمَّاعات مركَّبةٌ في أذنيه، بدأ يتحرَّك ويصفّق ويطقطق بأصابع يده، مستمعًا لِأغانٍ تمنح النشوة وتستحثُّ الرغبة في الحبِّ والحياة. تبلورت في سويداء نفسه رغبةٌ بالحبِّ إلى الجنس الآخر، وتذكَّر اسم هَنوف، المرأة في الماخور، وتمنَّى الالتقاء بها، لعلَّهُ سيحبُّها ويُخَلِّصُهَا لأجله.

لكنَّ ذكرى فشل زواجه داهمته، وأحنقه رؤية مشهد مداهمته وهو بنصف وعيه، وكلام قيس عن التبرؤ وهو في الزنزانة البشعة، حتَّى خرَّ على الرصيف، بعين جاحظة توشك أن تخرج من محجرها.

❊ ❊ ❊

تجلّي

غربتْ شمس اليوم الموالي لمقتل عضوِ العصابة أصيل، وخلال هذه المدة، حازت فرقة التحقيق، على دلائل وقرائن لا تقبل الشكَّ، في وكر العصابة. وضع المحققون يدهم على طرف خيط يوصلهم إلى زعيم كل تلك الشرور والجرائم. لكنَّ الذين أمسكوا بهم قد قالوا بغرورٍ وفخرٍ أنَّهم لن يجدوا زعيمهم، ولن يصلوا إلى حلٍّ أمام منظمتهم المتعمّقة في جذور المجتمع.

كانت صبيحة ذلك اليوم حُبلى بالأخبار الصادمة للحالِمين: فهذه صفاء يُنعى إليها مقتل شقيقها، عبر ياسين نفسه، فتبكي أمامه وتصرخ بكلام غير مفهوم، وتودُّ لو تبتلعها الأرض فترقد فيها مرتاحةً من كلِّ الآلام. كما أخبرت الفرقة أمَّ قيسٍ أنَّهم يشتبهون في عبْدالغفور، فدخلت في نوبة عصبية، وبدأت توحي بأنها ستفطس غمًّا قبل أن تموت من أمراضها العُضال.

كان إيميل فارُوبيك قد كتب في مُؤلَّفه "صراخ الفقير" جملةً تعلَّقت كالثياب في المشاجب على فؤاده المكسور مع صفاء التي فقدت أملًا حسبته ممكنًا: **"كم هو جميلٌ أن نموت بدلًا من مواصلة حياة زائفة تعجّ بالظلم والألم.. ما أروع أن يموت الفقير بالنسبة إليه، فذلك خلاصُهُ الوحيد."** هكذا فكَّر ياسين وهو يقلِّب بين يديه كلَّ ما حدث، ومع ذلك، تشجّع لمرةٍ أخيرة، وظلَّ مع صفاء يؤنسها ويداوي جراحها على طريقته، حتى تحين اللحظة المناسبة.

ظلَّ عَبدالغفور، في هذه السـاعة التي يحتدم فيها الصـراع على ملكوت السـماء بين سـرابيل الليل المتعجرفة وبقايا خيوط النهار اليوسـفية، جالسًـا على دِكَّةِ دَرجات متجر للملابس في ركن عمارة نقابة المهن التربوية أمام بؤرة السـوق وسـاحته. راح يتأمَّلُ الغُروب، وهذا يومُ الخميس، وغدًا يوم راحة للمسـلمين، والسـوق نشـطٌ يعجُّ بالناس ودبيبهم السـاخن، كان يحتبي بيديه، واضـعًا ذقنه الملتحية على ركبتيه، ينصـت للأذان وهو يكبُرُ على لغط السوق، ولمَّا قامت الصلاة، هبَّ العبادُ الفقراء إلى الله طالبين منه ما تشتهي أنفسـهم من الحياة، والبعض ممَّن لم يكن عيشـهم رغيدًا كما تمنُّوا يطلبون فقط السـتر. وشـعر عَبْدُالغفور بأنَّ نظره قد أعشـى، من يدري لماذا! أهي نتيجة محتومة لبكائه المُسـال؟ أم لِأنَّ صـداعه المزمن وحالته العصـبية فعلا به ذلك؟ لكنّه تجاهل ذلك وصـلَّى، كأيّ شـخصٍ عادي، ثمَّ غادر المسـجد مسرعًا في شأنٍ هامٍّ يخصُّه. تخاطر مع نفسه يقولُ:

- أريد إيجاد كعب ذاك.

وراح لا يلوي على شيءٍ سوى الوصـول إلى عمارة "كعب"، حسـبما سـمع اسـمه من رواية الرجلين البارحة. إنَّ عاطفةً حارَّة تتوقَّدُ في مهجته، ويبرز في وسـط فؤاده شـعورٌ بالرغبة في الحب والاختلاء بأنثى؛ ولمَّا كانت هنالك صـورة أنثى متخيَّلةً في سـماء ذهن عبْدالغفور، ومض اسـم هَنُوفٍ، وأخذ ثغره يرتجف من النشـوة المرسـومة، وقلبه يدقُّ بمِطرَاقِ الغريزة اللاهب.

عندما وصـلَ إلى باب العمارة الموصـوفة، شـعر بثقلٍ في قدميه، وهمَّ جسده كله بالارتجاف، وعيناه لا تستقرَّان كلتيهما قلقٌ وريبة، لكنه قاوم هذا الشـعور المزمن، وأبى التسـليم لخوفه من عين الشـبهة أو عذاب الخزي بالفضـيحة. "لم يعد الأمر مهمًّا كما سـبق"، قال لنفسـه، وظلَّ واقفًا أمام الباب لدقائق، في زقاق لا يصـله من ضـوء الشـارع إلا طيف واهن. دقَّ الأرض بقدميه، وانتظر اللحظة التي يحشد فيها عزمه الشخصي العقلي. إنَّ نفسـه تخونه الآن، وتغادره، ولا تبقي له إلا هو وإرثه العقلي والنفسـي، أما الهوى فقد طاش، والنفس السـيئة قد اختبأت، وما أحوجه الآن إلى دفعةٍ منها تقذفه في هذه العمارة المشؤومة.

كانت في نقطة عمياء تقِفُ خلف بنايةٍ شـاهِقَةٍ تشرف على الشـارع، من ورائها بابٌ يشرف على زقاق مظلم غَمَرَهُ الوسخ والتبغ وأوراق القات، وبقع المياه القذرة ترسم طرطشة سوداء. خُيِّلَ لعبْدالغفور أنَّ البابَ مغلق، فخشي ما خشـيه، وظلَّ يتأبَّط نفسـه ويسـتنفر حزمه حتى اسـتجمعه في مجمع يده، فمدَّها يريد الطرق، ولكنها هامت وحارت في الفضـاء، كأنها أرادت مسـتحيلا، زاغت عن حقيقة الأمور، وتجمّد بفعل رِعْدَةٍ شَـديدة اسـتولَت باستبدادٍ لا مفرّ منه على هذا الجسد الضئيل، الواقف في الظلمات. إنَّه يبصر ولا يميّز، ثم يبسط يده ولا يلمس، أيُّ رعبٍ استدركه في تلك اللحظة؟ بدأ يتخيل أمورًا ليست في مواضعها، وكان يكابدُ الأمَرَّين، ويفقد رويدًا مواطن الإحساس في أطرافه، ويربو، مع ذلك، هلعُ نفسه المساقة إلى أغوار المجهول.

مدَّ يده مجددًا، لا يصدِّق ما سبق وحدث، أهو في عرضٍ خيالي حيث القوى الخارقة تغلو في الوجود فتظهر لنا قدرة تشبه (اللانهائية) وهي لا تُدرَك ولا تُلمس، تظلّ منيعة الوصول، تسحر الألباب وتذهل الأنفس؛ فكذلك هذا الباب المفتوح، على ظلامه المخيف، يتجلّى كقدرةٍ مرعبة أبيّة، تسمح للراغب فيها بأن يراها رأي العين، ويدْرِكها بحاسَّة بصره الصحيح، وعند ساعةِ ما يرومُ حيازتها والظفر بها، أو ولوجها بسلام، تختفي في العدم ولا تتمثَّل، وتبعد ولا يقرب منها، أيُّ مَنَعةٍ لديها؟ وأي هشامٍ يقتدر النيلَ منها والولوج في لجتها الخطيرة؟ كأنما تقول: "إنني أمامك، فاعبرني إن استطعت، ونل مني إن قدرت!"، ليت شعري أيُّ منعرج يعرض لعبدالغفور هَهُنا! إنَّه يَرجفُ ويَوجفُ وَجِيفَ دجاجة وهي بإزاء نيوب الذئاب اللامعة، كأنما زاغ وعيه لا يدري أيتقدَّمُ أم ينكص على عقبيه درءًا لمصائب يُخشى عليه من عاقبتها. لكنَّ حاجته للحب والحَنان والرأف الأنثوي هي من ساقته إلى مكانه هذا، وإذ به يرى في الظلمات شيئًا يتماهى معها بحركة، صدحَ بغتةً رنين الجرس من علوٍّ ليُخرجه من خيمة خياله، وها هي قشعريرة رعبٍ تدبّ في أوصاله مزعزعةً له جسده، فكانت تلك الدفعة التي استبطأ قدومها.

صعد السلالم في ظلماتٍ تحفُّ به، لا يبصر وقع قدميه، يخرج يده فلا يكاد يراها، لكنَّه تمسَّك بالجدران، وصعد للطابق الثاني، وطرق الباب طرقاتٍ ثلاث.

- مَن؟

كأنَّ لسان عبدالغَفور انعقدت:

- مجنون... قصدي زبون! أريد الخدمة ج!

وفُتِحَ الباب، وسُحِبَ عبْدالغفور من ياقته، وكاد أن يصرخ هلعًا، لولا أن أضيئت الشَّقَّة أخيرًا. تبيَّن ملامح رجل واحد أمامه، قصير متين، أذناه كبيرتين فارَّتين، وجبينه كملعب إسمنتي، كان ذلك كعب بعينه.

- قبل أي شيء، الفلوس.

- بكم هي؟

- تقصد الخدمة؟

كان عبْدالغفور يفكِّر في هَنُوف، لكنَّه كذب وقال:

- إي نعم، الخدمة.

بصوت جليدي، أجاب القوَّاد:

- الليلة بعشرة آلاف، هيَّا.

ونزع من جعبته ربطة نقود، عدَّ منها عشرة، وأعاد الباقي إليها. قال كعب بنبرة فاترة، وهو اسمٌ على مسمَّى، فهو يرفعك بأعماله ليس إلى مراقي الشرف، وإنَّما إلى مراتب الخطيئة:

- هل تريدها الليلة؟

أومأ بالإيجاب، وطفق يجول ببصره في المكان، إنَّ طلاء الجدران في ردهة الشقة أحمر فاقع، وثمة كرسيان مرقّعان يقبعان في الركن، أشار كعب إليهما ليجلسا، وهناك ممر بين غرفتين مؤصدتين يوصلك إلى الحمام،

وسقف الصالة بلا مراوح، بدا الجوُّ كأنَّه داخل قارورة ضيِّقةٍ يضفي عليها ضغطًا رهيبًا، وهكذا كانت كلُّ الشقة.

- لقد جئتك من أجل الرمز.
- طيب، سأعطيك إيَّاه، لكن اقرأ أوَّلًا شروط الخدمة.

ناوله ورقة مقوَّى، قرأ فيها كلامًا كثيرًا، ملخَّصه كان كالآتي: لا تطلب من الموظّفة سوى جسدها. لا تقل من أين جئت. لا تعطِ معلومات شخصية لأيِّ أحد. الالتزام بتوقيع عقد بين مزوِّدي الخدمة والعميل لمدَّة أسبوعين. الأسبوع الثاني بنصف السعر. يُحسب عليك سعر اليومية وإن لم تأتِ يومًا بعد يوم... إلى نهايته، وكان شعارهم في وسط الورقة يقول: "لأجل إشباعك يا غالي، نحن هُنا."

وقَّعَ عبْدُالغَفُور على العقد، وسجَّل اسمه في مذكِّرَة مجلَّدة بغلاف أزرق بعد أن سأل كعبًا بنبرة متهدّجة:

- لماذا تريدون اسمي؟
- كي نمسك بك إن فررت. العقد واضح.

كان كعب وحشًا، معطوب العاطفة، لا يفقه إلا في أصول العمل، له جسدٌ مربوع متين البِنية، وعينان صغيرتان في وجهٍ دائري، ناعم الذقن أملسُ الخدَّين، له شارب خفيف ينعقف على شفتيه الناشفتين، وبشرته ناعمة ملساء. خرجَ عَبْدالغَفُور من ذلك المكان الخانق يحمل الرمز الرقمي ورأسه يدور، بينما ترجَّع صدى كلمات كعب فيه كالإنذار شديد اللهجة، لكنَّه

التقط أنفاسه مع أوَّلِ خطوةٍ في الزقاق الخارجي أخيرًا.

أذَّنَ العشاء، صُودر الوقت من حضن الحياة، فقامت الصلاة، ودخل عَبدالغفور مجدَّدًا إلى المسجد. كانت فلسطين في تلك الفترة تشهد حربًا شديدة من المحتلِّ الصهيوني، وقد وُصفت من قبل قيادات ومسؤولين هامِّين في الكيان بأنها حربٌ دينية وحربُ إبادةٍ جماعية، لذا، استنفر المسلمون، لا بالعتاد والعُدَّة، بل بالدعاء والمقاطعة والتوعية بالقضية قدر الإمكان، وكان ذلك بالعموم خيرًا، ولو أنَّ الكثير قد اعتاد حتى تغافل ونسي ما يعانونه إخوته من اضطهادٍ وإخراجٍ من الديار. بعد الركعة الرابعة والتسميع والمحمدة، جهر الإمام بالدعاء والقنوت لأجل أهل فلسطين والأمة جمعاء.

راحت المساجد تتضرَّعُ وتخشعُ بين يدي الله طلبًا للنُصرة لأهلِ فلسطين على الصهاينة الذين كانوا في الحال يدمّرون عمارتها ويخربون بناها التحتية عسى أن يبيدوا حضارتها، محض إبادة جماعية نموذجية كي تحتلَّها جموع اليهود الأفاقين الشُّراد بعد إعادة إعمارها.. أمّا دول الإسلام فصامتة، لا تحرِّكُ ساكنةً، ولسان حال جمهورها يقول: "أين الجهاد؟ أين اللحمة الدينية؟" وآخرٌ يهتف بغضبٍ: "لمَ الخوف؟ تتمسَّكون بلعاعة من الدنيا؟!" والمنابر تبثُّ الدعاء صادحًا في كل الأرجاء.

أتمَّ عَبدالغَفُور الفرض، ثمَّ قريبَ منتصفِ الليل عند العاشرة، يمَّمَ إلى حيِّ بلقيس، بعد أن أشبع بطنه، وتجاهل أهله كما تجاهلوه بصمتهم، ونسى

عهده في متجر إدريس للخياطة، اللهم إلا أن تذكَّر، وهو هناك، بيتًا لرجلٍ غنيٍّ رفيع الطبقة اسمه غمَّاز حامد، ورث عن أبيه دارًا كبيرة في أعلى تلَّة حي بلقيس، وقد احتقره لمَّا سلَّم له أثوابًا خيَّطها لأجله، فبصق عَبْدالغَفور وسلَّط عينيه على مدخل بيت غمَّاز كما لو أنَّه يتوعَّده بالويلات.

وصل إلى الماخور، وقرع الباب وأعطى الرمز الرقمي، ولمَّا قُوبل بالإيجاب، استهلَّت ملامحه، وافترَّ ثغره، وهفا بصوته يقول:

- أريدُ هَنُوف!

كان يحمل بين جناحيه حبًّا كبيرًا لامرأةٍ لم يرها قط. إنَّما هي الوحيدة التي سيُتاح له أن يصبَّ حبَّهُ ورغبته الغريزية فيها؛ لذلك حصل ما حصل، وانفرد في غرفةٍ مزيَّنة كغرفة عريس، بها ستائر بيضاء، وشالات حمراء، وقطع شراشف وحريرٍ تغطي الفُرُشَ والقاع، وقناني الشراب بالقرب على الكومودينو، وعطور تزيّن التسريحة، جلس عبْدُالغَفُور على السرير والدهشة والذهول تقطّعانه. شعر ببرودة الغرفة المكيَّفة، فوق أنَّه موسم الشتاء، والبرودة تحمل هواءً عَطِرًا تفوحُ به الجدران والوسائد، انقلب الخيال في تلك اللحظات واقعًا، وتقمَّص عَبدالغفور شخصية العريس وهو يصدِّق ذلك بحقٍّ، وانتظر عروسه بقلبٍ خافقٍ.

دخلت فتاةٌ هيفاءُ ناحِلة ببشرةٍ بيضاء مائلة إلى الصفرة، ترتدي فستانًا أحمرًا يهيِّجُ النفس يكشفُ عن ترقوتيها وكتفيها البارزين كأقماع عظمٍ ناتئ، شعرها كالنهر يجري على ظهرها ويحاذي ردفيها الممتلئين باعتدال، كان

المميز في مظهرها هو تفصيل جسدها واتساق أعضاءها مع عضلاتها، كأنما سخّرت حياتها كلها لأجل أن تصير بهذا الجمال.

- مرحبًا.

قالتها بصوتٍ أذاب وعيَ عبْدالغفور.

- أهلًا بك، اسمك.. هَند.. لا! عفوًا!

تبسَّمت الأنثى التي أذهلت عبْدالغفور عن نفسه، وبشَّ وجهها، وقالت وهي ترسل نظراتٍ عاطفية لهذا الرجل الغريب الجديد:

- هَنُوف، أُدعى هَنُوف.

- نعم! هَنُوف، يا له من اسمٍ جميل.

- سلمت.

وافترَّ ثغرها باسمًا يكبُّ بلسمًا لا مرارةَ فيه على كيان عبْدالغفور، «أهذه حوريَّة عِينٍ من الجنَّة؟ هل متُّ وأنا الآن في الجنَّة؟»، كذلك بالغ عَبدالغفور في وصفها معتدًّا ببصره لا ببصيرته، ولو كان بكامل وعيه لأدرك أنَّ هذه الفتاة مكتئبة دهماءُ النفس.

- أنا عَبْدُالغَفور.

لقد انجرف في لعبة الأسماء، ولم يسطع أن يبقي على نفسه سرًّا عن هَنوف.

- أهلًا، والآن هل نبدأ؟

خَشِيَ عبْدُالغفور أنْ يسقط بنيان أحلامه، لقد كان يحلُمُ غير مرَّةٍ بأن

يمارس الحبَّ مع امرأةٍ يحبُّها وتُحبُّه، لا حواجز كُلفةٍ بينهم، ولا اصطناع قبيح، يفعلانها لا بدافع الرسمية والزواج، بل بذريعة الحب والرغبة في الاتصال بالآخر والامتزاج معه؛ لذلك قال لها:

- الوقت طويل، لمَ لا نتحدَّثُ أوَّلًا؟

رمقته بنظرة تساؤل، لكنَّها ابتسمت، وداعبت شعرها الأسود الفاحم، وجلست بجانبه، وأمسكت يده، والجاري أنَّ بدن عَبدالغَفُور قد ارتعش، أما والجوُّ مقرورٌ في هذه الغرفة، فقد اتّقى عرقًا كاد أن ينهلَّ عليه، واكتفى بأن لمعت بشرة وجهه فقط.

- أنا جاد... أشعر بعاطفةٍ تجاهك، منذ سمعت بك.
- وكيف سمعتَ بي؟
- في مقهى، على لسان... لا عليك، المهم أني سمعت عنك، وجذبني إليكِ القدر.

تضاحكت، ومالت برأسها:

- القدر إذن!

وصمتا قليلًا، ثمَّ شدَّت عَبْدَالغفور من أكمامه تستحثه:

- هيَّا، قل شيئًا.

بلع ريقه وضحك بحرج:

- حسنًا، إنني رجل بسيط جدًا.. أتعلمين؟
- أخبرني أكثر.

- كان لي شـــعار في حياتي: القرار الجيِّدُ يمنحك حياةً جيِّدة. إنَّه مثيرٌ للسخرية، أليس كذلك؟

- نعم، ليس كما تظن، إنَّه... جيِّد، وربَّما صادق.

لم تقاوم هَنُوف عاطفتها، فأبدت علائم انكســافٍ معلومة على تعبير وجهها، استشفَّها عَبْدالغَفُور وقال لها بنبرة سائلة رقيقة:

- لِمَ هذا الحزن؟

شــدَّت هَنوف حاجبيها وجحظت، ثم ضــحكت وهي تفرك عينيها، وأحنت رأســها، ورجرجته، ثم عادت لتقول وكلها الحَبور الظاهر تخادع الأبصار:

- ما من حزن بي، أتعلم، أنت شخص نبيل ونبيه.

- إن كنتُ نبيهًا فإذن أنتِ حزينة.

تأوَّهت هَنوف ضـاحكةً وشـدَّت يد هذا الرجل الأسـمر. وتنهَّدت قبل أن تقول:

- كلنا حزينون بطريقةٍ ما خاصّة.

- صحيح، ولكن احكِ لي.

تشــجَّع عَبدالغفور وقام بشــدِّ يدها، ونظراته كلها مولعة بهذه الأنثى المظلمة في داخلها. دفعها ذلك للخجل بشــكلٍ لم تألفه قبلًا، وأحنت هامتها، وكســرت نظرتها بعض الانكســار، وقاومت لئلا تبكي، ثمَّ بادعاءٍ واضح همَّت بالضحك متقنةً لدورها في خيالها.

- لا تقاومي نفسك، ألم تقرأي لِإيميل فارُوبيك؟
- آسفة... لست بقارئة.
- عادي، لا بأس، إنما هو كاتبٌ رائع، ولقد كتب يقول: "الاعتراف بأننا متألِّمون هي الخطوة الأولى في سبيل الصحَّة، وتجسيد كُل ما يجري في داخلنا من غضبٍ وشر، هي الخطوة الأولى في سبيل تحقيق حياةٍ مَا." أوَليس محقًّا؟ أنا، كنت أُنكر ألمي، أرفض كل شيءٍ بداخلي بحجّة أنه مجرد وسوسة، أغصب نفسي على الإيجابية والتفاؤل وغض الطرف عمَّن آذاني، لكنِّي وفجأة، تمَّت خيانتي وطعني على وداعتي. لقد حسبوني ضعيفًا، وإني بدوت كَذلك... فهمت أمرًا واحدًا؛ إنْ لم أظهر حقيقتي، فسوف يستغلني الناس. أنا قد فقدت ثقتي فيهم، لكنَّك بنظراتك هاته تذكريني بنفسي وأنا أثق فيهم، وأحسب أنَّ الأمر سيمرُّ على خير، كلَّا! علينا أن نكون ما نحن عليه حقًّا.
- آها.. فهمتك.

أصدرت صوتًا طفوليًا واستدارت لتقابل عبدالغَفُور، وبدأت تقول بعينين بارقتين:

- سأحكي لكَ ما يجري معي، لا بدافع طلب الشفقة والرأفة، وإنما لأنّي رأيت فيك رجلًا، ربما هي طمأنينة مع غريب سيقذف بكلامي في مكان لا أعلمه ولن أصل إليه، وربما لِتبقى مميَّزًا حتى

آخر الأجل في عيني. إنَّني أُحذِّرك، هذا ليس تعريضًا بالحب، إيَّاك أن تثق بي، إياك أن تفعل!

- لكنَّني أُحبُّكِ بالفعل.

تجمَّدت ملامحها على ابتسامة تعجُّبية، وبعد ثوان انفجرت ضاحكة حتى أدمعت:

- أنتَ ستصيبني بنوبة جنون!

- كلَّا، عفوًا!

وعادَ، بعد لحظات شجاعة، إلى خجله وغضِّ طرفه.

بدأت هَنُوف تسردُ ما بها:

- أبي، إنَّ حالته حرِجة، قد لا يصمد للغد.

- وماذا به؟

- إنَّه مُقعد، كان جنديًا في الماضي، ولكنَّه في حربٍ ما بترت ساقه وقطعت الأخرى، وشلَّت يمينه، وصار كالعاهة العُضال، ولقد اكتأب غير مرة، وهو يرى نفسه عبئًا عليَّ لا يستطيع أن يعيلني. ثم يرى أنَّه المُذنب فيما صرتُ أنا إليه، ولكنِّي أنكر عليه ذلك، واستطعت بعد جهدٍ إقناعه بقَبول كوني.. بَغيًّا.

سكتت هَنُوف مُحرَجةً من كلامها، كان التصريح بتلك الحقيقة أمرَّ من فعلها بالنسبة إليها.

– فهمتك، ماذا أخبرتِهِ حيال دافعك؟

- المال، استطعت إعالة أسرتي بمالي الذي أجنيه هنا، إنما أنا لا إخوة ذكور لي، وأمِّي متوفَّاة منذ بضع سنين، لديَّ أختان تدرسان في الأساسي حاليًا، ولا أحد يعلم عن طبيعة عملي سوى أبي؛ وهذا ما يجعل الأمر صعبًا عليه...

ربَّت عَبدالغَفُور على ركبتها، بعد أن استدار هو الآخر إليها، وقابلها، وأحسَّ بالعاطفة تجاهها تغزو كيانه.

- أفهمك الآن جيِّدًا... ولكن اسمحي لي.

- تفضَّل.

تنحنح وهو يخبرها:

- أليس في الموتِ راحةً له؟

صمتت هَنُوف، وغرقت في شعور الصدمة، متجمّدةً كأنَّ على رأسها الطير، اهتزَّت شفتيها، وأفلتت يَدَ عبدالغفُور، ودخلت في نوبةٍ من الخَرَسِ المَرَضي، كأنَّها البحر يسحب مدَّه ويجزر مبتعدًا في زعلٍ عن الشاطئ المقفِر. تدارك عَبدالغفُور غلطته وصاحَ بانفعال يعتذرُ:

- لا، أرجوكِ! لم أقصد... أعتذر، أنا...

وخيَّم الصمت ناصبًا أوتاده في حنجرتي الاثنين. عبرت دقيقة، حتَّى تنهَّدت هَنُوف:

- لن يبقى لي أحدٌ بعده.

- وأختاكِ؟

نكست رأسها، كأنَّ السؤال لا يعنيها، وبسرعة مباغتة قال عبدالغفُور:

- أيمكنني أن أكون معك؟

بهتت هَنُوف واضطرب قلبها وقالت بنبرة ذابلة:

- ماذا تعني؟

- أريد أن أبقى معك، سأكون بجانبك للأبد، اسمحي لي بهذا!

- أنتَ مخبولٌ يا عبدالغَفُور، ألا ترى هُويَّتي؟

تذكّر كلام العجوز بلار، وشدّ قبضتيه ليهتف بقوة:

- لا آبه! لقد أحببتُكِ، أشعر بأنّني أعرفك منذ زمن، أريد تحقيق بطولتي معك! على الأبطال أن يكملوا درب بعضهم، يا هَنُوف! إنَّ هذا هو موقفي الشخصي الصارم!

حَسِبت هَنُوفٌ أنَّ حبالها الصوتية قد نزعت منها، وظلَّت خرساء لدقيقة. ثمَّ إنَّ ملامحها لتبدو في غاية التأثُّر، وهذه دمعات سمانٌ يكبنُ أنفسهن على وجنتيها المتوردتين، ولم يمهلها عبدالغفُور أن تعود لصلابتها وتثب لرشدها؛ فَلَثَمَ يدها وهمَّ بمعانقتها وضمِّها إلى صدره.

- أنتِ مِلكي، وأنا سأكون لك، من فضلك.

- ابتعد! سأنادي الحارس!

- لن تفعلي، لا يمكنك.

- أنتَ تهذي، ما أنا إلَّا...

- إيَّاكِ! لا تقوليها. أنتِ لي!

- الحقيقة تقول...

- لا، أنا من سيعيد صنع الحقيقة!

بدأت هنوف تحسّ لأول مرّة بأنها مستسلمة.

- حسنًا.. حسنًا.. كما تشاء..

- هيّا، ابتسمي.. لا يمكن للشمس ألَّا تضحك.

- طيب..

رفع عَبدالغفور رأسه من كتفها، والتقت نظراتهما: كانت أعينهما تضيق، أنفاهما يحمرّان، شفتاهما تلمعان، دمهما يغلي، عواطفهما تفور، الحبّ الغائر ينبع كعينٍ جارية، والحياة تتدفَّق، والوعود تقطع، وفي النهاية، قبلةٌ عميقة في أبلغ مراكز الإحساس بالحب، والأذرع تحيط بالأجساد إحاطة دافئة. في صوبِ اللحظة، بدا الوقت متراجعًا، والحياة في طور إعادة بعثٍ جديد، وأقاصيص الأطفال عن الحبِّ المستحيل وأساطيره أمست في هذه الغرفة حقيقةً عجيبة مغمورة بالدموع الهَتون.

استسلمت هَنوف للمسات عَبدالغفور، وخلعت فستانها بانسياب؛ يذوبان في بعضهما، يتمثّلان آدم وحوَّاء في بدء الخليقة، لا يباليان بأحدٍ في الأرض، كما لو أنهما الوحيدان فيها، فتغدو الأرض بما رحبت من غاباتٍ وسُهُوبٍ وفيافٍ وبِيَدٍ وآمادٍ بحريَّةٍ، آمنةً تبعث على الاطمئنان والسكون، مريحةً لا رعب على متنها. ولم يهتمَّا بمآل ذلك الكلام ورجعه عليهما، فقد استبدَّ الحب بهما، وحرَّكهما بشغف نحو جسديهما يحكُّ بعضه بعضًا ويلتئم قليله مع كثيره؛ ولو حكَّ بيافوخه أعنان السماء لما جرَّه عقله،

المرهونُ بأمره، على التسليم بحبِّ هاته المرأة، إنَّما كانت عاطفته البكر التي لا سلطان له عليها.

شعر كلُّ واحدٍ منهما بحرارة الآخر، فكان اتِّصالًا وثيقًا أكَّد حبّهما الذي نما بشكل عجيب أشبه بالزيف؛ إنّما لم تأتِه فرصةٌ طوال حياته بأن يلامس إحساسًا لذيذًا ضاربًا في العمق كالذي لامسه مع هَنوف.

بعد ساعةٍ، ودَّعها عَبدالغفور، أخبرها بأنَّه سيعود حتمًا، وقد قالت هَنوف في نفسها بنبرة توسُّل: "أرجو ألَّا يتركني حقًّا."

عندما عاد إلى منزله، كانت الساعة هي الواحدة، ولمَّا دخل، لم يجد أحدًا، وتفحَّص الغرف من جديد، وعلى طاولة في الصالة، وجد ورقة محطوطٌ عليها دبَّاسة، أخذها ليقرأ خطَّ أخته التوأم، تخبره بأنَّهم في المشفى، وأنَّ أمهم فَوزِيَّة قد أُوعِكَت.

في العناية المركَّزة بمشفى ابن سيناء البعيد جدًّا عن بيت آل عبْدالغفور، تمَّ ترقيد فوزيَّة، وهي لا تُرجِّعُ صوتًا ولا تعيد جوابًا. أوعز الطبيب بأنها تحتاج إلى عملية في البطن لتدارك فتقها الإربي، وأنَّ رئتيها يحتاجان لتصفيةٍ. وصفَ لها أدوية طارئة لأجل تدارك مضاعفات مرضها السُّل الرئوي، بالكاد كان في حوزة عبْدالغفور ما يسدّد به مقتضيات الترقيد والأدوية، لكنَّ عملية الجراحة بالمرصاد، وأمّه قد تموت في أيِّ لحظة.

عاد عَبْدالغَفُور بعد طلوع الفجر، ونام في صالة الدار، بينما ظلَّت الأختان مع أمهما. لم يهنأ جفناه بارتخاءٍ مريحٍ، فَجَفَلَ بعد سويعات عند العاشرة صباحًا، وهرع بقلبٍ واجفٍ يُفتِّش في الخزانات عن مالٍ ربما خبَّأه

شقيقه قيس، لكنَّه لم يجد شيئًا. إنَّه لا يريد أن تموت أمه وسيفعل المستحيل ليتلافى ذلك المصير.

زاغَت السماء نحو ليلها، وحُمَّى رَهِيبة تُنَافحُ عقلَ عبدالغفُور حَتَّى أردتْهُ بِهَلْوساتٍ عرضَت له صورة أمه تحتضر وهي تشتم كلّ العالم، وصورة هَنُوف وهي تجثم عند سرير والدها المقعد منتحبةً، وصورة شقيقه وهو في سكرات الموت على الشاطئ يلعنه؛ كان رأس عَبدالغفور يغلي بشدة.

طُولب، بمهاتفةٍ صارمةٍ صباح اليوم، أن يوقِّعَ تعهُّدًا بإحضار قيمة العملية مساء الغد، ويحضر معه شهودًا فوق شهود المشفى ليبرموا العملية للمرأة الهالكة، وعندئذ، لوى زمام القدر إلى جهة البحار المفجّرة والمحيطات المشتعلة، حيث كلّ شيءٍ سيموت. كان لا بدَّ لِعبدالغفور أن يقولَ كلمةَ بطولته الشخصية، المرسِّمَةِ لرجولته ونبل عواطفه وحقيقته، فقرَّر بشيءٍ من الحقد وغلواء العزيمة أنْ يمضي إلى بيتٍ مألوف.

عند الساعة الثامنة، بعد إغلاق كلِّ مساجد مدينة المكلا، سرى عَبْدالغفور بخطوات متَّسعة حثيثة، خارجًا من بؤرة السوق على المنحدر حيث باعة المكسرات والمساويك يبسِّطون، وفي جعبته شيء. مرَّ بشارع البنوك أمام الجسر وكله جلبة وزمامير وعوادم تعكّر صفوَ الهواء، لكنَّه مرق بين الجموع وعربات بيع جوز الهند القديمة المتهالك طلاؤها الأزرق، وسار على الجسر يستند على إفريزٍ حديديٍّ فاتح الزرقة، يغذُّ خطاه على الخرسانة، كان الجسر المعلَّق كئيبًا يتخلله الصمت، ومن فوقه أعمدة

متشابكة كلها بلون السياج، ومنها تتدلَّى ثريَّاتٌ صغيرة كالفوانيس تنشر الضوء الباهت الضعيف لتكشف عن عجائز سوداوات مع أطفالهن يتسوّلن. ناجدته إحداهنَّ، واستمالت فؤاده ورحمته، فوقف عليها وأعطاها ورقة من فئة مئة ريال، وأكمل سعيه، وإذا بالجسر يلفظه على شارع (١٤ أكتوبر) أمام مسجد (معاذ بن جبل) فتجاوزه وهو يستحثّ خطاه. عشرون خطوة متباعدة، وصل إلى ممرَّات التلّة المتعرِّجة يمنة ويسرة، فذرعها بسرعة، ومَاجَ خلالها صاعدًا، حتَّى بلغ ساحةً تقع في الوسط بين صحن المسجد وبناية فيها بِقالة صغيرة، دخلها راغبًا في قارورة ماءٍ، لكنَّه بُوغِتَ بانخفاض سقفها، حتى ظنَّ أن رأسه سيرتطم به، وكان الصبية يصيحون طالبين مقرمَشات وعصائر وألواح شوكولا... ناولَ البقَّال مئتان، وغادر ليصعد سلالم التلَّة.

كانت سبعة عشرة درجة، بعد أربع درجات تأتي فسحة صغيرة، وكلها مليئة بالغبار والطين، يضيئها سراج عسلي اللون كابي الدرجة. ارتقى الدرجات ببطء وقلبه يخفق بعنف، وأحسَّ بنفسه أمام طائرة توشك على الإقلاع تضغط بضجيج محرِّكاتها على نفسيته وذهنه. ولمَّا بلغ الباب، سرَّح ناظريه في المكان: بيت من حجر أغبر إسمنتي، له أربعة طوابق، ومدخلان، الثاني عن يمينه، وفي إحدى النوافذ المطلة على المدخل الثاني، ثمَّة خزان ماء أزرق منبعج من وسطه. طرق الباب، وهو يتنفَّس صَعودًا، حتَّى إذا ما فتح له الفتى الغني غمَّاز حامد، قام برشِّه بالماء، فتقهقر إلى الوراء، ودلف عبدُالغفور إلى الداخل بتهوُّرٍ، وضرب رأس غمَّاز بالجدار ليسقطه داميًا.

كان يلهث بأعصاب تالفة، حاول تهديد نساء البيت بوضع يده في جيبه كأنَّه سيلتقط منه مسدَّسًا، وصرخ قائلًا:

- أعطوني مالًا! الآن!

وبدأ العويل، مرَّت لحظات من الصدمة على أهل غمَّاز، ثم ثابوا لرشدهم قليلًا، فسمعوا كلام عبْدالغفور وفتحوا الحقائب والصناديق، وأعطوه معظمَ ما فيها، وكان يهذي ويكرّر قوله:

- هذا لأجل أمي، أنا رجل طيِّب، ولكنّ أمي ستموت!

وكان العرَق يغمره وكلُّه يلتمع تحت قصبات الإضاءة النيلية، وعندما نال بُغيته، وكان في يده كيس المال، لا يدري، لماذا شعر بالحياة كلها في متناول يده، وأنَّ ما مرَّ به كان تمهيدًا لتحقيق هذا الإنجاز الذي يراه ماثلًا في رَاحَتَيْ يديه.

ساعتئذ وصل إلى المخرج الذي ترك بابه مواربًا، أَلِفَ غمَّاز قد بارَحَ مكانه، واستدار يبحث عنه بفزع، فظهر له من ورائه بغتةً، استنفر عبدالغَفُور خوفه وقواه شاهرًا بيده سكينًا، وتقدَّم من خصمه اللدود مستذكِّرًا احتقاره له، فصاح يقول:

- مت يا عنصري! لك الموت!

- لعنة الله عليك يا عبد!

وجاءت الركلة قوية على بطن عبْدالغَفور أزاحته أمتارًا للوراء وقذفت به قرب الباب وسقط من يده السكين، لكنَّه قبض على كيس المال، كان

يمكنه الفرار ولو لحظيًا ولعب لعبة المطاردة، لكنَّ شيئًا ما أبقاه، والشحناء البسيطة التي تولَّدت داخله إزاء هذا الشاب المدلّل المترَف، جعلته يرغب في القضاء عليه، والجرأة فيه قد تنامت، وهمَّ بالإقدامِ عليه مجدَّدًا، لكنَّ غمَّاز بدا أقوى وأقدر على خصمه منه رغم حقيقة إصابته في رأسه بجرح نازف، فضربه ثانيةً وشدَّ على تِرقوته ولوى كتفه الأيسر ليوقعه أرضًا، تحته تمامًا. كانت تلك مسافةً قريبة لعَبْدالغفور من السكين ومن غمَّاز، فالتقطها بسرعة، وهو أمام الباب الذي انفتح إلى الخارج، وكالأسد الحَرِّيف وثبَ على غمَّاز، وهوى بسكينه في صدره، غمّاز الذي تأمَّن على نفسه من هذه اللحظة، بأنْ انتزع من حزامه مسدَّسًا ملقَّمًا، وفتل الزناد، واخترقت الرصاصة الطائشة صدرَ عبْدالغفور، وهوت به إلى خارج المنزل، ساقطًا على عتبة بابه، متقلّبًا على السلالم، والدماء تسيل ببطءٍ وحرارة.

بدأ وعيُ عبدالغفُور يتلاشى، وكيس المال بعيدٌ قد سقط منه على عتبة المدخل، وأمُّه ستموت في أيَّة لحظة، وحرارة الموت تغزو صدره، وهَنُوف قد تفقد والدها الليلة، قد تظلُّ وحيدة، والمحاكمة قد لا تُقام فلا تثبت براءته، وأخته التوأم قد يصيبها العمى من فرط ما ستبكيه، قد يفقده أناسٌ كثيرون وهو مرميٌّ هُنا فوق بركة دماء، لكنَّه مع ذلك كلِّه، استطاع أن يُقول، مُغَمغِمًا:

"ما أجمل الحَيَاة وهي تلفظُ أنفاسها الأخيرة!".

❊ ❊ ❊

خـــلل

مـا الـذي يصنـع المجـرم؟ أهـو الشر الكامـن في النفـس، أم هـو المجتمـع الـذي يُضيّـق الخنـاق على الفـرد حتى لا يجـد سـوى الهاويـة طريقًـا؟ في "خلـل" يخـوض عبدالغفـور، الشـاب اليتيـم المثقـل بالفقـر والاضطـراب النـفسي، رحلةً شـاقة بحثًـا عـن حيـاة عاديـة وكرامـة مسـتحقة، لكنـه يجـد نفسـه في مواجهـة عالـمٍ تختلـط فيـه الحقيقـة بالتهمـة، والعدالـة بالقـوة، والرحمـة بالقسـوة. في مدينـة المكلا، تتشـابك مصائر شـخصيات أنهكهـا الفقـد والتهميـش، نجـد صـورة لهابيـل وقابيـل وتتصـارع رؤيتـان للحيـاة: واحـدة تؤمـن بإمكان النجـاة عبر التمسـك بالقيـم، وأخـرى تـرى أن المجتمـع نفسـه هـو الخلـل الأكبر. ومـن خلال هـذه الحكايـة الإنسـانية، يقـدّم أحمـد الهنـدي روايـةً تطـرح أسـئلةً عـن الهويـة، والحريـة، والطبقيـة، والذنـب، والثمـن الـذي قـد يدفعـه الإنسـان حين يحـاول أن يـبقى نقيًـا في عالمٍ فقد بوصلته الأخلاقية.



أحمـد الهنـدي: وُلِـد في أغسـطس 2000. درس هندسـة الإلكترونيـات والاتصـالات، وبـدأ كتابـة الروايـة والقصـة منـذ عـام 2020، متقاطعًـا مـع فنـون السيناريـو والمقالـة، ومشـتغلًا في الوقـت نفسـه بكتابـة المحتـوى الإبـداعي والتسـويقي. صـدرت لـه روايـة "حي بيرياي" 2022، وشـارك في الإقامـة الأدبيـة "مجـاز" (2025) مؤسسـة حضرمـوت للثقافـة، وأنجـز روايـة "البريطـاني الأخير". وروايتـه "خلـل" مـن الفائـزات بجائـزة السرد اليـمني- حَزَاوي في دورتها الرابعة 2025.

YKB
بنك اليمن والكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني